

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف

٦٥٨-٩٢٢هـ/١٢٦٠-١٥١٦م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب

أنس عبد الله المحمد

إشراف الدكتور

عمار محمد النهار

العام الدراسي ٢٠٠٩-٢٠١٠م



المحتوى

فهرس الملاحق

قائمة الرموز والمختصرات		
م	=	مجلد
ج	=	جزء
ق	=	قسم
ص	=	صفحة
تر	=	ترجمة
تح	=	تحقيق
ط	=	طبعة
ت	=	توفي
(د.ت)	=	دون تاريخ النشر
(د.م)	=	دون مكان النشر

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبوأت القدس مكانة مميزة في التاريخ العربي الإسلامي، وذلك عائد إلى أهميتها الدينية وقدسيتها في نفوس المسلمين وغيرهم، وزاد في هذه الأهمية تلك المحاولات التي قامت بها العديد من القوى المحلية والأجنبية للسيطرة عليها، فكان الصراع حولها قائم على مر العصور، واليوم تُعد القدس رمز الصراع القائم بين العرب والمسلمين من جهة، وبين الصهاينة ومَنْ وراءهم أوروبا وأمريكا من جهة أخرى، ومؤخراً وأمام تصاعد الأعمال الصهيونية لتهويد القدس وطمس المعالم الإسلامية، تزايد الاهتمام بالمدينة على مختلف الأصعدة، ولاسيما الاهتمام بتاريخها على مر العصور لإثبات زيف الادعاءات اليهودية بحقهم وبهيكلهم المزعوم في القدس، فبينما كانت القدس في العصر الإسلامي مركزا حضاريا مشعاً أمَّه كل من طلب العلم، أصبحت الآن بؤرة الأعمال الوحشية والتخريبية تحت حكم الصهاينة كما كانت منذ ثمانية قرون تحت حكم الصليبيين.

عندما وُضِعتُ أمام اختيار موضوع للبحث به لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، كنت أفكر في الموضوعات المهمة والاستراتيجية التي تتفاعل مع المشاعر الوطنية، والتي تحتل المكانة الأولى في القضايا العربية والدولية والأحداث التي تسيطر على هاجس الأمة العربية والإسلامية، فوجدت أن جوهر تلك الأحداث هو الفردوس المفقود (مدينة القدس الشريف)، فبدأت أفكر بالبحث في تاريخ هذه المدينة في عصر الحروب الصليبية، إذ إنها تشهد حالياً المحنة نفسها، فأردت أن أعود بالواقع إلى تلك الأحداث لأتدارس الأسباب التي أدت إلى ضياع القدس، وللبحث عن مخارج كتلك التي خرجنا منها منذ ثمانية قرون، ومحاولة اقتفاء الخطى لاسترجاع القدس وفلسطين، ولكن ما تم

ملاحظته أن القدس نالت من الدراسات التاريخية (سياسياً وعسكرياً وإدارياً) ما لم تنله غيرها من المدن والبلدان، إلا أن الاهتمام بالناحية الاجتماعية وحياة السكان العامة كان قليلاً، بل نادراً، وهذا على عكس ما ينبغي، إذ إنّ القدس شهدت تحولات جذرية في بنية السكان في ذلك العصر، فبعيد دخول الصليبيين إلى القدس عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٩ م أبادوا معظم السكان وهجَّروا الباقي، وأسكنوا المدينة بسكان أوروبيين قدموا مع الحملة الصليبية الأولى، وبُعيد تحرير المدينة على يد صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م تم تهجير هؤلاء الأوروبيين، وقدم مع قدوم صلاح الدين سكان جدد، فكان لزاما دراسة هذه الحركة ورصد التطورات التي رافقتها، والتعرف إلى بنية هذا المجتمع الجديد وحياته.

للوهلة الأولى يتبين لقارئ هذا الكلام أن الحديث عن المجتمع المقدسي في هذا البحث سيكون حديثاً عن المجتمع في العصر الأيوبي الذي أعقب العصر الصليبي، إلا أن المدينة عقب الفتح الصلاحي لها لم تستقر كما يجب، ولم تختلف الحال فيها كثيراً عما كانت عليه أيام الصليبين، فقد شهدت المدينة في العصر الأيوبي صراعات وحروب عديدة، وغدت كالكرة، تارة في ملعب الأيوبيين من حكام مصر، وتارة في معلب الأيوبيين من حكام الشام، وتارة أخرى في ملعب الصليبيين...، وتحمل المجتمع العبء والشقاء.

إلا أنه مع قيام دولة سلاطين المماليك في مصر والشام (بعد احتواء خطر المغول والصليبيين) بدأت المدينة مسيرة حياة مستقرة، لتأخذ شكلها ضمن الإطار الإسلامي، ولتتبلور الشخصية الإسلامية للقدس والمجتمع المقدسي، فوقع الاختيار على المجتمع المقدسي في عصر المماليك ليكون موضوعاً لهذه الرسالة.

وزاد من إقبالي على هذا الموضوع مقالاً قرأته في إحدى المجلات الصادرة عام ١٩٨٠م، يتحدث هذا المقال عن وجود وثائق تم اكتشافها في

الحرم القدسي الشريف تعود بتاريخها إلى عصر المماليك، وكانت هذه الوثائق على شكل معاملات تم تدوينها بين أفراد المجتمع المقدسي، ثم تبين أن هذه الوثائق لم تُستثمر في دراسة تحليلية، بل إن جل الأعمال التي قامت عليها هي أعمال نشر وتحقيق لا غير.

والواقع أن موضوع البحث في حياة الناس والعامة في العصور الوسطى هو من المواضيع الشائكة والصعبة التي تحتاج إلى جهود مضاعفة، وتأتي الصعوبة في هذا العمل في أن مصادر ذلك العصر لا يمكن الاعتماد عليها في مثل هذه المواضيع والأبحاث، فهي لا تمدنا بمعلومات كافية تجعل الأمر ميسراً، فمعظم تلك المصادر تكاد تُهمل ما يتعلق بحياة العامة، ولا غرابة في ذلك، فالتاريخ وكُتّابه في ذلك العصر كانوا ربائب السلاطين والملوك، يُدونون أحداث حياتهم في القصور وساحات المعارك والصراع على السلطة والنفوذ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الكتابات عن القدس بشكل خاص في عصر المماليك – إذا استثنينا كتاب الأنس الجليل والكتب الدينية المتمثلة بكتب فضائل القدس – هي كتابات قليلة تأتي على شكل معلومات متناثرة في كتب التاريخ العامة، من هنا تأتي الصعوبة في البحث، بالإضافة إلى صعوبة تحصيل الوثائق وكيفية التعامل معها في القراءة وفي التحليل واستخراج المعلومات وتوظيفها في مكانها المناسب من البحث.

ومع علمي بكل هذه الصعوبات، فإني توكلت على الله، وبدأت بكتابة هذه الأطروحة، والتي تم تقسيمها إلى أربعة فصول، تناول الفصل الأول بشيء من التفصيل العناصر السكانية التي تألف منها المجتمع المقدسي في عصر المماليك، فقد وفدت إلى القدس آنذاك عناصر سكانية متعددة الأصول العرقية والجغرافية، فتم الحديث عن أهم هذه العناصر، وتم تبيان أهم الأسباب التي أدت إلى تنوع الأصول العرقية للسكان، وتضمن الفصل الثاني محاولة للتوصل إلى تقدير مناسب لعدد سكان القدس وحالتهم، معتمداً في ذلك على تقديرات

الرحالة والوثائق العثمانية، وتم الحديث عن الفئات الاجتماعية في المدينة إذ تم تقسيمها على أساس ديني (مسلمون، مسيحيون، يهود)، وتلا ذلك الحديث عن العلاقة التي كانت قائمة بين فئات المجتمع، كما أنه تم الحديث عن الرقيق المنزلي، وذلك لكثرة ذكره في الوثائق، إذ قدّمت الوثائق معلومات فريدة من نوعها عن الرقيق المنزلي في المجتمع المقدسي وعن طبيعة حياته وعمله وحقوقه، وتعرض الفصل الثالث لموضوع جديد على ساحة الدراسات التاريخية، وهو المرأة، فقد حفلت الوثائق بذكر المرأة المقدسية، على عكس المصادر التقليدية، وقدمت لنا معلومات مهمة عن وضعها الاجتماعي، وعن الحقوق الممنوحة لها، وعن واجبات العائلات المقدسية، وعن نشاطات المرأة الاقتصادية والاجتماعية، فحاولت جاهداً توظيف هذه المعلومات واستغلالها لإيضاح الغموض الذي يعتري حياة المرأة في العصور الوسطى، وتناول الفصل الرابع الحياة الاجتماعية من زاوية جديدة غير زاوية النشاط الفردي، فتم الحديث عن المؤسسات الاجتماعية وعن نشاطها في المجتمع وأثرها على حياته، وعن الأوقاف التي كان لها الدور الأول في استمرار عمل هذه المؤسسات وكان لها أثر كبير في حياة العامة، ثم انتقل الحديث إلى طبوغرافية القدس وأهم حاراتها وخططهاو المنازل المقدسية من حيث شكلها، ومخططاتها، ومكوناتها، وأهم المواد المستخدمة في بنائها، وأثاثها ومفروشاتها.

وفي الخاتمة تم عرض أهم النتائج التي تمخض عنها هذا البحث، وأُرفق البحث بمجموعة من الملاحق، بالإضافة إلى قائمة لأهم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في هذه الدراسة.

واحتراماً للأمانة العلمية، ولزاماً عليَّ، يجب أن أُقر بأني لم أقدم فيما قدمت كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية للمجتمع المقدسي في عصر المماليك، إذ إنّ احتواء هذا الموضوع ليس أمراً ممكناً، فهو يحتمل العديد من الأبحاث والدراسات، ويبقى الميدان مفتوحاً، ويبقى جهدي متواضعاً أمام جهد الآخرين،

ولكني قدمت ما بوسعي وبكل صدق وأمانة وبكل ما أوتيت من صبر وتحمل للمشاق، راجياً من الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، فالقاضي إذا اجتهد، وحكم فأصاب له أجران، وإن اجتهد وحكم فأخطأ فله أجر واحد، فإن كنت قد أصبت في عملي هذا فمن الله، وإن كنت قد أخطأت فمن نفسي.

وأخيراً وليس آخراً، إن القدس الشريف التي قدمت قوافل الشهداء لن تستكين لقوى الشر والدمار ما دامت شعلة النضال من أجل الحرية ملتهبة في نفوس شعبها، و نقف بدورنا لندافع عن هذا الحق وندعمه بمداد أقلامنا في عصر أصبح فيه للكلمة الصادقة مفعول الرصاصة الفاتكة، وعلى هذا أُقدم هذه الرسالة آملاً أن تكون عونا على مناصرة الجهود الهادفة إلى إنقاذ القدس، فليس من العدل أنْ يُترك عبء إنقاذ القدس على كاهل المقدسي والفلسطيني.

ولابد أن أتوجه بالشكر لكل من قدم لي العون والمساعدة، وأخص بالذكر أستاذي المؤرخ الأستاذ الدكتور سهيل زكّار، الذي كان وراء تشجيعي على كتابة هذا الموضوع، والذي لم يبخل عليّ بمساعدة، وأيضاً أتوجه بالشكر إلى الدكتور عمار محمد النهار الذي تكرم عليّ بإشرافه على هذه الرسالة، وكان خير عون لي في إنجازها وإخراجها بشكلها الحالي، فلهما جزيل الشكر، والله أعلم، والحمد لله ربّ العالمين.

دراسة مصادر البحث

إن المصدر الرئيسي لهذا البحث هو وثائق الحرم القدسي الشريف، وفيما يلي دراسة لها:

أولاً: اكتشاف وثائق الحرم القدسي الشريف وما نُشر منها:

في كانون الأول عام ١٩٧٨م، وفي مقالة نشرت في إحدى المجلات الأوروبية[1] أعلنت باحثتان (إحداهما فلسطينية اسمها أمل أبو الحاج كانت مساعدة مدير المتحف الإسلامي في القدس آنذاك، والثانية أمريكية اسمها ليندا نورثروب باحثة في عصر المماليك) عن اكتشاف أثري مهم، فقد أفصحتا عن اكتشاف مجموعة من الوثائق في دروج المتحف الإسلامي الواقع في الجهة الجنوبية الغربية لساحة الحرم القدسي قرب باب المغاربة، وفي هذه المقالة (التعريفية أو الإعلانية) قدمت الباحثتان دراسة عامة عن المجموعة المكتشفة ككل مع وصف ملخص (فهرسة) لخمسين وثيقة متنوعة من مراسيم ومحاضر وصكوك بيع...الخ.

في الحقيقة الحديث هنا ليس بصدد ما جاء في هذا الإعلان (من تفاصيل)، ولكن ما تم الإعلان عن اكتشافه شكل أهم مدخرات الوثائق الإسلامية التي ترجع إلى العصور الوسطى، إلا أن هذا الإعلان لم يلق الاهتمام الكبير في الدراسات الإسلامية وغيرها، وحتى الآن هناك العديد من الباحثين الذين لا يعرفون شيئاً عن وثائق الحرم القدسي الشريف وعلى الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاماً على اكتشاف هذه الوثائق، وهذا أمر طبيعي وله تعليله، فأولئك الباحثين الذين كرسوا حياتهم لدراسة الإسلام في العصور الوسطى لم يكن علم الوثائق من النوع الذي يثير اهتمامهم، فهناك جهد مضنٍ يتحمله الباحث الذي

---

[1] Northrup, (Linda S.) and Amal A. AL-Hajj: (A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Haram Al-Sharif) Arabica XXV, No 3 (1978), pp. 282- 293.

يقضي حياته في فك رموز وخفايا اللغة في الوثائق والمخطوطات، فالأمر الأكثر إغراءاً أن يشق المرء لنفسه طريقاً في مجالات تتطلب براعة أقل وتكون فيها النتائج الملموسة والعاجلة أسهل منالاً وأكبر قدراً.

وهناك سبب آخر يعلل أو يفسر التخلف النموذجي (وخاصة عند العرب) في البحوث الوثائقية، ويرجع إلى حد ما إلى تفرق مصادر المادة وعدم سهولة الوصول إليها، وعدم رغبة الباحثين في إعداد أنفسهم لميدان مرهق من الدراسة، وإخفاق آخرين في استغلال الإمكانات التي كانت وما تزال متاحة لهم.

بدأ الاهتمام في هذه الوثائق يظهر مع محاولات البروفسور دونالد ليتل (الباحث في جامعة ماك جيل في مونتريال بكندا) للاستفادة منها، فقد استرعت هذه الوثائق اهتمامه، حيث أخبرته لندا نورثروب (إحدى مكتشفتي الوثائق وتلميذته) بذلك، وعلى الفور شكل هذا فريق عمل مكون من ثلاثة أشخاص، قَدِم هذا الفريق إلى القدس، وقام بتصوير هذه الوثائق على شرائط ميكروفيلم عائداً بها إلى جامعة ماك جيل، وبعد ذلك عكف هذا الباحث على دراسة هذه الوثائق، فألقى عنها بحثاً في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في عمان (نيسان، ١٩٨٠م)[1]، ثم قام بنشر دراسة مطولة عنها في إحدى المجلات الأوروبية (المجلة الألمانية Der Islam) تضمنت تعريفاً وتوضيحاً لأهمية الوثائق والمعلومات التي تحتويها والمجالات التي يمكن الاستفادة فيها من دراسة الوثائق[2].

---

(1) Little, (Donald P.): "The Judicial Documents From al–Haram al–Sharif as Sources for the History of Palestine under the Mamluks", The Third International Conference on Bilad al–sham: Palestine 19–24 April 1980. vol. I. Jerusalem. University of Jordan, Yarmouk University, 1983. pp. 117–125.

(2) Little, (Donald P.): "The Significance of the Heram Documents For the Study of Medieval Islamic History", Der Islam Band 57, Heft 2, 1980, pp. 189–219.

ثم قام في عام ١٩٨٤م بنشر كتاب تضمن فهرسة لكل الوثائق[١]، (ذكر رقم الوثيقة – حيث قام بترقيم الوثائق –، ونوعها، وتاريخها، وشكلها، وعدد الأسطر، وموضوعها، وأصحاب العلاقة، كما أنه نشر بعض النصوص)، وقام المرحوم الدكتور كامل جميل العسلي بنشر بعض وثائق الحرم (١٠٤ وثائق) في كتابه وثائق مقدسية تاريخية[٢]، وعمله هذا قائم على ترجمة الوثيقة فقط، أي توضيح الخط، وبدون أي دراسة، كما قام الدكتور محمد صالحية بعمل مشابه لعمل العسلي، إلا أنه قدم دراسة عن الملابس والأثاث[٣].

وظهرت بعض الدراسات الأخرى، إلا أن محاولات الاستفادة من هذه الوثائق ما زالت في المهد، فمعظم الدراسات هي نشر وتحقيق لعدد من الوثائق فقط لا غير.

---

(1) Little, (Donald P.): "A Catalogue of the Islamic Documents from al – Haram as- Sharif in Jerusalem", Beiruter Texte und Studien, Band 29. Beirut: Orient – Institut Der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft in Kommission bei Franz Steiner Verlag. Wiesbaden, 1984.

(٢) العسلي (كامل جميل): وثائق مقدسية تاريخية، الجزء الأول، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان ١٩٨٣م، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٥م، الجزء الثالث، نشر الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م.

(٣) صالحية (محمد عيسى): من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، الرسالة السادسة والعشرون، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

ثانياً: أهمية وثائق الحرم القدسي الشريف كمصدر لدراسة تاريخ مدينة القدس في عصر المماليك:

إن المؤرخين وكتَّاب السير في العصور الوسطى كانوا أشد عناية واهتماماً بالأماكن والمدن التي تشكل مسرحاً للقضايا السياسية والأحداث العسكرية، وبما أن القدس لم تكن في عصر المماليك ذات أهمية سياسية – إذ أنها كانت مركزاً للأنشطة الثقافية والدينية – فإنها لم تحظ باهتمام المماليك الذين تركز عملهم واهتمامهم بدمشق والقاهرة، وبالتالي لم تنل من عناية المؤرخين القدر الذي نالته باقي المدن المركزية، إلا في حالات زيارة السلاطين للحرم وتشييد الأبنية والمرافق الدينية والثقافية والاجتماعية... الخ.، أي أن المصادر عن تاريخ القدس في عصر المماليك قليلة جداً، فالمعلومات عن القدس في ذلك العصر كانت تعتمد وحتى وقت قريب جداً على كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين الحنبلي[1]، وهذا الكتاب الذي يبدأ ببدء الخليقة وينتهي بعام ٩٠٠هـ / ١٤٩٨م يحتوي على ملخص مفيد لعهود نواب السلطنة المملوكية في القدس وترجمات مختصرة لأشهر العلماء الذين عاشوا في القدس والخليل، ومعلومات قيمة عن المنشآت العامة وبعض خطط القدس، ومن الممكن أن نعثر على نزر يسير من المعلومات والحقائق الموزعة في كتابات الحجاج الأوروبيين، والرحالة وما بقي من آثار ونقوش، وفي الواقع إن هذا يشكل مخططاً لتاريخ القدس في عصر المماليك، ويمكن أن نستخدم الوثائق لتكسو العظام لحماً.

تأتي أهمية وثائق الحرم القدسي الشريف في أن الوثائق الأصلية المعروفة عن التاريخ الإسلامي قبل العصر العثماني قليلة جداً، وهي وثائق البردي

---

[1] مجير الدين الحنبلي (القاضي أبو اليمن، ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.

المصرية، وأوراق جنيزة القاهرة، فوثائق البردي المصرية هي على جانب عظيم من الأهمية، وهي تتناول في معظمها القرون الأولى من الإسلام ابتداءً من القرن الأول الهجري حتى العصر العباسي[١]، ووثائق الجينيزا التي تم اكتشافها في معبد يهودي في القاهرة تضم عشرات الآلاف من الأوراق باللغتين العربية والعبرية، وهي تعنى بشؤون القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادية حتى عام ١٢٥٠ م، وقليل منها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي، أي أنها تتناول العصرين الفاطمي والأيوبي[٢].

ومن الواضح أن هاتين المجموعتين (البردي، أوراق الجينيزا) لا تتعلقان أساساً بعصر المماليك الذي تعود إليه وثائق الحرم القدسي الشريف، ولكن ماذا عن الوثائق التي تتصل بعصر المماليك؟

إن الوثائق التي ترجع إلى هذا العصر عددها قليل جداً، أقل بكثير من عدد وثائق الحرم، فهي لا تتجاوز تسعمائةٍ وخمسٍ وعشرين[٣]، وهذه الوثائق هي:

١. **وثائق دير القديسة كاترين بسيناء:** وهي مجموعة من الوثائق، كانت محفوظة في الدير بشبه جزيرة سيناء، وترجع إلى جميع العصور

---

[١] وقد قامت عليها دراسات عديدة أهمها ما قام به جروهمان في كتابه(أوراق البردي المصرية)، وقد تُرجم إلى العربية ونُشرفي ٦مجلدات عام ١٩٩٤م، دار الكتب المصرية.

[٢] وقد عكف على دراسة هذه الوثائق عدد من علماء اليهود لصلتها بتاريخيهم ولرغبتهم بتضخيم الدور الذي لعبوه في تاريخ مصر والعالم الإسلامي، ومن أشهرهم على سبيل المثال: دافيد جويتان D.S. goitein في كتابه ذو المجلدات الأربعة (مجتمع البحر الأبيض المتوسط)، وعنوانه:

A Mediterranean Society (وقد طبع في جامعة بيركلي بكالفورنيا ١٩٦٧ – ١٩٧٨ م)، ولمعرفة أهمية وثائق الجنيزة في الدراسات الإسلامية انظر أيضاً مقاله (جنيزة القاهرة كمصدر لتاريخ الحضارة الإسلامية) وعنوانه:

The Cairo Geniza as a Source For the History of Muslim Civilization – Studia Islamica III 1955 p. 75 – 91.

[3] Little: A Catalogue, P.4-5.

التاريخية من زمن البيزنطيين حتى العثمانيين، وهي بلغات مختلفة أهمها اللغة اليونانية، وكان قد اكتشفها العالم الألماني تشندروف في أواسط القرن الماضي، وفيها ما يقارب مليون صفحة، إلا أن الوثائق التي باللغة العربية عددها حوالي ٢٥٥ وثيقة نشر منها فقط ١٠٠ وثيقة[١].

٢. **وثائق دير الفرانسيسكان بالقدس الشريف:** وهذه الوثائق عبارة عن فرمانات عديدة صادرة عن حكام المماليك والعثمانيين، ويبلغ عدد الفرمانات الصادرة بحق هذه الطائفة حوالي ٤٥٤ فرماناً منها ما يتعلق بكنيسة القيامة والأديرة الأخرى في بيت لحم والعيزرية والناصرة، ومنها ما يتعلق بالشؤون المختلفة التي تخص علاقة هؤلاء مع السلطة[٢].

ولابد من الإشارة إلى أن هذه الوثائق (سيناء والفرانسيسكان) بالرغم من إلقائها الضوء على التاريخ الإسلامي في عصر المماليك، تبقى محدودة ومكررة المواضيع، فهي تتعلق بشؤون الكنيسة والطوائف المسيحية في القدس وتنظيم أمورها وعلاقتها مع السلطة والطوائف الأخرى.

وهناك وثائق مملوكية أخرى محفوظة في القاهرة في وزارة الأوقاف المصرية، وفي مكتبة الأحوال الشخصية، وفي دار الكتب والوثائق القومية، لم ينشر منها سوى الآحاد في أبحاث متفرقة، وكانت إلى حد ما حكراً على

---

[١] نشر منها هانزارنست H. Ernst سنة ١٩٦٠ م اثنين وسبعين مرسوما سلطانياً ووثيقة أخرى في رسالة الدكتوراه التي قدمها في جامعة (gottingen) الألمانية وعنوانها:

Die Mamlukischen Sultansrkunden des Sinai – Klosters (Wiesbaden 1960)

وقد نشر فيها فهرساً للمراسيم والوثائق وعلق عليه وترجمها إلى الألمانية.

[٢] وهناك دراسة مطولة عن هذه الوثائق في كتاب الدكتور أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨ م.

الباحث عبد اللطيف إبراهيم[1].

ولكن الأمر يختلف من ناحية العدد والمضمون والنوعية عندما نتحدث عن وثائق الحرم القدسي الشريف، فهي تتعلق بشؤون المسلمين في مدينة القدس، وذات مواضيع متنوعة، وعدد كبير، والأهمية التي تنطوي عليها هذه الوثائق تظهر بصورة أجلى عندما نقوم بتقييم هذه الوثائق والمعلومات الواردة فيها.

لقد تم اكتشاف هذه الوثائق على مرحلتين، ففي ١٩ أب ١٩٧٤م نجحت أمل أبو الحاج مساعدة مدير المتحف، في فتح بعض الأدراج والخزائن التي كانت مغلقة في المتحف لتجد مجموعة من الأوراق بلغ عددها ٣٥٤، ثم في تشرين الأول عام ١٩٧٦م تم فتح درج آخر حيث وجدت فيه أوراقاً أخرى ليصل عدد الأوراق كلها إلى ٨٣٣ ورقة أو مادة، وفيما بعد (بعد فهرسة ليتل للوثائق هذه) أخذت كل ورقة رقماً، وأغلب هذه الأوراق تحتوي على إجراء (وثيقة) واحد مكتوب على جانب واحد من الورقة، وهناك أوراقاً تحتوي على أكثر من إجراء أو وثيقة واحدة، وقد وصلت في بعضها إلى تسع وثائق (إجراءات) مترابطة، وفي أغلب الأحيان توجد وثيقتان أو ثلاثة، على هذا فإن

---

[1] من مقالات عبد اللطيف ابراهيم:

- وثيقة قره قوجا الحسني، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٨، ١٩٥٦م، ص١٨٣–٢٥١.
- وثيقة بيع، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٩، ١٩٥٧م، ص١٣٥–٢١٤.
- التحقيقات الشرعية والإشهادات في ظهر وثيقة الغوري، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٩، ١٩٥٧م، ص٢٩٣–٤٢٠.
- وثيقة وقف مسرور بن عبد الله الشبلي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٢١، ١٩٥٩م، ص١٣٣–١٧٣.
- من وثائق دير سانت كاترين، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٢٥، ١٩٦٣م، ص٩٥–١٣٣.
- وثيقة استبدال، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٢٥، ١٩٦٣م، ص١–٨٣.

بعض المواد (الأوراق) التي أعطيت رقماً واحداً فقط تحتوي على أكثر من وثيقة، إذاً فالعدد الكلي للوثائق زاد على الألف وثيقة، وقد يصل إلى ١٥٠٠ وثيقة، وبناءاً على هذا يمكن عدّ وثائق الحرم القدسي الشريف في المرتبة الثانية (من حيث العدد) بعد أوراق البردي المصرية، كمجموعة وثائق إسلامية في عصر ما قبل العثمانيين، وتشكل مصدراً للبحث في تاريخ القدس في عصر المماليك.

أما عن الحقبة التي تغطيها هذه الوثائق، فهي تغطي المدة الممتدة من عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م، وهو تاريخ أقدم وثيقة، حتى عام ٨٦٦هـ / ١٤٦١م، وهو تاريخ أحدث وثيقة، ويتبين أن حوالي ٨٠ % من هذه الوثائق يعود إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

ويمكن تقسيم هذه المجموعة إلى عدة أصناف هي:

١-**المراسيم السلطانية:** وهي مراسيم صادرة عن سلاطين المماليك، وعددها سبعة أو ثمانية مراسيم[1]، منها مرسوم للسطان بيبرس (الوثيقة ٣٤)، ومرسوم الناصر محمد (الوثيقة ٨)، ومرسوم للسلطان شعبان بن حسن (الوثيقة رقم ٦)، ومرسومان للسلطان جقمق (٣٠٤ و٣٠٨)، ومرسوم للسلطان خشقدم (الوثيقة رقم ١)، وجميع هذه المراسيم تتعلق بأوقاف الحرم القدسي الشريف، وبصورة أكثر تحديداً: إنها تعالج موضوع توفير مصادر الدخل لصيانة المباني في القدس ودفع رواتب الموظفين في الحرم.

وهذا النوع من الوثائق يعطي الدليل القاطع على صحة ما جاء في المصادر التقليدية من اهتمام السلاطين المماليك بصيانة قدسية المدينة

[1] إن الوثيقة رقم ٣٧٥ المؤرخة في ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م لها شكل مرسوم، ولكن نظراً لعدم وجود الجزء العلوي منها فليس بالإمكان تحديدها على أنها مرسوم سلطاني.

والحرم، وهو ثالث أقدس مكان عند المسلمين، والأهمية الأخرى التي انطوت عليها هذه الفئة هي أنها عالجت مواضيع غير مواضيع الأديرة والطوائف المسيحية التي كانت تعالجها معظم المراسيم السلطانية التي تم العثور عليها خارج نطاق مجموعة وثائق الحرم.

٢-**المراسيم الأميرية:** أي مراسيم صادرة عن أمراء المماليك، وعدد هذه المراسيم عشرة، وهي تتناول أموراً بسيطة، وهي عادة أقل أهمية مما تتناوله مراسيم السلاطين، وكل هذه المراسيم هي خطابات للتعيين في وظائف دينية، و كانت تسعة مراسيم من هذه العشرة تخص العالم الصوفي برهان الدين إبراهيم الناصري، وتتعلق بتعيينه في وظائف دينية مختلفة، وعلى ما يبدو أنه كانت هناك حاجة ماسة له كموظف ديني في الحرم، ومن هذه المراسيم نذكر الوثائق ذات الأرقام (٢، ٤، ٥، ٧، ١٤، ٢٦).

٣-هناك نوع ثالث من المراسيم الموجودة في وثائق الحرم، تلك التي تكون مكتوبة في أسفل أو على جانب أو على ظهر العرائض، هذه العرائض تُشكل مطالب بواسطتها كان المسلم يستطيع أن يلتمس الإنصاف من موظف فاسد أو غير كفء في الدولة، وبعبارة أخرى، عندما كان المواطن يشعر أن حقوقه الشرعية كانت تُنكر أو يُحتال عليه، فإنه كان يستطيع إذا أخفق في الالتجاء إلى محكمة المظالم وتحصيل حقوقه، أن يقوم بتقديم عريضة يبين فيها مظلمته ويلتمس العلاج من الحاكم أو نائبه أو موظف كبير في الدولة، وهنا يأتي الرد على شكل مرسوم إلا أنه أبسط بكثير من تلك المراسيم المكتوبة على وثائق منفصلة، ويكون الرد (المرسوم) عبارة عن سطر أو سطرين في أسفل أو جانب أو على ظهر العريضة، وفيه يُمنح الشيء المطلوب أو تُعطى التعليمات لأحد الموظفين ليحقق في ما جاء في العريضة ويحكم بالعدل والإنصاف.

وفي وثائق الحرم سبعة وأربعين عينة، منها على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام (٧، ٩، ١٠، ١٣، ٢٣٢، ٢٧٨)، ولقد كانت القصص إحدى الوسائل التي لجأ إليها صاحب الحق لإنصافه خارج المحاكم، وهذه المراسيم تشكل دليلاً على استجابة المؤسسات الإسلامية في السلطنة المملوكية لحاجات الأفراد المسلمين.

٤-**قوائم التركات:** ومن المراسيم ننتقل إلى أكبر فئة موجودة في وثائق الحرم، والتي لا يوجد مثيل لها قبل العصر العثماني، وهي وثائق حصر تركات أموات أو أشخاص مرضى مرض الموت، وبلغ عدد هذه الوثائق ٣٧٨ وثيقة، منها ٣٣٣ وثيقة تبدأ من بعد تحديد التاريخ بعبارة (حصل الوقف على)، و٣٤ وثيقة تبدأ بعبارة (وقف على) بدلاً من عبارة (حصل الوقف على)، وكلاهما له المعنى نفسه، وإحدى عشرة وثيقة تبدأ بعبارة (ضبط حوائج فلان – سجلات ممتلكات فلان)، ولهذه الوثائق شكل خاص لم يرد ما يشابهه في كتيبات الشروط، فمن بعد تحديد التاريخ وكتابة إحدى العبارات السابقة، يتم تحديد اسم الميت أو المريض، وتحديد البيت أو المكان الذي كان فيه، وكذلك اسم الحارة، ثم يلي ذلك ذكر تركاته بالتفصيل، ومن ثم أسماء الشهود الذين حضروا ضبط التركة وكذلك توقيعاتهم، ونلاحظ في عدد كبير من هذه الوثائق أنه من بين الذين حضروا الضبط ممثل عن بيت المال الذي كان يرث بواسطة ديوان المواريث الحشرية[1].

---

[1] ديوان المواريث الحشرية: عندما يموت شخص ولا يوجد له ورثة، أو أن ورثته لم يثبتوا أنهم يستحقون (بمقتضى الشرع) كامل إرثه، فإن بيت المال يرث ما تبقى بعد توزيع الورثة حسب الشرع، ففي عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م رسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون: (إن كل من يموت من اليهود والنصارى والسامرة، الذكور والإناث منهم، يُحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية في الديار المصرية والشامية وأعمالها وسائر البلاد الإسلامية المحروسة، أي أن يثبت ورثته ما =

وفي الحقيقة: إنّ ما تم ملاحظته أن هذه الفئة من وثائق الحرم هي أخصب مادة للدارسين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، فهذه الوثائق تقدم معلومات مثيرة عن الألبسة والأقمشة في العصور الوسطى، فقد كانت ملابس كل شخص وأدواته تدون حتى آخر منديل، وفي بعض الأحيان يذكر مكان صناعة القماش وأحياناً اسم زَيّ مميز وعمر الثوب ولونه... الخ، بالإضافة إلى الأواني المنزلية والمفروشات وأماكن استيرادها، كما أنها تقدم معلومات عن طبوغرافية القدس مثل أسماء الحارات والشوارع والزوايا والربط، وهناك كثير من هذه الأماكن يذكر لأول مرة، حيث لم يرد ذكرها في المصادر التقليدية والمعروفة، كذلك تقدم معلومات مثيرة عن ديموغرافية المدينة وكثرة الناس الغرباء فيها عندما يتم نَسْبُ الشخص إلى بلاده الأصلية، فهذه الوثائق تتصل بشكل مباشر بحياة الناس ونمط معيشتهم وعلاقاتهم وأحوالهم الاجتماعية، ومنها على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام (١٦٢، ٣٠١، ٣٧٦، ٣٩٥، ١٩٧، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٧، ٦٣٥، ٦٩٥).

٥- **أوراق حسابات:** هناك فئة تشبه إلى حد ما الفئة السابقة، يمكن تصنيفها كأوراق حسابات، بلغ عددها حوالي ١٢٤ وثيقة، كانت كلها مكتوبة على أوراق لها قياس واحد (١٩ × ٢٨ سم تقريباً)، وكانت مطوية بشكل

= يستحقونه من ميراثه بمقتضى الشرع الشريف، وإذا أثبتوا ما يستحقونه يُعطون بمقتضاه، ويُحمل الباقي إلى بيت المال، ومن مات منهم ولا وارث له يستوعب إرثه حُمل موجوده لبيت المال مجرى من يموت من المسلمين، إلى أن تُبيّن مواريثهم). انظر، القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١٣، ص٣٨٤. المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: الجزء الأول والجزء الثاني محمد مصطفى زيادة، الجزء الثالث والجزء الرابع سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٣، ج٢، ق٢، ص٤٣٥-٤٣٦، ج٢، ق٣، ص٩٢٣-٩٢٤.

عمودي لتخاط في منتصفها وتصبح دفاتر حسابات، وقد أثبتت الوثيقة رقم (٨١٤) أن الكتبة في ذلك العصر أطلقوا عليها اسم دفاتر، فقد جاء في مقدمة هذه الوثيقة: (نقل هذا الدفتر المبارك..)، وفي هذه الفئة نجد ٢٧ دفتراً معنوناً باسم (مخزومة) لأنها كانت تثقب في جانبها وتربط معاً بخيط واحد، وكانت هذه الدفاتر على شكل سجلات للبيع العلني لمواد من ممتلكات الأشخاص الذين ماتوا في القدس، وكان البيع يجري بحضور شهود تُعيّنهم المحكمة، وإذا كان بيت المال يرث حضر الشاد[1]، وأحيانا ممثل عن نائب السلطنة. ومن أمثلتها الوثيقة رقم (٥٨٦)، وهي حصر لأثمان مفردات تركة بوطية بنت عبد الله التركية.

وكان بين هذه الفئة خمس عشرة وثيقة تدعى باسم (الورقة المباركة)، شبيهة بالمخزومات في أنها تحتوي على قوائم مفصلة بمواد الممتلكات، ولهذه الوثائق بشكل عام أهميتها بالنسبة للدارسين في التاريخ الاقتصادي، إذ أنها تقدم معلومات مهمة عن المواد، والأسعار، والعملات، ومن أمثلة هذه الفئة، الوثيقة رقم (٨٠٣) وتتعلق بـــ (مشتري فستق مبارك)، ويرد في هذه الوثيقة كمية الفستق، وسعره، وكذلك الوثيقة رقم (٢٩٩) تحدد أسعار الحاجيات الواردة فيها، وفي الوثيقة رقم (٥٧٣) يتم ذكر سعر الزيتون.

٦-**وثائق مالية:** وفيما يتعلق بالوثائق المالية هناك ست عشرة وثيقة، ستٌ منها عبارة عن مستندات لمبالغ مدفوعة كرواتب وفي حالات عديدة

---

[1] الشاد: صاحب وظيفة تسمى الشد، ترادف كلمة تفتيش، تضاف إلى مجالات متعددة، ومعناها المتكلم في هذا المجال، فيقال شد الدواوين، شد العمائر، شد الشرابخانة، شد بيت المال...، فمثلاً شد الدواوين: موضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثاً في استخلاص الأموال، شد العمائر: وموضوعها أن يكون صاحبها متكلماً في العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى: ج٤، ص٢٣، ١٩٣.

(لبرهان الدين الناصري)، بينما الإيصالات العشرة الباقية كانت تُصدر للمال والسلع ومنها على سبيل المثال الوثيقة رقم (٢٢) وصل استلام مبلغ ٥٠٠٠ درهم.

٧-**وثائق الإقرارات:** إن ثاني أكبر فئة بعد وثائق حصر التركات أو الممتلكات، هي فئة الإقرارات؛ فهناك أربعة وتسعين إقراراً تكاد تغطي القرن الثامن الهجري (٧٠٥-٧٩٩هـ/١٣٠٥-١٣٩٦م)، والإقرار هو اعتراف يسجل من قبل شخص، يشهد عليه شهود ذوو أهلية، يكون ملزماً من الناحية القانونية للشخص الذي يسجل هذا الاعتراف، ويمكن تصديق هذه الإقرارات من المحكمة زيادة في شرعيتها، ومن الناحية النظرية فإن مواضيع الإقرارات تتألف بشكل أساسي من معاملات والتزامات مالية بين أفراد المجتمع، وكثير من الحالات التي وردت في الإقرارات تُقرُّ بأنَّ شخصاً ما مدين لشخص آخر بمبلغ من المال، أو يكون مطلوب كالتزام شرعي (فرض)، كالإعالة المستحقة للزوجة، أو الأرملة، أو اليتامى، أو صداق العروس.... الخ، وتقر وثائق أخرى بتسليم مثل هذه الأموال أو البضائع، أو أنها تكون بمثابة إبراء من الدين، أو ربما كانت هذه الإقرارات تُسجل لجعل مسألة التوريث سهلة من دون تدخل الدولة، ومن أمثلتها، نذكر الوثائق ذات الأرقام (١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢، ٢٠٥، ٢٠٦)، وإن ما تم ملاحظته، أن هذه الإقرارات تتفق إلى حد ما في صيغتها وشكلها بصورة عامة مع ما ورد في كتب الشروط[1].

---

[1] يذكر السيوطي في كتابه جواهر العقود أن القاعدة في الإقرار بالدين هي:

أن يذكر اسم المقر، واسم أبيه وجده وشهرته، وما يعرف به، واسم المقر له، أو المقبوض منه، وقدر المبلغ المقر به من نقد أو غيره مما يثبت في الذمة، ويذكر الحلول في الدين، أو الأجر المتفق عليه، وإقرار المقر في الدين بالملاءة والقدرة على ما أقر به، ويذكر العوض في ذلك، مما =

بالإضافة إلى هذه الفئة، هناك عشر وثائق شكلها قريب من الإقرارات ولها الغرض نفسه، إلا أنها تبدأ بكلمة (يقول) بدلاً من كلمة (أقر، أقرت) فهي تشبه الإعلان، وهي تغطي التزامات ومعاملات مالية وأمور أخرى، ومن الأمثلة عليها الوثيقة رقم (٢٢٩) التي تتعلق بشخص صوفي مفقود غادر القدس عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م، ربما بسبب الطاعون.

٨-**الإشهادات والشهادات:** المواضيع نفسها التي تغطيها الإقرارات تغطيها إلى حد ما الإشهادات، فقد كان باستطاعة الشخص أن يستدعي شاهداً أو شهوداً ليشهدوا بأنه مدين لشخص آخر بمبلغ معين، أو أنه فعل كذا وصح عنه كذا.... الخ، وليس من الضروري أن يكون الإشهاد في مجلس القضاء، ولكنه قد يقع كذلك، عندئذ يكتسب قوة مضاعفة، ومن هذه الفئة يوجد في وثائق الحرم ما يقارب ثلاثة وخمسون إشهاداً تتعلق بمعاملات مختلفة، إشهاد وصايا، وإشهاد تأجير، وإشهاد كفالة،....الخ، ومنها على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام (٢٨ "ب"، ٢٠٠، ٢٢٣، ٢٩٢، ٣٣١، ٦٤٧ "ب"، ٧٠٣).

أما الشهادات فهي تتم أمام القاضي والشهود في مجلس الحكم (المحكمة)، وتبدأ الشهادة عادة بعبارة ثابتة "شهوده الواضعون خطوطهم آخره" وفيها يشهد من حضر على صحة ما جاء في الوثيقة، وكان الشهود يكتبون أسماءهم ويوقعون في نهاية المحضر، فيكتب كل واحد ما

= يخرجه من الجهالة، أو تبيين السبب الذي لزمه الدين به أو قبضه بمقتضاه، إما أن يكون بدل قرض أو ثمن مبيع، أو غير ذلك من الأسباب الملزمة، ويختم ذلك بتصديق المقر له، أو المقبوض منه على ذلك أنه حضر مجلس الإقرار، وإلا فلا. انظر، السيوطي (محمد بن أحمد المنهاجي، ت٨٩٠هـ/١٤٨٥م): جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، ضبط ودراسة محي الدين العتيبي، دار اليوسف، بيروت-المزرعة، (د.ت)، ص١٩.

يثبت أنه شهد، فيكتب (أُشهد بمضمونه فلان) أو ما شابهه، أما إذا كان الشاهد لا يعرف الكتابة، يُكتب قبل الاسم (كَتب عنه بإذنه وحضوره "فلان") أو ما شابهه، بعد ذلك يضع القاضي توقيعه على هامش المحضر الأيمن، فيكتب (ليسجل)، أو (ليسجل بثبوته والحكم بموجبه)، أو (ليشهد فيه)، أو (ليشهد بثبوته)، ومن هذه الفئة يوجد في وثائق الحرم حوالي خمس عشرة وثيقة منها الوثائق ذات الأرقام (٦٠٩، ٦٤٧ "آ"، ٢٨ "آ"، ٣٥).

٩-**سجلات محاكم أو محاضر:** في وثائق الحرم يوجد فئة بلغ عددها حوالي إحدى وعشرون وثيقة، يمكن تصنيفها على أنها سجلات محاكم أو محاضر حول إجراءات قضائية وقانونية متنوعة، تمثل جلسات محاكم بحضور القاضي للنظر في قضايا معينة، وهذه الوثائق تلقي الضوء على بعض الإجراءات القضائية والقانونية التي كانت متبعة في القدس أو في السلطنة المملوكية، تعطي لمحة عن مجتمع القدس وعن دور المحاكم في ضبطه وتنظيمه، ومن أمثلتها الوثائق ذات الأرقام (٣١، ٣٢، ٦٥٠)، هذه الوثائق الثلاث تتعلق بقضية واحدة رفعها أربعة أرقاء يطالبون فيها بتحريرهم، وفي الوثيقة رقم (٣٠) يفصل القاضي في منازعات دموية نشبت بين أهالي قرية القصور من أعمال القدس وأهالي قرية أريحا وسواها من قرى الغور.

١٠-**صكوك الشراء والتأجير:** صكوك الشراء البالغ عددها تسع وثلاثون تتعلق بشراء العقارات، والأراضي، والمنتجات الزراعية، وكانت السلع التي يتم شرائها تحدد بدقة، كذلك الأثمان، ومن أمثلتها الوثائق ذات الأرقام (٣٨٢، ٣٦٧، ٣١٦، ٢٩٨)، أما وثائق التأجير فقد بلغ عددها عشر وثائق، كلها تشير إلى عقارات (بيوت، دكاكين، حمامات،...)،

وهذه الوثائق تقدم مادة غنية للمشتغلين بالتاريخ الاقتصادي، ومنها على سبيل المثال الوثيقة رقم ٤٦.

١١-**وثائق أوقاف:** هناك أيضاً سبع وثائق تتعلق بالأوقاف، ثلاث منها يحوّل فيها أشخاص ممتلكاتهم في القدس إلى الأوقاف، والوثائق هي ذات الأرقام (٢٠، ٢٢، ٣٦، ٥٤، ٧٧، ٦١٧، ٨٣٣).

١٢-**يوجد في وثائق الحرم ثلاث فئات قريبة جداً في موضوعها**، فهي تشير إلى الشؤون الشخصية لفرد أو لعدة أفراد، الفئة الأولى هي عقود النكاح، فهناك في وثائق الحرم تسعة عقود نكاح ذات شكل قياسي، ويشير مضمونها إلى دفع صداق العروس من الزوج إلى الزوجة، ويحتوي اثنان من هذه العقود على ظهر الوثيقة، على وثائق إضافية تشير إلى طلاق وغيره، ومن أمثلة هذه الفئة: الوثيقة رقم (٤٧)، والفئة الثانية تتألف من أربع وثائق، هي وكالات أعطى شخص ما بموجبها تفويضه لشخص آخر من أجل معاملات معينة، ومن أمثلتها الوثيقتين رقم (٧١٠، ٤٩٠)، والفئة الثالثة هي الوصايا، حيث يوجد اثنتا عشرة وصية (عمليات توريث بوصية)، ومن أمثلة هذه الفئة: الوثيقة رقم (٥٠١).

١٣-**يوجد في مجموعة وثائق الحرم أربع وثائق استفتاء (فتوى)**، أي طلب لرأي قانوني في قضية، مثل إمكانية التخلص من شروط الوقف، ويوجد فيها رد الشخص المؤهل لإعطاء مثل هذه الرأي (وهو المفتي)، وهذه الوثائق الأربع قياسية قي شكلها وقصيرة في صميم الموضوع.

١٤-**يوجد في وثائق الحرم حوالي ست عشرة وثيقة متنوعة**، العينات الموجودة فيها قليلة الكمية، فبالتالي لا يمكن التعامل معها كفئة منفصلة.

١٥-**الفئة الأخيرة من وثائق الحرم هي وثائق كتبت باللغة الفارسية** وعددها سبع وعشرون وثيقة، لا تقل أهمية عن تلك المكتوبة باللغة العربية،

وهي من أقدم الوثائق المكتوبة باللغة الفارسية، وهذه الوثائق لا علاقة لأي منها بالقدس، إنما تتحدث عن أشخاص عاشوا في أماكن غريبة، وتجب الإشارة إلى وجود وثيقتين من بين هذه الفئة هما (٨٦٨، ٨٧١) فيهما عبارات أرمنية في نهايتهما، يبدو أنها كتبت من قبل أشخاص كانوا شهوداً على الوثيقة، وهناك أيضاً وثيقتان (٨٦٩ و٨٧٩) تحتويان على عبارات منغولية بالخط (اليوغوري) في أسفل الوثيقة، ويمكن أن نضيف إلى هذه الفئة عشرُ وثائقَ كتبت بالعربية إلا أنها تتعلق بأشخاص وأماكن في بلاد فارس، وهذه الوثائق لا يوجد لها صلة ظاهرة بالقدس إلا أنها وجدت هناك، ربما تكون قد كتبت بالقدس لأشخاص لهم علاقات وأعمال تجارية هناك، أو أنها كتبت في مكان ما وأحضرت إلى القدس في وقت لاحق، وهذا الأمر لا يمكن إلا التكهن به ويترك للحدس.

فما هي أهمية وثائق الحرم القدسي الشريف:

إن لوثائق الحرم أهمية بالغة في حقول الدراسات التالية:

١- تاريخ القدس في ظل حكم المماليك:

تُبين وثائق الحرم في هذا المجال أن القدس في عصر المماليك لم تكن مركزية بالنسبة لاهتمام السلاطين، إذ إن المدينة كانت مستقرة سياسياً، ولم تكن على أي من خطوط المواجهة مع المغول والصليبيين، فبالتالي إن اهتمام المؤرخين – الذين اعتنوا بالحياة السياسية والعسكرية أكثر من غيرها – بالقدس كان ضعيفاً، وهنا تأتي وثائق الحرم القدسي لتقدم مادة فريدة من نوعها – للمهتمين في تاريخ عصر المماليك بشكل عام وتاريخ القدس في هذا العصر بشكل خاص – في المجالات التالية:

أ- **الناحية الاجتماعية:** إن وثائق الحرم غنية بالمعلومات الاجتماعية ما دامت تدون في معظمها علاقات ومواضيع كانت قائمة بين أفراد مجتمع

القدس، فهي توضح وتدعم النظرية التي قامت عليها معظم كتب فضائل القدس من أن هذه المدينة شغلت مكاناً في أفئدة المسلمين، إذ أننا نلاحظ وجود عناصر سكانية من كافة أصقاع بلاد الإسلام مقيمين في القدس، ووثائق الحرم تبين لنا المستوى الاجتماعي للسكان، والغني، والفقير، والعلاقات، والمرأة، والزواج، والطلاق، والنفقة والأولاد، والصداق، والاستقرار في العلاقات بين أهل الذمة والمسلمين... الخ.

ب- **الناحية الاقتصادية:** فهناك وثائق عديدة تخص القضايا الاقتصادية، من بيع، وشراء، وتأجير، ورهن، ودين...الخ، ناهيك عن المعلومات الواردة فيها من أسعار البضائع والسلع والألبسة والمنتوجات الزراعية والمنازل، والأراضي، وأجور العمال...الخ، كما أنها تقدم معلومات عن حركة التجارة الخارجية عندما يتم نسبة بعض المفروشات والملابس والأدوات إلى مناطق مختلفة من العالم، كما أنها تشير إلى المهن والحرف التي كانت منتشرة في القدس.

ج- **الناحية الثقافية:** تقدم وثائق الحرم بعض الإشارات عن المدارس والزوايا، والاهتمام المملوكي بالتدريس وصيانة المدارس وحتى عن الكتب التي كانت شائعة، والتي توضح مستوى البيئة الفكرية، ففي الوثيقة رقم (٦١) ثَبْتٌ بحوالي ١٣٠ كتاب من تركة العالم برهان الدين الناصري، ومن قراءة عناوين هذه الكتب تبين أن معظمها كتب في الفقه الشافعي، ويمكن ملاحظة وجود عدد كبير من مؤلفات ابن الجوزي، أيضاً هناك حالات مشابهة وردت في الوثيقة (١٨٠) والوثيقة (٥٢٣).

د- **شؤون الإدارة والحكم والمؤسسات الحكومية وتطبيق الأنظمة والقوانين:** فبعض الوثائق تشكل مصدراً أساسياً لدراسة الممارسات القضائية والقانونية في العصور الوسطى، ولدراسة أجهزة الحكم المملوكية وطريقة عملها فيما يتعلق بتعيين الموظفين، ومرتباتهم،

والضرائب وقضايا الأمن العام، ودواوين الدولة، فعلى سبيل المثال هناك بعض الوثائق تتحدث عن وجود بيت المال المعمور في القدس يرأسه ناظر، أو مشرف، أو وكيل، أو شاد، ناهيك عن الوثائق التي تشير إلى ديوان المواريث الحشرية وطريقة عمله، وعلى كل حال فإن الباحث في هذا المجال عليه أن يقرأ أي نص من النصوص قراءة سليمة ويفهم دقائقها القانونية حتى يتوصل لمعلومات عن الطريقة التي كانت تعمل بها مختلف المؤسسات، فمثلاً الوثيقة رقم ٦٤٢ توضح كيف كان القاضي يتولى التحقيق في حوادث الاعتداء، وكم هو مدى التطبيق الفعلي لأحكام الشريعة الإسلامية في النظام المملوكي...الخ.

٢- علم المستندات (الوثائق) الإسلامية:

بالإضافة إلى أهمية الوثائق كمصدر لتاريخ القدس يمكن أن تفيد في مجال علم الوثائق، إذ أن وثائق الحرم هي من أكثر المجموعات تنوعاً في مواضيعها، فتفيد هذه في الأساليب المتعلقة بالصياغة، وأشكال هذه الوثائق، ومصطلحاتها، والعلامات والتواقيع، ومواد الكتابة من ورق وحبر... الخ.

٣- ويمكن للباحثين في اللغة العربية وتطورها وظهور اللهجات العامية الاستفادة بشكل كبير من وثائق الحرم، إذ وجدت بعض الوثائق التي تم تدوينها باللهجة العامية الدارجة آنذاك.

ثالثاً: المصادر الأخرى (المصادر التقليدية):

صحيح أن الوثائق هي المصدر الرئيس لهذا البحث، إلا أن الصورة التي تقدمها هذه الوثائق لا تتكامل معالمها ما لم يعتمد الباحث على مصادر ذلك العصر الأساسية.

فللحديث عن وضع القدس بعد تحريرها من الصليبيين وفي عصر الأيوبيين – كتمهيد للحديث عنها في عصر المماليك – كان هناك عدد كبير من

المصادر، يأتي في مقدمتها كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني، توفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م**، وكتاب **سيرة صلاح الدين المعنون بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد، توفي سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م**، وكتاب **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي، توفي سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م**، وقد عاصر هذا قيام دولة المماليك، وصنف كتابه هذا في تاريخ الحروب الصليبية، وهو من الكتب الشهيرة، وقد وضع للروضتين ذيلاً ترجم به لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين، كما دَوّن به بعض الأخبار والحوادث التي عاصرها، بالإضافة إلى كتاب **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** لمؤلفه **جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، توفي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م**، وتأتي أهميته كونه معاصراً لكثير من الأحداث التي دَوّنها، وخاصة ما ساد بين أبناء البيت الأيوبي من خلافات وعداء وحروب، وما كان من أثر تلك الأحداث على أوضاع بيت المقدس والمسلمين، ويتحدث بالتفصيل عن تحرير القدس، والعناية بها، وإقامة الكثير من المؤسسات الاجتماعية والدينية، وتحصينها ...، ويذكر أنه استقى معلومات الأحداث التي لم يكن شاهد عيان فيها من رجال مسؤولين ممن يحتلون مكانة في العصر الأيوبي، ولا يمكن الاستغناء عنه في الحديث عن القدس عقب الفتح الصلاحي لها وفي العصر الأيوبي.

أما بالنسبة لكتب التاريخ في عصر المماليك، فهي عديدة ومتنوعة المواضيع، ويأتي على رأس مؤرخي عصر المماليك القاضي **محيي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر، توقي سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م**، كان من شخصيات عصر المماليك، فقد عاصر قيام السلطنة المملوكية، وكان من شهود عين جالوت، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء في القاهرة عندما تولى السلطنة

السلطان الظاهر بيبرس، واستمر في منصبه هذا في أيام المنصور قلاوون، ثمّ في أيام ابنه الأشرف خليل.

دَوّن ابن عبد الظاهر ثلاث مؤلفات تتضمن سيرة كل واحد من هؤلاء السلاطين الثلاثة في كتب منفردة، هي على التوالي: **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية.**

هذه الكتب باستثناء الروض الزاهر ما وصلنا منها كان ناقصاً، إلا أن ما جاء في هذه الكتب يُعد على درجة عالية من الأهمية، فهي غنية بالأحداث، إذ دَوّن فيها صاحبها بشكل أساسي الأعمال التي استهدفت تصفية الوجود الصليبي في فلسطين وبلاد الشام، والتصدي للخطر المغولي، وإن أي باحث يكتب عن عصر المماليك لا يمكنه الاستغناء عن هذه الكتب.

وقام **الحسن بن عمر بن حبيب، توفي سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م**، بعمل مشابه لعمل ابن عبد الظاهر عندما أقدم على التصنيف بالتأريخ الخاص لعدد من الحكام، فكان كتابه **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه** حيث أَرَّخَ فيه لحكم المنصور قلاوون وأولاده، ولكن من المآخذ على هذا الكتاب أنه غلب عليه الطابع الأدبي والتصنع.

ومن مؤرخي عصر المماليك العظام **ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، توفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م**، فقدم في تاريخه **تاريخ ابن الفرات** مواد ثمينة عن الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها فلسطين أثناء التصدي للغزو المغولي، وخلال أعمال التحرير وتصفية الوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام، وتجدر الملاحظة إلى أن بعض مواد ابن الفرات لم تصلنا بعد.

وكان **ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، توفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م،** من المؤرخين الذين تنقلوا بين مصر والشام، واطلعوا على جل الحوادث آنذاك، وشهرة ابن خلدون نابعة مما جاء في مقدمة كتابه في التاريخ المعنون بـ: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.**

الأهم مما جاء في المقدمة أن ابن خلدون أورد بعض المعلومات عن الحوادث التي رافقت قيام الدولة المملوكية، وأسهب في تفاصيل الأحداث التي عاصرها، والتي رافقت قيام دولة المماليك تحت حكم الشراكسة وحملات تيمورلنك على بلاد الشام، فقد كان ابن خلدون داخل دمشق عندما حاصرها تيمورلنك، واجتمع به.

وكان ممن تأثر بابن خلدون وبمذهبه في التاريخ مؤرخ مصر والدولة المملوكية **تقي الدين أحمد بن علي المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك**، ولد المقريزي في القاهرة سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م، يعود بأصله إلى مدينة بعلبك وسمي بالمقريزي نسبة إلى حارة المقارزة في بعلبك، حيث كانت عائلته تسكن هناك قبل رحيلها إلى القاهرة في عهد أبيه، تأثر المقريزي بجده لأمه ابن الصائغ، فقد عاش في كنفه وحصل على ثقافة عالية، وباشر عدد من الوظائف العالية، وقام بزيارة لعدد من البلدان، توفي بالقاهرة سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م، وكان المقريزي غزير الإنتاج، وقدم العديد من الكتب في مختلف الميادين العلمية، ونحن لا نحتاج هنا للحديث عن مصنفات المقريزي باستثناء كتابه السلوك الذي أوقفه للتاريخ المملوكي مقدماً له بأخبار الأيوبيين، ويشكل هذا الكتاب أحد المصادر الأساسية لأي باحث يريد البحث في عصر المماليك، ويقدم هذا الكتاب معلومات جيدة عن القدس في ذلك العصر، إلا أن هذه المعلومات متناثرة هنا وهناك، وكانت الإفادة من هذا الكتاب عالية جداً.

ومن كتب ذلك العصر كتاب **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** الذي صنفه **أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، توفي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م**، وهو من أصل تركي، وكان والده قائداً أعلى (أتابك) للعسكر المصري، مما أتاح له فرصة الاطلاع على تفاصيل عصره السياسية والإدارية، وكانت الإفادة من هذا الكتاب كبيرة.

وظهر في العصر المملوكي مؤلفات مهمة تناولت مواضيع وعلوم عديدة من الأدب والتاريخ والديانات والإدارة، منها كتاب **نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري؛ أحمد ابن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين**، وعُرف بالنويري نسبةً إلى نويرة، وهي قرية من قرى بني سويف في مصر، توفى سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٣١م.

نال النويري ثقافة جيدة لأنه كان يعمل بالوراقة، وكان ينسخ الكتب بخط يده ويبيعها، ويأتي على رأس الموسوعيين، فقد نال شهرته من خلال كتابه نهاية الأرب، مطبوع منه حالياً ٣١ مجلداً، تحتوي على معلومات ثمينة عن تاريخ المماليك وعن أوضاع الفلاحين والإدارة الزراعية في عصر المماليك، وهناك كتاب **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، وهو من المؤلفات الضخمة والشاملة ألفه **ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد** كاتب السر في الديار المصرية، توفي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م، وهذا الكتاب موسوعي تناول معارف وعلوم عديدة من الأدب والديانات والتاريخ والآثار، ويقدم معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية وعن الأقليات الدينية وعلاقتها مع الدولة، وكان العمري على اطلاع على هذه الأمور بوصفه أحد رجال الدولة في عصر المماليك حيث عمل في ديوان الإنشاء، وقد تطرق إلى وصف مدينة القدس في فصل (باب عن مملكة مصر والشام والحجاز) وتم الاستفادة فيما قدمه من معلومات.

وعلى نمط هذا الكتاب هناك كتاب قيم هو **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** لمؤلفه **أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، توفي سنة ٨٢١هـ /**

١٤١٨م، وهذا الكتاب من الكتب الرائعة، وقد اعتمد مؤلفه في كتابته بشكل رئيس على كتاب **التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري**، وكتاب ابن فضل الله هذا من الكتب القديمة والفريدة من نوعها، يقدم معلومات قيمة عن نيابات فلسطين وسواها مع وصف موجز لأعمال كل نيابة وأهم الوظائف الإدارية فيها، وقد زاد القلقشندي في صبح الأعشى على ابن فضل الله في التعريف بالمصطلح بتقديم معلومات جغرافية واقتصادية وإدارية هامة، كما أنه لا غنى لأي باحث في ذلك العصر عن النصوص الوثائقية الواردة فيه، وعن تعريفاته بمصطلحات ذلك العصر.

ويحتوي كتاب **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لغرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري، توفي سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م** معلومات إدارية عالية الأهمية حول نيابات فلسطين، فهو يقدم معلومات نادرة عن مراكز البريد وغيرها من الإدارات، وتأتي أهمية معلومات ابن شاهين من كونه كان مطلعاً على تفاصيل الأمور، وذلك بسبب تقلده لمناصب رفيعة منها أتابكية العسكر في صفد.

ومن كتب التاريخ المحلي التي تتحدث عن القدس في عصر المماليك كتاب **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** لمؤلفه **قاضي القضاة أبي اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي المقدسي** الذي عاش في القدس في أواخر عصر المماليك (٨٦٠-٩٢٨هـ / ١٤٥٦-١٥٢٢م)، وهو أحد أبناء القدس، يقدم في كتابه معلومات مثيرة حول القدس والخليل في عصر المماليك، وقد كتب مجير الدين هذا الكتاب رغبة منه في حفظ تاريخ المدينة، فقد عبر عن هذا بقوله: (إنما دعاني لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلَّق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة في الزمن السابق... ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذي قصدت فعله...)[1]، يقدم

[1] مجير الدين: الأنس الجليل، ج١، ص٥.

مجير الدين في كتابه معلومات مهمة عن القدس والخليل في عصر المماليك، فقد أورد ذكر عدد كبير من أعلام القدس ووصف مقدساتها ومدارسها، وأسواقها، وخاناتها، وقياسرها، وتحدث عن كل ما كان يحدث بها من فتن، واضطرابات، ومحل، وقحط... الخ، وقد عاصر معظم الأحداث التي كتبها، وبذلك يرقى إلى درجة المصادر الوثائقية، وإن أي باحث يبحث في تاريخ القدس في عصر المماليك لا يمكنه الاستغناء عمّا جاء في هذا الكتاب من معلومات قيمة، وإلا فإن عمله سيكون ناقصاً.

ومن الكتب الموسوعية (كتب الحوليات العامة) كتاب **الكامل في التاريخ للشيخ عز الدين أبي الحسن ابن الأثير، توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م**، ولد بجزيرة عمر على نهر دجلة، وقام برحلات عديدة إلى دمشق وبغداد والقدس، وكان إماماً عالماً حافظاً للأنساب والتواريخ، اعتمد صاحبه في كتابته على تاريخ الطبري، إذ قام باختصاره ثم أكمله حتى عصره مع بعض الاستدراكات، وتأتي أهمية هذا الكتاب بالنسبة لهذا البحث في أن مؤلفه كان معاصراً لتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي ويمكن الاستفادة منه، وخاصة في حديثه عن اهتمام السلطان بالمدينة وإقامة المنشآت بها، ويندرج تحت هذا النمط من الكتب كتاب **المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء إسماعيل بن علي، توفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م**، فعندما استولى المماليك على بلاد الشام قاموا بتصفية الممالك الأيوبية باستثناء مملكة حماه، التي عاشت مدة طويلة، فاشتهر من حكامها آنذاك أبو الفداء المذكور، وكان لهذا شهرته الواسعة بالتاريخ والجغرافيا، ففي علم التاريخ كان لكتابه هذا أهمية خاصة تأتي من خلال مشاركته في بعض أحداثه، إلا أنه في جزء كبير منه كان مُختصراً لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وبعد وفاة أبي الفداء جاء **ابن الوردي، عمر بن مظفر المعري،توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م**، فاختصر كتاب أبي الفداء وأكمله بعنوان **تتمة المختصر في أخبار البشر**.

ويُعد كتاب **البداية والنهاية لابن كثير عماد الدين اسماعيل، توفي سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م**، من أشهر كتب تاريخ الإسلام العامة وأهمها، ذلك أن ابن كثير عاش في دمشق في عصر المماليك وشهد الكثير من أحداثها، ونقل عمن تقدمه من المؤرخين، فقد نقل عن كتاب **البرزالي، توفي سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، المعروف باسم المقتفي على تاريخ أبي شامة.**

وتحتوي كتب الحسبة وما شابهها معلومات جيدة ومفيدة عن الحياة الاقتصادية والحرفية والاجتماعية في جميع بلدان العالم الإسلامي، فهي لا تختص ببلد محدد، وأهم هذه الكتب كتاب **معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة القرشي محمد بن محمد بن أحمد، توفي سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م،** وكتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام المحتسب**، وقد اعتمدا في تأليف كتابيهما على كتاب نهاية الرتبة لعبد الرحمن بن نصر الشيرزي المتوفى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م.

وتحتوي كتب الجغرافيا على معلومات قيمة لا يمكن أن تستغني عنها أيَّة دراسة أكاديمية في التاريخ الإسلامي، ومن أهمها كتاب **معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي، توفي سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م**، وسمي بالحموي نسبة إلى مولاه الذي اشتراه، وشغله مولاه بالأسفار في شتى أصقاع الأرض، وقد حصل في أسفاره هذه على معلومات كثيرة جمعها وأودعها في كتابه معجم البلدان والذي أتمه بمساعدة جمال الدين القفطي، والمعلومات التي يقدمها عن جغرافية البلاد وطبيعتها وعن شعبها، هي معلومات فريدة من نوعها. ويشابهه كتاب **تقويم البلدان** لمؤلفه **أبي الفداء إسماعيل** وهو من أهم كتب الجغرافيين العرب ومن أشهرها، ويحتوي هذا الكتاب على معلومات مفيدة عن جغرافية فلسطين.

وقدمت كتب الرحالة الأجانب والحجاج الذين قدموا إلى فلسطين معلومات وثائقية قيمة، فقد كتب الرحالة كل ما شاهدوه في المدينة، وقدموا وصفاً لعمران المدينة، وطبوغرافيتها، وشعبها، واقتصادها... الخ، والرحالة الذين كتبوا عن

القدس آنذاك كُثر، يأتي في مقدمتهم **الراهب الألماني الدومينيكاني فيلكس فابري**، وهو من مدينة أُلم الألمانية، زار الأماكن المقدسة مرتين، الأولى حوالي سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م، والثانية حوالي سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م، وفي الرحلة الثانية تجاوز خطوط رحلة الحج الرسمية التي تنتهي بزيارة القدس من بعد مرورهم بيافا والرملة، فوسَّع نشاطه وزار بيت لحم والخليل ثم قرية زخريا ثم غزة إلى سيناء فالقاهرة فالاسكندرية ومن هناك عاد إلى مدينة أُلم، كان فيلكس فابري أحد رجال الاكليروس، ويتمتع بثقافة جيدة، وعنده اطلاع على تاريخ الأراضي المقدسة، وقد قال عن نفسه أنه زار ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وقد دوّن كل ما شاهده بشيء من الدقة والتفصيل، وقد ترجم كتابه الدكتور سهيل زكار ونشره في الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، واستغرق الأجزاء (٤٠-٤٣) من الموسوعة.

إن المعلومات التي قدمها فابري قيّمة جداً، وترقى إلى مصاف المعلومات الوثائقية، فقد تحدث عن الحياة الاجتماعية عند الشعوب التي زارها، عن عاداتهم وتقاليدهم، وعن العلاقة بين فئات المجتمع، كما أنه قدم وصفاً لخطط القدس وطبوغرافيتها وعمرانها وأسواقها، وقدم وصفاً دقيقاً للطوائف المسيحية الموجودة بالقدس آنذاك.

وقد تم الاعتماد في هذا البحث على معلومات فابري بشكل كبير، وكدليل على دقة روايته فإنه يذكر عن نفسه أنه: (إلى جانب ذلك بذلت في بعض الحالات جهداً كبيراً لكي أكتب وصفاً دقيقاً حول بعض الأماكن المقدسة التي لم أذهب إليها قط، لكني لم أفعل ذلك دون أن أضيف: أنا لم أذهب إلى هذا المكان بل سمعت حوله أو قرأت).

الفصل الأول: العناصر السكانية

أولاً: أصول سكان بيت المقدس.

ثانياً: عوامل النمو والتنوع السكاني.

١- دور صلاح الدين الأيوبي.

٢- دور المماليك.

٣- الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

٤- المهاجرون من شرق العالم الإسلامي وغربه.

أولاً: أصول سكان بيت المقدس:

حرصت وثائق الحرم القدسي الشريف – والتي تعود بتاريخها إلى عصر المماليك – على ذكر أصول سكان بيت المقدس في ذلك العصر، وهم – على حسب ما جاء في الوثائق – يرجعون بنسبهم إلى أصول متعددة، وحري في هذا المقام – وقبل البدء في ذكر أصول سكان بيت المقدس أو معظمها – أن يكون هناك تعليلاً يفسر لنا هذه التعددية، وهذا الأمر يقتضي العودة إلى عام ٤٩١هـ/١٠٩٩م، وهو عام سقوط القدس بأيدي القوى الصليبية[١]، فقد سعى هؤلاء الصليبيون جاهدين إلى إبادة كل مقدسي باقٍ على قيد الحياة بغض النظر عن ديانته، فسيوف الصليبيين لم توفر أحداً من جنس الرجال ولا من جنس النساء، لا من الشباب ولا من الشيوخ[٢]، فبعيد دخول الصليبيين القدس عقدوا ديوان المشورة العسكرية، الذي أصدر حكماً بقتل كل مسلم باق داخل المدينة، ولم يسلم من سيوفهم إلا بعض المسلمين، اللذين جرى استخدامهم لترحيل جثث القتلى وإحراقها وتنظيف المدينة وتأدية خدمات أخرى، ومن صور الإرهاب التي اتبعها الصليبيون، دفعهم لمن بقي حياً من المقادسة أن يجمعوا جثث

---

[١] ابن القلانسي (أبي يعلي حمزة بن القلانسي، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ص١٣٧.

- ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م، ج٨، ص٤٢٥.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م، ج٥، ص١٤٧، ١٤٩، ١٦٢.

[٢] مونروند (مكسيموس): تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب، تر: مكسيموس مظلوم، طبع أورشليم في دير الرهبان الفرنسيسكانيين، ١٨٦٥م، ص١٧٢.

موتاهم ويحرقــوها، وعنــدما ينتهي هؤلاء من هذه المهمة البشعة، كانوا يُقتلون أيضاً[١].

استمرت هذه المجزرة قرابة الأسبوع، واختلف الرواة في تحديد عدد القتلى، فقدرهم البعض بمئة ألف نسمة[٢]، وآخرون قدرّوهم بعشرين ألف نسمة[٣]، ولكن الأغلبية قدرّوهم بسبعين ألف نسمة[٤]، وكان من بين القتلى جمع كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم[٥].

وما يهم البحث من هذه الإحصائيات هو القول: إن المدينة المقدسة عقب سقوطها بأيدي الصليبيين عام٤٩١هـ/١٠٩٩م أُفرغت من سكانها الأصليين، وبعد استيلاء الصليبيين على المدينة؛ سكن هؤلاء وبحرية تامة في بيوت

---

[١] الخوري (شحادة) والخوري (نقولا): تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥م، ص٧٠.

[٢] سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي، ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١، ص٣٢٤.

[٣] الصوري (وليم رئيس أساقفة صور ١١٣٠-١١٨٥م): تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تر: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م،ج١، ص٤٣٧.

[٤] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٥.

- مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص١٧٥.
- الحريري (سيد علي): الحروب الصليبية، تح: عصام شبارو، دار التضامن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٤.
- الطيباوي (عبد اللطيف): القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام، مقال منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع والخمسون، الجزء الأول، صفر ١٣٩٩هـ/ كانون الثاني ١٩٧٩م، ص٧٧٣.

[٥] ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج٨، ص٤٢٥.

المسلمين، وكل واحد اختار البيت الذي يريد وتملكه مع محتوياته[١]، ويرى مكسيموس أن المدينة في أيام قليلة انقلبت من ديانة إلى أخرى، ومن شرائع إلى غيرها، ومن مراسيم وعوائد إلى أخرى، ومن سكان إلى غيرهم[٢]، وإن كان في هذا الكلام نوع من المبالغة فإنه يدل على حجم الكارثة التي حلت بهذه المدينة، أما من بقي من المسلمين في القدس والقرى المجاورة فقد عاملهم الصليبيون معاملة الرقيق، فعملوا لهم بالأرض، وكان هؤلاء يؤذون المسلمين ويضطهدونهم ويحبسونهم، وهذا ما دفع كثير ممن بقي من المقادسة إلى الهجرة[٣].

واستمر الأمر على هذا المنوال ما يقارب التسعين عاماً، ولم يُسمح للمسلمين بالعودة إلى بيت المقدس أو دخولها إلا لتقديم بعض الخدمات التجارية[٤]، في حين شجع الصليبيون هجرة المسيحيين المحليين إلى القدس، فقد هاجر قسم من مسيحي شرقي الأردن في وادي موسى والبلقاء وعمان إليها[٥]. إلى أن حرر صلاح الدين يوسف بن أيوب القدس في يوم الجمعة في

---

[١] الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٤٣٧.

[٢] مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص١٧٥-١٧٦.

[٣] يقدم لنا صلاح الدين المنجد دراسة مستفيضة عن اللاجئين المقادسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي، قدمها للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية-عمان، جامعة اليرموك-إربد، المجلد الثالث، ١٩٨٣م، ص٧١٠-٧٢١.

[4] Prawer (Jusha): (The Sattlement Of the Latins In Jerusalem) Speculum (1952.Vol 27) P.494.

[٥] القفْطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، ت٦٤٦هــ/١٢٤٨م): تاريخ الحكماء، وهو مختصر الزَوْزَني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد – مكتبة الخانجي، مصر، (د.ت)، ص٣٧٩.

- غوانمة (يوسف درويش): تاريخ شرقي الأردن في عصر المماليك (القسم الحضاري)، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩م، ص١١٥.

٢٧ رجب ٥٨٣هـ/الموافق لـ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م[١]، وأظهر في معاملته للصليبيين الكثير من التسامح، ضارباً بذلك المثل الأعلى للقيم والأخلاق الحسنة مقتدياً بسيرة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

ثم بدأ صلاح الدين بترحيل الصليبيين عن المدينة ولكن بطرق سلمية، فبعد حصاره للمدينة والبدء بالمفاوضات والاستقرار والاتفاق على دفع فدية محددة تختلف بين الرجل والمرأة والطفل[٢]، بدأ بترحيلهم بعد أن ضمن لهم سلامة الرحيل إلى صور وطرابلس وأنطاكية وبقية قلاعهم التي لم تسقط بعد، فأصبحت القدس شبه خالية من السكان، عندها بدأ صلاح الدين بخطوات مهمة لإعادة الحياة الإسلامية إليها، فبدأ بإسكان المدينة، وقام بالعديد من المشاريع الإسلامية، العمرانية والاجتماعية، معيداً للمدينة بذلك صفتها العربية الإسلامية.

فذكرت الروايات أنه حضر مع صلاح الدين عندما فتح القدس ما يـــقارب

---

[١] ابن شداد (القاضي بهاء الدين، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٩م): سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تصحيح محمد محمد الرخاوي، مطبعة محمد أفندي علي صبيح ، مصر القاهرة، ١٣٤٦هـ، ص٦٦.

- العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج الأصفهاني، ت٥٩٧هـ/١٢٠١م): الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، (د.ت)، ص١٢٨.

[٢] تم الاتفاق على أن يدفع الرجل عشرة دنانير والمرأة تدفع خمسة دنانير، أما الطفل فذكر العماد الأصفهاني أن كل صغيراً أو صغيرة يدفع ديناران، في حين ذكر ابن شداد أن كل صغير ذكراً كان أم أنثى يدفع ديناراً واحداً. انظر،

- العماد: المصدر المتقدم، ص٩٦.
- ابن شداد: المصدر المتقدم، ص٦٧.

وكان هناك عشرون ألف من الفقراء عاجزين عن دفع هذا المبلغ، فقبل صلاح الدين عن كل هؤلاء أن تدفع السلطات المسيحية مائة ألف دينار ثم تم افتداء سبعة آلاف نسمة بثلاثين ألف دينار.

- المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٢٢.
- رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ج٢، ص٧٢٥.

عشرة آلاف عمامة من جميع الأجناس[١]، ولعل بعضهم فضل الإقامة في القدس بعد ذلك، فكان هذا بداية التدفق السكاني عليها، كما أن تحريره للمدينة جاء مصحوباً بتدفق المسلمين عليها وسط فرحتهم الكبيرة، فأتوه رجالاً وركباناً من كل جهة[٢]، كما أنه أتى بعدد من القبائل العربية، أسكنها القدس وما حولها، فتوطّنت بالقدس قبائل بني الحارث فكانت منازلهم عند القلعة خارج المدينة، وبني مرة من جهة الغرب الشمالي في سوق الفخر (عرف فيما بعد بخان الزيت)، وأسكن بني سعد في الحي الذي عرف فيما بعد باسمهم (حارة السعدية)، وكانت لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه، ويلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال قرب باب الساهرة حارة بني زيد، حيث أسكن بني زيد فيها وعرفت فيما بعد باسمهم[٣].

وفيما يتعلق بأهل الذمة، فقد سمح صلاح الدين للنصارى الساكنين بالقدس بالبقاء فيها بعد أن (بذلوا من القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يُزعجوا، ويُؤْمّنوا ولا

---

[١] سبط ابن الجوزي مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، ج٨، ق١، ص٣٩٩.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٩٧.

[٣] البرغوثي (عمر) وطوطح (خليل): تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد–الظاهر، ٢٠٠١م، ص١٨١.

- العارف (عارف): المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٢٨٥.
- الطيباوي: القدس الشريف، م٥٤، ج١، ص٧٧٦.
- ليتل (دونالد): مقال القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك، منشور في كتاب القدس في التاريخ، تر: كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان – الأردن، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص٢٠٧.
- الشيخ (سليمان): القدس الإنسان والمكان، مقال منشور في مجلة العربي، العدد٣٣٩، جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ/شباط ١٩٨٧م، ص٤٦–٤٧.

يُخرجوا، فأُقِرُّوا)[١]، وأعفيت أعداد كبيرة من الطبقات الفقيرة من الدفع[٢]، بالرغم من أن كثيراً منهم شايع الفرنجة وساعدهم[٣]، وبالنسبة لليهود فقد ذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين سمح لهم بالإقامة بالقدس[٤]، ولكن هذا لا يمكن توثيقه اعتماداً على مصادر ذلك العصر.

كانت هذه محاولات جادة من صلاح الدين لإعادة إسكان القدس وإعمارها وإعادة الطابع الإسلامي لها، فالمدينة بقيت ما يقارب التسعين سنة عاصمة لمملكة صليبية كانت لها الزعامة على الوجود الصليبي في بلاد الشام، وقد حرص هؤلاء الصليبيون على محو شعائر الإسلام فيها.

ولكن بالرغم من تحرير المدينة وإعادتها إلى أحضان الأمة الإسلامية، وبالرغم مما ذكره المؤرخون حول استردادها، وما تبع ذلك من أعمال عديدة، إلا أنها تعرضت بعد وفاة صلاح الدين عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م[٥] إلى حياة قلقة وغير مستقرة امتدت قرابة سبعين عاماً لم تنعم فيها بالأمن والاستقرار، ولم يعرف أهلها ما يخبئ لهم المستقبل القريب[٦]، ويعود ذلك بشكل رئيسي إلى الصراع بين أفراد البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي[٧].

---

[١] أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج٣، ص٤٠٢.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٥٥.

[٣] الطيباوي: القدس الشريف، م٥٤، ج١، ص٧٧٧

[4] Greatz (Heinrich): History of the jews , London, 1982, vol lll , P. 475.)

– رنسيمان: المرجع المتقدم، ج٢، ص٧٥٥-٧٥٦.

[٥] ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص٣٠٨.

[٦] عاشور (سعيد عبد الفتاح): بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية– عمان ، جامعة اليرموك – إربد، ج١، ص٨٠.

[٧] العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٨٨.

فقد دخل بنو أيوب في صراعات مميتة أفادت الصليبيين كثيراً، وحوّلت بلاد الشام إلى ممالك صغيرة متطاحنة، ولم يقتصر الأمر على هذا وإنما استعان بنو أيوب في صراعاتهم الداخلية بالقوى الصليبية الموجودة في المنطقة، وغالباً ما عرض الملوك من بني أيوب القدس وما حرره صلاح الدين على الصليبيين للحصول على المساعدة في صراعاتهم الداخلية.

وقد ارتكب بنو أيوب في حق المدينة خطأين كان لهما أثراً سلبياً كبيراً على حياة المدينة وعلى مجتمعها وعمرانها وبالتالي على استقرار الحياة فيها؛ الخطأ الأول كان عام ٦١٦هـ/١٢١٩م، ففي هذا العام أمر الملك المعظم صاحب دمشق بتخريب أسوار القدس والكثير من مبانيها وقلاعها، بعد أن كانت العمارة في المدينة منذ أن حررها صلاح الدين قائمة لم تتوقف، وكانت قد صارت في غاية العظمة والوثاقة، وسبب تخريبه للقدس أنه كان قد هاله سقوط دمياط في السنة السابقة بأيدي الصليبيين (الحملة الخامسة)، وشعر بعجزه في الدفاع عن القدس والمحافظة عليها، فخشي من احتلال الصليبيين لها، وبالتالي تحصنهم بأسوارها المنيعة، عندئذ يصعب إخراجهم منها، فقام بتخريب الأسوار، ومع الأسوار خرّبت الكثير من معالم المدينة، وخرج من المدينة خلق عظيم وهاجروا إلى مصر والشام والكرك، وكان قد عظم عليهم خراب المدينة، وتأسفوا عليها غاية الأسف[1]، حيث (وقع في البلاد ضجة عظيمة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ إلى الصخرة الشريفة...، ثمّ خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهاليهم، ... ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ... وذمّ الناس المعظم)[2].

---

[1] ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسنين محمد ربيع، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، جمهورية مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧م، ج٤، ص٣٢.

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢١٦-٢١٧.

أما الخطأ الثاني فقد كان عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وقد ارتكبه الملك الكامل محمد بن الملك العادل، وهو تسليم القدس للصليبيين.

فقد كان الصراع الدائر بين حكام دمشق وحكام القاهرة من بني أيوب السبب الرئيس في ضعف الفريقين، فقد تمخض عن هذا الدور الجديد من الصراع الأيوبي- الأيوبي نتائج عديدة، كان أخطرها التفريط بالقدس عندما تسلمها الصليبيون بدون قتال وبمعاهدة سلمية عقدت بين الإمبراطور فردريك الثاني والكامل محمد عام ٦٢٦هـ /١٢٢٩م[١].

وكان من شأن هذا العمل أيضاً أن يعيق حركة النمو السكاني لمجتمع بيت المقدس، فبعد توقيع المعاهدة طلب الكامل محمد من أهالي القدس مغادرة المدينة وتسليمها إلى الصليبيين، فنودي في القدس بخروج المسلمين منها، وتسليمها للفرنجة، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وتوجه الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار[٢]، وعبر سبط ابن الجوزي عن ذلك كله بقوله: (وقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أُقيمت المآتم)[٣].

ثمّ إنّ القدس عادت مرةً أخرى إلى بيت الإسلام بعد أن حررها الصالح نجم الدين أيوب بمساعدة الخوارزمية عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م[٤].

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٣٠.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٤١-٢٤٢.

[٢] المقريزي: المصدر المتقدم، ج١، ق١، ص٢٣١.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، طبعة دائرة المعارف بحيدر آباد، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ج٨، ق٢، ص٦٥٤.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٦-٣٣٧.

ولم يكن من شأن هذه الأوضاع أن تعيد الحياة الطبيعية للمدينة المقدسة، فلم يكن بمقدور أهل القدس أن يأمنوا على أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم وفي مواجهتهم مملكة صليبية في عكا تتحين الفرص للانقضاض على القدس وإعادتها إلى حكمهم، وفي ظل هذا القلق والرعب رغب العديد من المسلمين عن الحياة في بيت المقدس، الأمر الذي جعل القزويني يردد ما قاله المقدسي منذ ما يقارب ثلاثة قرون بأن القدس (قليلة العلماء كثيرة النصارى)[(١)].

وهذا يمهد للقول بأن القدس بعد وفاة صلاح الدين، وفي حياة خلفائه، لم تنعم بالاستقرار، بل كانت كالكرة، تارة في ملعب الأيوبيين وأخرى في ملعب الصليبيين، هذا فضلاً عن أنها كانت تتبع في أوقات لحكّام دمشق الأيوبيين وأوقات أخرى كانت تابعة لحكّام مصر من هذه الأسرة.

هذا جعلها تعيش حياة قلق واضطراب، لأن حياة الحرب والقتال ستطور الأسلحة وأدوات القتال والدفاع وما يلزم لذلك، ولكن ليس من شأنها أن تطور الحياة الاجتماعية أو بالأحرى لن تساعد على خلق مجتمع يوصف بأنه مجتمع مستقر ومتطور.

ورداً على تحرير القدس عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م قامت الحملة الصليبية السابعة على مصر والتي كان من أهم نتائجها انتصار المماليك على الصليبيين في فارسكور والمنصورة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[(٢)]، فكانت هذه بمثابة صرخة الميلاد لدولة المماليك في مصر.

[(١)] المقدسي (محمد بن أحمد البناء البشاري المقدسي، ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص١٤٤.

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، ت٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص١٦١.

[(٢)] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٢-٣٢٥.

- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٣٣-٣٣٦.

وفي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م سقطت بغداد في أيدي المغول[١]، وبهذا خُيّل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال، وأن الساعة آتية عن قريب، حيث استمرت جحافل المغول تطوي الأرض طياً متجهة نحو الشرق، وقد استولت على بلاد الشام كاملة، قاضيةً بذلك على معظم ممالك الأيوبيين في الشام، إلى حين اصطدامها بالمماليك شمال فلسطين في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م[٢]، وكانت معها كسرة المغول وتراجعهم عن بلاد الشام لتخضع بلاد الشام فيما بعد للمماليك.

جاءت معركة عين جالوت لتعلي النداء بقيام دولة سلاطين المماليك على أرض المشرق الإسلامي، ولتحكم هذا الشرق باسم الخلافة العباسية قرابة ثلاثة قرون، وأثبت المماليك خلالها وجودهم على جميع المستويات، وبقيام دولة المماليك بدأت حقبة جديدة من تاريخ مصر والشام، لها طابعها الخاص الذي يتصف بالأمن والاستقرار والثراء والازدهار، حقبة جديدة انتهى فيها دور العراق وبغداد بعد أن وقع المشرق تحت سيطرة التتار، في الوقت الذي أخذت فيه دولة المسلمين في الأندلس تنكمش سياسياً وحضارياً بعد أن اشتدت عليها

---

[١] ابن كثير (عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١٧، ص٣٥٦.

- أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د. ت)، ج٦، ص٩٩.
- المقريزي: السوك، ج١، ق٢، ص٤٠٩-٤١٠.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٣-٧٤.

- المقريزي: المصدر المتقدم، ج١، ق٢، ص٤٣١.

وطأة الإسبان[(١)]، هنا برزت دولة سلاطين المماليك في مصر والشام – بين المشرق والمغرب – لتنتزع حركة الجهاد ولتحم المقدسات الإسلامية من ناحية، وتحمل لواء الحضارة الإسلامية في الشطر الأخير من العصور الوسطى من ناحية أخرى[(٢)]، واستأنف المماليك ما كان قد بدأه صلاح الدين وأهمله خلفاؤه، فلم تمض ثلاثون سنة على قيام هذه الدولة حتى تم طرد الصليبيين من آخر معقل لهم وهو عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م[(٣)].

وفيما يتعلق بالقدس، فقد كان دخولها تحت الحكم المملوكي من أهم نتائج معركة عين جالوت، فَتَحْتَ حكم المماليك كان بوسع المدينة أن تعيش حياة آمنة ومستقرة بعيدة عن خطر التتار والصليبيين، ولتبقى بصورة راسخة بأيدي المسلمين، بحيث لا تقدم كغنيمة في النزاعات السياسية والعسكرية والدبلوماسية، وإن مجرد ذكر الحقيقة التي مفادها بأن القدس لم تعد في خطر، جلبت عنصر الاستقرار والأمن إلى المدينة.

لقد كان دخول القدس تحت حكم المماليك من أهم عوامل النمو السكاني فيها، فقد كان السكان مزيجاً من أصول متعددة، كانوا قد وفدوا إلى القدس،

---

(١) خاض الأندلسيون صراعاً شديداً ضد القوى المعادية لهم في إسبانية، ومنذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، اجتاحت موجات كبيرة من الغزو الإسباني الأندلس، فلم يأتِ منتصف هذا القرن إلا وقد سقطت قواعد الأندلس وثغوره في الشرق والغرب، مثل قرطبة (٦٣٣هـ/١٢٧٦م)، وبلنسية (٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، ومرسية (٦٤٠هـ/١٢٤٣م)، وقرطاجنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وإشبيلية (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، وقد أدى الغزو الإسباني إلى اندثار المعاهد الإسلامية والعلمية بعد أن كانت عامرة ومزدهرة، وإلى انكماش الرقعة الإسلامية في إسبانية، فما بقي منها سوى غرناطة تؤلف مملكة إسلامية صغيرة في الجنوب تذود عن نفسها أكثر من قرنين من الزمن حتى واجهت الفناء. انظر، عنان (محمد عبد الله): نهاية الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٤، ١٩٨٧م، ص١٦-٢٠.

(٢) عاشور: بعض أضواء جديدة، ج١، ص٨٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥-٧.

- المقريزي: السلوك ، ج١، ق٣، ص٧٦٥.

الآمنة والمستقرة، تحت ظروف وأسباب عديدة – سوف يتناولها البحث في فقرة خاصة –، ولحسن الحظ يقف الباحث أمام وثائق فريدة من نوعها تذكر لنا هذه الأصول، وهي وثائق الحرم القدسي الشريف – والتي تقدمت الدراسة حولها –.

في الوثائق بشكل عام عندما يتم ذكر أطراف العقد أو القضية يتم رفع نسب أصحاب العقد إلى البلد أو إلى الجد أو إلى القبيلة أو إلى المهنة[١]، وقد استوفت وثائق الحرم القدسي الشريف هذا البند، وخاصة من ناحية رفع النسب إلى البلد.

فقد اهتمت وثائق حصر الممتلكات بشكل خاص، وبقية الوثائق بشكل عام، بذكر أصول سكان بيت المقدس في عصر المماليك وذلك بنسبة الشخص إلى بلده، فتذكر لنا هذه الوثائق وبدقة إذا كان الشخص من أهالي القدس، وذلك بذكر عبارة (المقدسي أو المقدسية)، وبدلاً عن النسبة تذكر أحياناً عبارات (من بيت المقدس)، أو (من القدس الشريف)، أو (بمدينة القدس الشريف)، وإن لم يكن من أهالي القدس الشريف، فإنها تذكر ذلك عن طريق رفع نسبه إلى البلد الذي هو منه بأن تقول مثلاً: (الحلبي، البعلبكي، البغدادي، المصري، المغربي، التركي....)، وإذا لم تذكر البلد، فإنها – أحياناً – تذكر الجنسية بأن تقول مثلاً: (الأعجمي، التركي، الكردي، التركماني، التكروري، السحرتي، .....)، وفي بعض الأحيان تذكر النسبة مع العمل – المهنة: (المعلم، التاجر، القطان، القصاب، النساج،....)، كما أنها تذكر هل هو حاضر بالقدس الشريف، أو غائب عنها، وبلغت الدقة في الوثائق من هذه الناحية بأن ميزت الفلسطيني عن المقدسي، حتى ولو كان من مدينة الخليل والتي كانت تابعة للقدس.

---

[١] السيوطي: جواهر العقود، ص٥٠.

وفيما يلي دراسة لأهم الأصول التي كان ينتمي لها سكان بيت المقدس في عصر المماليك – على حسب ما ورد في الوثائق – وسنبدأ بالأقرب ثم الأبعد فالأبعد:

فالأمثلة على المقادسة كثيرة ومتعددة، منها على سبيل المثال الوثيقة رقم ٦٤٥ والمؤرخة في ١٦ ذي القعدة ٧٩٣هـ/١٥ تشرين الأول ١٣٩١م وهي عبارة عن محضر على شكل أمر أو مرسوم ورد من استادار السلطان[1] لقاضي القدس للنظر بتركة إحدى النساء، فنقرأ في أحد سطور هذا المحضر أن أحد الشهود هو (أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بابن المزين المقدسي)[2]، والوثيقة رقم ٢٩٨ والمؤرخة في ٤ شوال ٧٩٥هـ/١٣ آب ١٣٩٣م هي عقد شراء باسم (علاء الدين علي بن المرحوم زكي الدين داود بن ناصر الدين محمد الحارثي[3] من أهل القدس الشريف)[4]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٤١٠ والمؤرخة في ٥ محرم ٧٩٨هـ/٢٠ تشرين الأول ١٣٩٤م وهي عقد إيجار خان اسم (علي بن أحمد بن سعيد المقدسي)[5]، وتذكر الوثيقة رقم ٦٣٥ والمؤرخة ١٨ محرم ٧٩٣هـ/٢٦ كانون الأول ١٣٩٠م اسم إبراهيم بن سعد

---

[1] استادار السلطان (الاستادارية): وظيفة مرموقة وموضوعها التصرف بأمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خانة والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه بيت السلطان من نفقات وكساوي. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢١.

[2] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٢٩-١٣٠. Little: A Catalogue. p. 272.
يجعل العسلي تاريخ الوثيقة في ١٦ ذو القعدة في حين أن ليتل يجعله في ٢٦ ذو القعدة. انظر الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ١).

[3] هنا وقعت النسبة إلى القبيلة بالإضافة إلى البلد (القدس)، فالحارثي نسبة إلى بني حارث الذين كانوا يسكنون ظاهر باب الخليل عند قلعة القدس منذ بعيد الفتح الصلاحي للمدينة كما ذكرنا سابقاً. انظر، البرغوثي: تاريخ فلسطين، ص١٨١. والعارف: المفصل، ص٢٨٥. والطيباوي: القدس الشريف، م٥٤، ج١، ص٧٧٦.

[4] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٩.

[5] Ibid, P. 299.

ابن يعقوب المقدسي[١]، وتتضمن الوثيقة رقم ٢٠ أيضاً في ٥ صفر ٧٦٨هـ/١١ تشرين الأول ١٣٦٦م وقف لعمارة (جعفر بن محمد بن أبي بكر السفّار من القدس الشريف)[٢] أوقفها على نفسه ثم على مصالح البيمارستان الصلاحي[٣] بالقدس الشريف[٤].

وحرصت الوثائق أن تذكر الأصول الفلسطينية الموجودة في مدينة القدس الشريف، فمدينة الخليل كانت من أقرب المدن للقدس وكانت تتبع إدارياً لها[٥]، مع ذلك فإن الوثائق تميز (الخليلي) عن (المقدسي)، فقد جاء في الوثيقة رقم ١٨٦ والمؤرخة في ١٢ ربيع الآخر (الثاني) ٧٨٩هـ/١٢ أيار ١٣٨٧م إقرار بدين أقر به ثلاثة أشخاص أحدهم (أحمد بن صلاح بن إبراهيم الحصري الخليلي)[٦]، وآخر هو (يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق الخليلي الحصري)[٧]،

---

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٤.

(٢) صالحية (محمد عيسى): من وثائق الحرم القدسي الشريف، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٤٩.

(٣) هو البيمارستان (المشفى) الذي أمر صلاح الدين بإقامته في القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م مكان الكنيسة الواقعة قرب دار الاسبتار جنوب كنيسة القيامة ووقف عليه الأوقاف، وأُحضرت له الأدوية. انظر، العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٦١٢.

(٤) والأمثلة عن المقادسة كثيرة، فللاستزادة انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٥٣، ٦٦، ١٠٥، ١٠٧، أنظر أيضاً: صالحية: المرجع المتقدم، ص٧٨.

(٥) كانت مدينة الخليل مستقلة إلى أن أصبحت القدس نيابة أضيفت ولاية مدينة الخليل إلى نيابة القدس، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى: ج٤، ص٢٠٥-٢٠٦.

(٦) الخليلي نسبة إلى بلد إبراهيم الخليل عليه السلام. انظر، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ/١٥٠٥): لب اللباب في تحرير الأنساب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٩٦.

(٧) العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٩٢.

= Little : A Catalogue . p . 200.

وفي الوثيقة رقم ٤٥٨ والمؤرخة في ١٨ ربيع الأول ٧٨٣هـ/٢ تموز ١٣٨١م إقرار بقبض من برهان الدين الناصري، أقر به (عبد الرحمن بن عبد الله بن فهد الخليلي)[١]، وأقرت في الوثيقة رقم ٢٨٩ والمؤرخة في ٤ شوال ٧٨٢هـ/٢ كانون الثاني ١٣٨١م (فاطمة بنت عبد الله بن فهد الخليلية) – أخت عبد الرحمن المذكور سابقاً – بتبرئة ذمة زوجها السابق، وللتأكيد على أنها من سكان القدس ذكرت عبارة (الحاضرة بالقدس الشريف)[٢].

ومن المدن التي تبعت إدارياً للقدس في عصر المماليك مدينة نابلس[٣]، وهي تبعد عن القدس خمس وسبعين كيلو متر، وهي مدينة كثيرة الخيرات[٤]، وكانت الوثائق ترفع نسب النابلسي إلى مدينته، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها الوثيقة رقم ٥٠١ المؤرخة في ١٥ شعبان سنة ٧٨٤هـ/٢٤ تشرين الأول ١٣٨٢م، وهي عبارة عن وصية من (شهاب الدين أحمد بن المرحوم الحاج

= يذكر العسلي أن تاريخ الوثيقة هو ١٢ ربيع الثاني (الآخر)، في حين يذكر ليتل أن تاريخ الوثيقة هو ٢٢ ربيع الثاني، وعلى حسب ما قرأه الباحث في الوثيقة يؤيد ما ذهب إليه العسلي في أن التاريخ هو ١٢ ربيع الثاني، انظر الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٢).

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١١٥.

Little : A Catalogue, p . 215 .

يذكر العسلي أن تاريخ الوثيقة هو ١٨ ربيع الأول، في حين يذكر ليتل أن تاريخ الوثيقة هو ١٨ ربيع الثاني، ولكنه يبدو وبشكل واضح في الوثيقة أن التاريخ هو ١٨ ربيع الأول، انظر إلى الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٣).

(٢) العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١١٦.

(٣) كانت نابلس من ضمن أملاك نيابة بيت المقدس، فالمرسوم السلطاني كان ينص على تولية نائب بيت المقدس(نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس). انظر، ابن الصيرفي (الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، جمهورية مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م، ج٣، ص٣٤٨.

(٤) غوانمة (يوسف درويش): نيابة بيت المقدس في عصر المماليك، دار الحياة، الأردن – عمان، ١٩٨٢م، ص٥٨-٦٠.

برهان الدين إبراهيم بن عماد الدين من بني مزهر النابلسي[١])لابن عمه ليحج عنه[٢]، وجاء في الوثيقة رقم ٤٨٨ المؤرخة في ١٦ رجب سنة ٧٨٥هـ/١٤ أيلول ١٣٨٣م إشهاد بكفالة لشخص اسمه (محمد بن محمد بن أحمد عرف بأبي المحيسن النابلسي)[٣]، ومثال آخر الوثيقة رقم ٦٠٩ المؤرخة في ٢٢ جمادى الآخرة (الثانية) سنة ٧٨٥هـ/٢٢ آب ١٣٨٣م، وهي شهادة تتعلق بالزوجة (بثينة بنت خليل بن غازي النابلسية)[٤].

وكي لا نثقل المتن بالأمثلة، فإننا سنكتفي بذكر مثال واحد عن كل مدينة فلسطينية من الوثائق المتوفرة بين أيدينا.

فالوثيقة رقم ٣٦٧ والمؤرخة في ١٦ رمضان ٧٤٣هـ/١٢ شباط ١٣٤٣م هي عبارة عن عقد شراء باسم (عمر بن موسى محمد الصلتي[٥] المقيم بالقدس الشريف)[٦].

---

[١] النابلسي: نسبة إلى نابلس. انظر، السيوطي: لب اللباب، ص٢٥٨.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٧٣.

Little : A Catalogue, p . 314.

[٣] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٦٨.

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٦٨.

[٥] نسبة إلى الصلت، والصلت، مدينة تقع جنوب عجلون وهي تقابل أريحا، مشرفة على الغور. انظر، أبي الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): تقويم البلدان، صححه رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، طبع بباريس بدار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م، ص٢٤٤-٢٤٥.

[٦] العسلي: المرجع المتقدم، ج ١، ص٢٤٨.

Ibid, p . 288.

يجعل العسلي تاريخ الوثيقة في ١٦ رمضان، ولكن ليتل يجعله في ٢٦ رمضان من العام نفسه، مع العلم أن الوثيقة غير واضحة المعالم بالنسبة للباحث، انظر الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٤).

والأمثلة على الصلتيين كثيرة، انظر: العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٥. وانظر أيضاً:

Ibid, p . 294 .

وجاء في الوثيقة رقم ٣٧٦ المؤرخة في ٨ رمضان ٧٩٥هـ/١٨ تموز ١٣٩٣م – والتي هي عبارة عن محضر – حصر ممتلكات رجل ضعيف يدعى (محمد بن يعقوب بن محمد الفندقومي[١] التاجر بالقدس الشريف)[٢].

ونقرأ الوثيقة رقم ٣٣٥ المؤرخة في العشر الأوسط من ذي القعدة ٧٩٥هـ/١٨-٢٧ تشرين الأول ١٣٩٢م شكوى رفعها شيخ المغاربة إلى كافل المملكة في شأن معاملة والي المدينة لليهود[٣]، ومن الشهود الذين شهدوا على هذا المحضر (علي بن أحمد العجلوني)[٤].

وفي الوثيقة رقم ٦٣٥ المؤرخة في ١٨ محرم ٧٩٣هـ/٢٦ كانون الأول ١٣٩٠م رُفعت النسبة إلى قرية مردا[٥] عندما ورد فيها ذكر لـ (شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أبي القاسم المرداوي المقري) و (الحاج إبراهيم بن سليمان بن عبيد المرداوي)[٦].

---

[١] نسبة إلى الفندقومية: وهي قرية تبعد عن جنين حوالي ٥٣كم إلى الجنوب الغربي. انظر، شراب (محمد محمد): معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ص٥٨٨-٥٨٩.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٦٥.

[٣] العسلي، المرجع نفسه، ج١، ص٢٧٠-٢٧٢.

[٤] نسبة إلى عجلون: وتقع عجلون في جبل الغور، شرقي بيسان. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٤٥. وهذا الشخص نفسه نجده شاهداً على عدد من الوثائق، انظر العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص ١٠٧، ١١٨، ١٢٧. وغيرها، انظر أيضاً:

Little : A Catalogue . p . 226 .

[٥] مردا: قرية من قرى نابلس. انظر، الحموي (ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٥، ص١٢٢.

[٦] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٥.

Ibid, p . 149 .

وإلى الناصرة[1]، استغرق ذكر الشيخ برهان الدين الناصري عدداً من الوثائق[2]، فهو أحد شيوخ الخانقاه الصلاحية[3]، ويتضح من هذه الوثائق أنه كان على مكانة عالية، كفقيه وعالم صوفي وقارئ للقرآن الكريم.

وذكرت الوثائق الأصول التي ترجع إلى بلاد الشام، وذلك بنسبة الشخص إلى مدينته، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالوثيقة رقم ٤٦٠ والمؤرخة في ١٢ شوال ٧٩٣هـ/١٢ أيلول ١٣٩١م فيها حصر إرث للمتوفاة (فاطمة بنت حسن الدمشقية) ومستحق إرثها شرعاً هي (والدتها خديجة بنت علي بن حسن الدمشقية) وولدها (محمد بن مظفر الغايب بمصر المحروسة عن القدس الشريف)[4]، وكذلك الأمر في الوثيقة رقم ٢١ والمؤرخة في ٢٩ ذي الحجة ٧٩٦هـ/٢٥ تشرين الأول ١٣٩٤م، إذ ورد فيها ذكر (الحاج علي بن محمد بن أحمد الدمشقي)[5].

---

[1] الناصرة: تبعد عن طبرية ١٣ ميلاً، فيها مولد السيد المسيح عليه السلام. انظر، الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص٢٩١-٢٩٢.

[2] انظر إلى بعض هذه الوثائق في: العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٩٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ج٢، ص ١٠٥، ١٠٧، ١١٥، ١١٦، ١٤٠. وانظر أيضاً:

Little : A Catalogue . p . 26 . 27 . 28 . 38 . 190 . 208 . 220 . 232 .

[3] الخانقاه الصلاحية: أسسها صلاح الدين في القدس بعد فتح المدينة وجعلها داراً للصوفية من عرب وعجم وكانت قبل ذلك داراً لبطريرك القدس، وأوقف عليها العديد من الأوقاف. انظر، العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٤٥ ، ٦١٢.

[4] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٤٦.

Ibid, p .122.

يجعل العسلي تاريخ الوثيقة في ١٢ شوال في حين يجعلها ليتل في ٢٩ شوال، انظر إلى الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٥).

[5] Ipid: P. 63

هناك عدد من الوثائق التي ترفع نسب بعض المقادسة في عصر المماليك إلى دمشق، للاستزادة انظر العسلي: المرجع المتقدم، الوثائق ٦٣٥، ٢٠٠، ٢٩٨، ج٢، ص٣٤-٧٨-١٤٩، أيضاً الوثائق: ٤١٤، ١٤٩، ٦٨٨، انظر:

Ibid, p : 111, 185, 294 .

ونسبت الوثائق عدداً من المقادسة إلى أصولٍ حلبية، نذكر على سبيل المثال ما جاء في الوثيقة رقم ٦٥٣ المؤرخة في ١٥ ذي الحجة ٧٩٥هـ/٢٢ تشرين الأول ١٣٩٣م، وهي دعوى من مطلقة اسمها (فاطمة بنت أحمد بن حسن الحلبية[١]) على زوجها السابق واسمه (علي بن محمد بن علي الحلبي)[٢]، والوثيقة رقم ٨٠ والمؤرخة في ١٣ شوال ٧٩٣هـ/١٣ أيلول ١٣٩١م نقرأ فيها اسم (الحاج أحمد بن عمر بن إبراهيم الحلبي)[٣].

وقد كان لأهل حماه من سكان القدس نصيب من هذه الوثائق، منها الوثيقة رقم ٢١١ "آ" والمؤرخة في ١ شوال ٧٨٨هـ/٢٦ تشرين الأول ١٣٨٦م وهي عبارة عن إقرار بدين من (الصدر الأجل[٤] ناصر الدين محمد بن المرحوم علاء الدين علي الحموي[٥] أحد أعيان السادة التجار بالقدس الشريف)[٦].

---

[١] نسبة إلى حلب، السيوطي: لب اللباب، ص٨٣.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٩. Little : A Catalogue, p . 268

يختلف كل من العسلي وليتل في قراءة الوثيقة، فيجعل العسلي تاريخ الوثيقة ١٥ ذي الحجة، في حين أن ليتل يجعله ٥ ذي الحجة، وعلى حسب قراءة الباحث للوثيقة فإن التاريخ هو ٥ ذي الحجة. انظر إلى الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٦).

[٣] Ibid , p . 64

ويمكن قراءة الكثير من هذه النماذج، على سبيل المثال انظر، العسلي: المرجع المتقدم: الوثيقة رقم ١٩٧، ج٢، ص٤٢. والوثائق ١١٩، ٤٥١، ٥١٧، انظر:

Ibid , p . 70 . 121 . 134 .

[٤] الصدر الأجل: لقب يطلق على الناس العاديين، على من هو بمرتبة أدنى من مرتبة الشيخ والصلحاء في المجتمع، فأرباب الولايات كان يطلق عليهم في عصر المماليك ألقاباً تتناسب مع مراتبهم، أما ترتيبهم: فمن بعد أرباب السيوف يأتي أرباب الوظائف الديوانية، ثم يأتي أرباب الوظائف الدينية، ثم يأتي أرباب الوظائف الصوفية، ثم يأتي أرباب الوظائف العادية، وهؤلاء يطلق عليهم في المراسيم لقب الصدر الأجل. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٧٤. ج١٢، ص٢٧٨-٢٧٩.

[٥] نسبة إلى حماه، السيوطي: المصدر المتقدم، ص٨٣.

[٦] كما يبدو من الوثائق أن هذا التاجر الحموي كان حريصاً على توثيق معاملاته عند القاضي، فقد عثر على وثائق عديدة تخصه. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٠٩، ١١١، ١٢٠.

وكان أحد الشهود على هذه الوثيقة (محمد بن علي بن عيسى الحموي)[١]، وفي الوثيقة رقم ٧٤٧ المؤرخة في ٢٩ ذي الحجة ٧٩٦هـ/٢٥ تشرين الأول ١٣٩٤م، نقرأ اسم (فاطمة بنت منصور بن إسماعيل الحموية)[٢].

وكذلك الأمر بالنسبة لأهالي مدينة حمص، فقد سكن العديد منهم في القدس الشريف على حسب ما ورد في الوثائق، فنقرأ في الوثيقة رقم ٦٤١ والمؤرخة في ٦ صفر ٧٩٦هـ/١١ كانون الأول ١٣٩٣م، اسم (المعلم محمد بن عثمان بن حسان الحمصي[٣] النساج)[٤]، وورد في الوثيقة رقم ٧٥٩ المؤرخة في ٢٢ ذي القعدة ٧٩٣هـ/٢١ تشرين الأول ١٣٩١م اسم (سارة بنت أحمد بن سعود الحمصية)[٥].

ولم تهمل الوثائق أهالي بعلبك ممن سكن بالقدس الشريف، فقد ذكرت الوثيقة رقم ٧١٠ المؤرخة في ٦ رمضان سنة ٧٩٥هـ/ ١٦ تموز ١٣٩٣م عزل (المرأة الكاملة فاطمة بنت الشيخ الصالح برهان الدين إبراهيم بن جمال الدين عبد الله البعلبكي[٦] الحاضرة بالقدس الشريف)[٧] أباها عن الوكالة، وتذكر الوثيقة رقم ٥٩١ المؤرخة في ٢٣ ربيع الثاني سنة ٧٩٤هـ/١٧ آذار ١٣٩٢م (شمس الدين محمد بن محمد بن جمال الدين البعلبكي)[٨].

وتذكر الوثائق الأصول التي ترجع إلى طرابلس الشرق، فنقرأ في الوثيقة رقم ١٤٩ والمؤرخة في ٢٥ شوال ٧٩٥هـ/٣ أيلول ١٣٩٣م اسم (محمد بن

---

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٨٣.
Little : A Catalogue . p . 207 .

(2) Ibid, p. 162.
الأمثلة على المقادسة من أصل حموي كثيرة، أنظر مثلاً الوثائق ١٥٠، ٢١١.
Ibid, p. 171, 207.

(٣) نسبة إلى حمص، السيوطي: لب اللباب، ص٨٣.

(٤) هنا وقعت النسبة للبلد والمهنة (النساج).
Ibid, p . 236-237.

(5) Ibid, p . 165.

(٦) نسبة إلى مدينة بعلبك، السيوطي: المصدر المتقدم، ص٤٠.

(٧) العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٠.

(8) Ibid, p. 341 .
وقد ورد في الوثائق ذكر الكثير من المقادسة من أصول بعلبكية انظر:
Ibid, p. 161 . 74 . 239 .

خليل بن إبراهيم الطرابلسي[1])[2]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٧٥٣ المؤرخة في ٢٢ ربيع الأول ٧٩٦هـ/٢٥ كانون الثاني ١٣٩٤م اسم (خاتون بنت حسام بن أحمد الطرابلسية)[3].

وعن الأصول التي ترجع إلى المعرة، ورد في الوثيقة رقم ١٣٩ والمؤرخة في ٢١ ذي القعدة ٧٩٥هـ/٢٨ أيلول ١٣٩٣م، اسم (فاطمة بنت إبراهيم بن أحمد المعرّية[4]، زوجة علي بن فرج بن علي المعري الحمال في القدس) وورثتها (زوجها الحاضر بالقدس وأخوها الغائب في المعرة)[5].

وممن سكن القدس أناس ترجع أصولهم إلى مدينة بصرى، ففي الوثيقة رقم ٣٣٦ المؤرخة في ٢٢ جمادى الآخر (الثانية) سنة ٧٨٨هـ/٢١ تموز ١٣٨٦م إذن من (الحاج محمد بن أحمد بن محمد البصراوي[6] القصاب بالقدس الشريف) لـ(برهان الدين الناصري) يسمح له بإلصاق بنائه ببناء البصراوي[7]، وفي الوثيقة رقم ٢٢٠ المؤرخة في ١٨ شعبان ٧٤٥هـ/٢٥ كانون الأول ١٣٤٤م إقرار حصر أعيان بقصد الإرث، وإقرار دين لـ (الشيخ الصالح أحمد بن موسى بن راجح البصراوي النساج بالقدس الشريف) وفي آخر الوثيقة ذُكر أن مستحق إرثه زوجته وابن أخيه صالح الغائب عن القدس الشريف بقرية بصرى[8].

---

(١) نسبة إلى مدينة طرابلس الشام، أما مدينة طرابلس الغرب فالنسبة إليها تكون بإضافة الألف (الاطرابلسي) في حين تسقط هذه عندما ننسب إلى طرابلس الشام. انظر، السيوطي: لب اللباب، ص١٧-١٦٧.

(2) Little: A Catalogue , p .185 .

(3) Ibid , p .163 .

(٤) نسبة إلى معرة النعمان، السيوطي: المصدر المتقدم، ص٢٤٩.

(5) Ibid, p . 226 - 227 .

(٦) البصراوي: كما هو مرجح إلى بصرى من أعمال حوران.انظر, الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٢-٥٢٣.

(٧) صالحية: من وثائق الحرم، ص٧٤. العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٨٠. Ibid, p . 232.

(٨) صالحية: من وثائق الحرم، ص٩٩. Littie : A Catalogue , p : 229 .

وعن اللذين تعود أصولهم إلى الكرك[1]، والشوبك[2]، (الأردن حالياً)، نذكر الوثيقة رقم ٦٠٩ المؤرخة في ٢٢ جمادى الآخر٧٨٥هـ/٢٢ آب ١٣٨٣م وهي شهادة بغياب الزوج (محمد بن محمد بن أحمد الكركي الجمال)[3] عن زوجته، والوثيقة ٣٥ المؤرخة في ٤ ربيع الآخر ٧٧٨هـ/٢١ آب ١٣٧٦م هي شهادة حول ملكية دار، اشترك في الشهادة عليها ٢٤ شاهد من بينهم (إبراهيم بن محمد الكركي)[4].

وفي الوثيقة رقم ٥٠٣ المؤرخة في ٤ ذي القعدة ٧٤٥هـ/٩ آذار ١٣٤٥م تم حصر إرث لرجل اسمه (راشد بن هارون بن سمعان النصراني الشوبكي) ومستحق إرثه زوجته (مريم بنت فريح بن شبل النصرانية الشوبكية) و(شقيقه غانم الغائب بالشوبك)[5]، ونقرأ في الوثيقة رقم٨٤٦ المؤرخة في ٢٥ صفر ٧٩٤هـ/٢٢ كانون الثاذ

يختلف كل من صالحية وليتل حول تاريخ الوثيقة، فيذكر الأول أن تاريخها هو ١٨ شعبان سنة ٧٤٥هـ، في حين ذكر الثاني أن تاريخها ١٠ شعبان سنة ٧٩٥هـ وهذا الاختلاف ناتج عن خطأ بالقراءة، وعند الإطلاع على هذه الوثيقة لم تكن واضحة المعالم، فتم الاعتماد على ما قاله صالحية، إذ أنه بلا شك يملك ناصية اللغة أكثر من ليتل، انظر الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٧).

[1] الكَرَك: اسم لقلعة حصينة تقع في طريق الشام في نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس.انظر, الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٥١٤.

[2] الشَّوْبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك.انظر، الحموي: المصدر نفسه، ج٣، ص٤٢٠.

[3] تم رفع النسبة إلى الأصل والمهنة. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٥١.

[4] العسلي: المرجع نفسه، ج١، ص٢٧٦-٢٧٧.

[5] صالحية: المرجع المتقدم، ص١٠٥. Ibid, p. 131.

يجعل صالحية تاريخ الوثيقة في ٤ ذي القعدة الحرام ٧٤٥هـ في حين أن ليتل يجعله في ٤ ذي القعدة ٧٩٥هـ، واختلفا أيضاً في اسم مريم بنت فريح فيجعلها صالحية (بنت فريح بن شبد)، ويجعلها ليتل (بنت فريح بن شبل)، ولكن الكلمة الواضحة في الوثيقة هي (بنت شبل)، انظر الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٨).

الشوبكي) وورثته (زوجته ست الأهل بنت سمعان بن سليمان النصرانية الشوبكية)[١].

وبما أننا ما زلنا نتحدث عن أهالي الأردن، فلا بد أن نذكر الوثيقة رقم ٢٠٩ والمؤرخة في ١ شوال سنة ٧٨٨هـ/٢٦ تشرين الأول ١٣٨٦م ويرد فيها ذكر (كمال الدين أحمد بن المرحوم الشيخ الإمام القدوة سعد الدين محمد ابن المرحوم الشيخ الصالح شمس الدين محمد الموعاني[٢] الأصل)[٣].

أما (المصريين) فكان لهم النصيب الأكبر من الذكر، فقد تخصصت العديد من الوثائق بذكر أهالي مصر من سكان القدس الشريف، وكانت النسبة في هذه الوثائق بذكر (المصري أو المصرية) وأحياناً بذكر المدينة الذي هو منها، مثل (الدمياطية، الإسكندري ....)، فالوثيقة رقم ٣٧٦ المؤرخة في ٨ رمضان ٧٩٥هـ/١٨ تموز ١٣٩٣م تذكر أن (لعبد الرحمن بن محمد بن علي المصري القطان)[٤] مبلغ من المال في ذمة محمد بن يعقوب الفندقومي، وفي الوثيقة رقم ١٢٩ المؤرخة في ١٣ شباط رمضان سنة ٧٩٥هـ/٢٣ تموز ١٣٩٣م حصر ممتلكات لشخص ضعيف على فراش الموت هو (خضر بن حسن....) وتذكر الوثيقة أن ورثته هم: زوجته خديجة بنت عمر بن ساب المصرية الحاضرة بالقدس، وأخوه الرشيد حسن الغائب في قليوب[٥]، وفي الوثيقة رقم٦٩٥ المؤرخة في ١٧شعبان ٧٠٥هـ/٤ آذار ١٣٠٦م حصر ارث لرجل ضعيف

---

[1] Little : A Catalogue, p : 223 .

[٢] يذكر العسلي أن المقصود به المعاني نسبة إلى معان.

[٣] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٢٠.

[٤] وهنا تم رفع النسبة إلى المهنة والأصل.انظر، العسلي: المرجع نفسه، ج١، ص٢٦٥.

[5] Ibid,p . 73 . 74 .

وقليوب مدينة عظيمة حسنة وهي قاعدة إقليم قليوب في مصر.انظر،

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت٨٠٩هـ/١٤٦٠م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م، القسم الثاني، ص٤٧.

هو (غانم بن عبد الله) ومن ورثته زوجته (غلان بنت أحمد بن عمر المصرية الحاضرة بالقدس الشريف) وإخوته (محمد وأبو بكر وعلي وخالد وفاطمة وعايشة) الغائبين بمصر المحروسة[١]، وفي الوثيقة رقم ١٦٤ والمؤرخة في ٥ ذي القعدة ٧٩٣هـ/٤ تشرين الأول ١٣٩١م، هي حصر ممتلكات الضعيف (أحمد بن علي بن هاني المصري المعروف بابن عوينة) وورثته هم (سوالف بنت محمد بن علي المصرية المدعوة سعود الحاضرة بالقدس وأخوه محمد المعروف بالزقازيقي[٢] الغائب في القاهرة)[٣]، وتتضمن الوثيقة رقم ٣١٦ المؤرخة ١٤ صفر ٧٨٣هـ/١٠ أيار ١٣٨١م عقد شراء بين ناصر الدين الحموي – وتقدم ذكره – و(الصدر الأجل علم الدين سليمان بن المرحوم الفقير إلى الله تعالى شمس الدين جبرايل المصري الحاضر بالقدس الشريف)[٤]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٤٧٩ المؤرخة ٧ رمضان ٧٩٦هـ/٦ تموز ١٣٩٤م اسم المريضة (جميلة بنت مسعود المنوفية[٥] من القاهرة زوجة الحاج موسى

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٤٨.

Little : A Catalogue , p . 154

يختلف كل من العسلي وليتل حول نقاط عديدة في هذه الوثيقة، فبالنسبة للتاريخ يجعله العسلي في ١٧ شعبان سنة ٧٠٥هـ/، في حين يجعله ليتل في ٢٧ شوال سنة٧٩٥هـ، ويختلفان أيضاً حول اسم زوجة غانم بن عبد الله (صاحب الوثيقة) فعلى حسب قراءة العسلي للوثيقة يجعل اسمها "غلان"، وعلى حسب قراءة ليتل يجعل اسمها "غلمان"، وعلى حسب قراءة الباحث للوثيقة فإن تاريخها هو (السابع عشر من شهر شعبان المكرم من شهور سنة خمس وسبعمائة) وإن زوجة غانم هي (غلان بنت أحمد)، انظر الوثيقة في الملاحق (الملحق رقم ٩).

[٢] الزقازيقي: نسبة إلى الزقازيق، مدينة بمصر في شرقي الدلتا على بحر مويس، قاعدة محافظة الشرقية. انظر، الموسوعة العربية الميسرة، صدرت بإشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ج١، ص٩٢٤.

[3] Ibid , p . 82 .

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٧.

[٥] المنوفية: نسبة إلى مدينة منوف، كانت هذه المدينة في عصر المماليك قاعدة الأعمال المنوفية، التي تبدأ من قرية شطنوف باتجاه الشمال، وهي مدينة إسلامية بنيت بدلاً عن مدينة قديمة هناك،

المصري المعروف بالسراج الخياط)[1]، وفي الوثيقة رقم ٤٩٤ المؤرخة في ١٤ ذي الحجة ٧٩٥هـ/٢١ تشرين الأول ١٣٩٣م، حصر أعيان بقصد الإرث ورد فيها اسم (أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المصري النساج ابن الشيخ)[2].

وبالنسبة للأصول التي تعود إلى البلاد المصرية فإن ذكرها في الوثائق جاء أحياناً منسوباً لمدينة من مدن مصر، فيمكن التعرف على أصلهم المصري من خلال مدينتهم المنسوبين إليها، فلدينا أمثلة عديدة على ذلك، نذكر منها الوثيقة رقم ١٦١ المؤرخة في ذي الحجة ٧٩٣هـ/ تشرين الأول ١٣٩١م، هي وثيقة حصر موجودات لأحد الفراشين بالمدرسة التنكزية[3] بالقدس الشريف واسمه (.... ابن حسين المسعودي) وكان من بين ورثته زوجته (زينب بنت محمد بن عبد الله الإسكندرية)[4].

وتتضمن الوثيقة رقم ٢٩٩ المؤرخة ٣ رمضان ٧٩٦هـ/٢تموز ١٣٩٤م حصر تركة المتوفاة (خديجة بنت عبد الله مطلقة الحاج علي بن فتاته

وهي تختلف عن مدينة منف التي تقع عن جنوب الفسطاط بـ١٢ ميل. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٥.

والمنوفية حالياً محافظة في مصر جنوب الدلتا بين فرعي دمياط ورشيد، سميت بذلك نسبة لعاصمتها السابقة منوف، وعاصمتها الحالية شبين الكوم. انظر، الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص١٣٦٧.

[1] هنا تم رفع النسبة للبلد والمهنة Little : A Catalogue, p . 127 .

[2] هنا أيضاً تم رفع النسبة للبلد والمهنة. انظر، صالحية: من وثائق الحرم، ص١١١.

[3] المدرسة التنكزية: تقع بخط باب السلسلة في الجهة الغربية للحرم، بناها الأمير تنكز نائب الشام عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، وهي بناء متقن وعظيم، وتم ذلك في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٥.

[4] نسبة لمدينة الإسكندرية المشهورة بمصر. Ibid, p . 81.

وهناك وثائق عديدة تنسب أشخاص إلى الإسكندرية منها الوثائق: ١٧٠، ٤٧٠، ٤٩٣.
Ibid , p . 84 . 125 . 130 .

البلبيسي)[١] والورثة هم (ابنتها فاطمة الغائبة في بلبيس) بالإضافة إلى بيت المال[٢].

ونقرأ في الوثيقة رقم ٤٧٠ المؤرخة في ٣٠ رمضان ٧٩٦هـ/٢٩ تموز ١٣٩٤م، حصر إرث (خديجة بنت أحمد الدمياطية)[٣]، والورثة هم (الأطفال محمد وحليمة الغائبون في دمياط)[٤].

وفي الوثيقة رقم ١٦٣ المؤرخة في ٩ ذي القعدة ٧٩٣هـ/٨ تشرين الأول ١٣٩١م حصر ممتلكات الضعيفة (جوهرة بنت صلاح بن أبي بكر الدمياطية)[٥]، وفي الوثيقة ذاتها ذُكر أن مستحق إرثها هو زوجها (محمد بن محمد السمنودي)[٦] وتكثر الأمثلة والوثائق التي تتحدث عن مقادسة من أصول مصرية يضيق المجال لذكرها هنا[٧].

ونَسبت الوثائق الكثير من أهالي القدس إلى المغرب العربي، وكيف لا وهناك في القدس حي بأكمله مع أوقافه باسم المغاربة – سنقدم لاحقاً دراسة

---

[١] نسبة إلى مدينة بلبيس وتبعد عن الفسطاط ١٠ فراسخ على طريق الشام. انظر، الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٦٧. أيضاً، السيوطي: لب اللباب، ص٤٢.

[٢] Little : A Catalogue, p. 98 .

[٣] نسبة إلى دمياط. انظر، السيوطي: المصدر المتقدم، ص١٠٧، ودمياط مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم (المتوسط) والنيل، مخصوصة بالهواء والطيب وعمل الثياب والشراب الفائق. انظر، الحموي: المصدر المتقدم، ج٢، ص٥٣٧-٥٣٩.

[٤] Ibid , p . 125 .

[٥] صالحية: من وثائق الحرم، ص٨٥.

العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٦٧ – ٢٦٨.

[٦] السمنودي: نسبة إلى سمنود. انظر، السيوطي: المصدر المتقدم، ص١٤٠، وسمنود هي بلد من نواحي مصر جهة دمياط على ضفة النيل ولها كورة فيقال كورة السمنودية. انظر، الحموي: المصدر المتقدم، ج٣، ص٢٨٨.

[٧] للتعرف على بعضها يمكن الرجوع إلى العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٢٤-٢٢٦، ج٢، ص٩٢، وأيضاً:

Ibid, p. 77, 85, 87, 100, 101, 103, 107, 112, 113, 125, 128, 129, 133, 134, 160, 161.

مفصلة لهذا الحي – فقد كان المغاربة يُؤْثِرون القدوم إلى القدس، ويرون أن حجهم يكتمل بزيارتها، وكثيرٌ منهم آثروا الاستقرار فيها لأسباب عديدة ستُذكر لاحقاً.

فكانت الوثائق تنسب الشخص المقدسي إلى المغرب العربي بأن تقول (المغربي، والمغربية)، وأحياناً إلى إقليم بذاته من أقاليم المغرب العربي، فتذكر الوثيقة رقم ٨٣٣ المؤرخة في ٢٥ ربيع الأول ٧٤٧هـ/١٦ تموز ١٣٤٦م وهي وثيقة وقف (فاطمة بنت محمد بن علي المغربية[١] المقيمة بالقدس الشريف) لعمارتها المستجدة بحارة المغاربة في القدس الشريف على الفقراء والعجايز المغاربة[٢]، وتتضمن الوثيقة رقم ٦٤٩ المؤرخة في ١١ ذي القعدة ٧٩٣هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٣٩١م دعوى موضوعها طلب من القاضي لبيع أملاك أيتام البدري بن مزهر، ومن بين البينة الشرعية المقدمة للقاضي كان (الصدر الأجل علاء الدين علي المغربي المالكي إمام المالكية)[٣]، والوثيقة رقم ٧٠٠ المؤرخة ١٥ محرم ٧٩٦هـ/٢٠ تشرين الثاني ١٣٩٣م وهي وثيقة باسم الضعيف (الحاج أبو بكر بن عمر بن محمد القطان المعروف بالمغربي) وكان يسكن في دار الشيخ خليفة شيخ زاوية المغاربة[٤].

والوثيقة رقم ٥١٠ المؤرخة ٢٧ شوال ٧٩٣هـ/٢٧ أيلول ١٣٩١م هي عبارة عن حصر موجودات لامرأة كانت على فراش الموت هي (عائشة بنت

---

[١] نسبة إلى بلاد المغرب. انظر، السيوطي: لب اللباب، ص٢٤٩.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٣٦.

[٣] العسلي : المرجع نفسه، ج٢، ص٢٥ – ٢٦.

ولا يخفى علينا أن معظم أهالي المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس (المالكي). انظر،

Cohen (Amnon) and Lewis (Bernard) : Population and revenue in the towns of palestine in the sixteenth century . Princeton university press – new jersy 1978 . p . 34 .

[٤] وهنا تم رفع النسبة للمهنة والبلد

Little : A Catalogue , p . 154 .

عيسى بن أحمد بن محمد المغربية)[١]، وفي الوثيقة رقم ٣٨٣ والمؤرخة في ٥ محرم ٧٩٦هـ/١٠ تشرين الثاني ١٣٩٣م جرت النسبة إلى إحدى قبائل المغرب العربي، فقد جاء في الوثيقة (الحاجة مريم بنت محمد بن موسى الصنهاجية)[٢] التي تسكن في حارة المغاربة[٣]، وفي الوثيقة رقم ٣٦٤ المؤرخة في ٨ محرم ٧٩٦هـ/١٣ تشرين الثاني ١٣٩٣م، يرد اسم الضعيفة (عائشة بنت سليمان المغربية زوجة عبد الرحمن بن خالد بن موسى المغربي)، ومكان السكن هو حارة المغاربة في القدس الشريف[٤].

وفي بعض الأحيان كانت الوثائق تنسب الشخص إلى مدينة محددة من المغرب العربي، مثل الوثيقة رقم ٦٣٥ المؤرخة في ١٨ المحرم ٧٩٣هـ/٢٦ كانون الأول ١٣٩٠م وهي وثيقة حصر إرث لرجل يبدو أنه كان قد توفي عندما تم فتح بيته، وجد في بيته سند ملكية كرم باسم (الحاج يوسف بن عبد الله بن عبد الله المغربي التونسي)[٥] النسّاج بأرض السواد[٦]، ومثال آخر الوثيقة رقم ٥٦٦ المؤرخة في ١٩ ربيع الأول ٧٩٤هـ/١٤ شباط ١٣٩٢م هي وثيقة حصر موجودات لرجل كان على فراش الموت اسمه (أحمد بن حامد بن علي المغربي السلاوي)[٧]، حصل هذا الحصر في دار زوجته في حارة المغاربة[٨].

---

(1) Little : A Catalogue, p . 132 .

(٢) نسبة إلى صنهاجة إحدى قبائل المغرب.

(3) Ibid. p . 103 .

(4) Ibid , p . 101 .

(٥) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٣، ٣٤. Ibid, p . 149 .

(٦) أرض السواد: سواد البلدة أي ما حولها من الريف والقرى فلدينا على سبيل المثال سواد العراق، سواد حوران وغيرهما، والمقصود هنا أرض بعينها، وربما كانت هي الأرض المعروفة بأرض السحار فوق وادي الجوز ظاهر القدس. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٤.

(٧) نسبة لمدينة سلا: في أقصى المغرب العربي. انظر، الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٦٢. وتعرف حتى الآن ضاحية الرباط عاصمة المملكة المغربية برباط سلا.

(8) Little: A Catalogue, p . 145 .

وكما أن القدس حوت بين أحضانها سكاناً من غربي العالم الإسلامي فإنها حوت أيضاً مثلهم من الشرق، فمن الطبيعي أن تضم القدس الكثير من تلك البلاد، وخاصة أولئك الذين هاجروا بسبب الموجة المغولية التي سحقت شرقي البلاد.

وهناك العديد من الوثائق التي تنسب سكاناً من القدس إلى أصلهم البغدادي، ففي الوثيقة رقم ٢٠١ المؤرخة ٢ محرم ٧٨٠هـ/١ نيسان ١٣٧٨م إقرار بدين من (المعلم علي بن محمد بن عبد الله البغدادي الخياط المقيم بالقدس الشريف)[١]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٥٠٧ والمؤرخة في ٢٦ ذو الحجة ٧٩٣هـ/٢٤ تشرين الثاني ١٣٩١م (الحاج حسن بن البغدادي النساج)[٢]، وأقرَّ في الوثيقة رقم ٥٠٥ المؤرخة في ٢٠ جمادى الآخرة ٧٩٦هـ/٢٢ نيسان ١٣٩٤م، (يوسف بن عبد الرحمن بن عتيق البغدادي)[٣] وهو على فراش الموت أن زوجته فاطمة وابنه أحمد من مطلقته ظرفا وأبيه الغائب عن القدس هم ورثته.

وتكثر في الوثائق النسبة إلى بلاد العجم بأن تقول (العجمي أو العجمية)، وفي التاريخ الإسلامي غالباً ما كان يقصد ببلاد العجم إيران وخراسان (بلاد فارس)[٤].

ومن هذه الوثائق الوثيقة رقم ٦٣٥ المؤرخة ١٨ المحرم ٧٩٣هـ/٢٦ كانون الأول ١٣٩٠م وهي عبارة عن حصر إرث لرجل توفي اسمه (الحاج

---

(١) وهنا وقعت النسبة للمهنة والبلد ، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٩٠ .

(٢) وهنا أيضاً وقعت النسبة للمهنة والبلد.

Ibid, P . 176 .

(3) Ibid , P. 131 - 132 .

(٤) والعجمي بفتحتين (العين والجيم) نسبة إلى العجم وبلاد فارس ومن لسانه لا يحسن العربية. انظر، السيوطي: لب اللباب، ص١٧٦.

حسن العجمي) بالقدس الشريف بحارة المشارقة[1]، وعثر في بيته على (حُجة على موسى بن يعقوب حسن العجمي الحلواني[2] باسم الحاج محمد بن مراد ابن محمود العجمي السقا)[3]، والوثيقة رقم ٣٠١ وتاريخها ١٤ محرم ٧٩٧هــ/٩ تشرين الثاني ١٣٩٤م وهي عبارة عن حصر إرث لامرأة ضعيفة تدعى (دلشاد بنت السلطان بن عبد الله العجمية) زوجة المعلم بهرام المقيم بالقدس الشريف[4]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٧٥٥ المؤرخة ١٧ ربيع الثاني ٧٩٥هــ/٢ آذار ١٣٩٣م (مخلصة بنت صالح بن عمر العجمية)[5].

وتنسب الوثائق الكثير من سكان القدس إلى شرق العراق، فعلى سبيل المثال الوثيقة رقم ٥٩٤ المدونة في ١١ ذي القعدة ٧٩٦هــ/٧ أيلول ١٣٩٤م هي وثيقة حصر ممتلكات لامرأة مريضة، كان من بين ورثتها إخوتها (الحاج محمد والحاج أحمد البخاري[6])[1]، والوثيقة رقم ٥٢٣ المؤرخة في ٢٤ ذي

---

[1] تقع شمال باب حطة، أحد أبواب الحرم الشمالية. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج ٢، ص٥٤ .

[2] نسبة إلى حُلوان: بالضم ثم السكون، هناك مدينة حلوان بالعراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد، وهي مدينة عامرة وأكثر ثمارها العنب، وهناك مدينة حلوان بمصر بينها وبين الفسطاط فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل، اختطها عبد العزيز بن مروان لما ولي مصر، وهناك مدينة أخرى بهذا الاسم في نيسابور وهي آخر حدود خراسان فيما يلي أصبهان، انظر: الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٤-٣٣٨. ويرجح هنا حلوان العراق لأنها عرفت في التاريخ الإسلامي أكثر من حلوان الموجودة في خراسان، وحلوان الموجودة في خراسان قليلة الذكر وتكاد تكون غير معروفة، وترجح حلوان العراق على حلوان الموجودة في مصر لأن النسبة كانت (العجمي الحلواني) فنسبة العجمي إلى العراق أقوى من نسبته إلى مصر، فهم سكان بلاد فارس.

[3] وهنا وقعت النسبة للجنسية والمهنة. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٣-٣٥ .
Little : A Catalogue . p . 149 .

[4] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٧ .

[5] Little : A Catalogue, p . 164 .

[6] نسبة إلى بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر، بينها وبين جيحون يومان وبعيدة عن خوارزم مسافة ١٥ يوماً وعن سمرقند ٧ أيام. انظر، الحموي : معجم البلدان، ج١، ص٤١٩-٤٢٣. انظر، السيوطي: لب اللباب، ص٣١.

القعدة ٧٩٥هـ/١ تشرين الأول ١٣٩٣م باسم الضعيف (خواجه[٢] محمد بن الشيخ علي بن محمد أقبيل العجمي النيسابوري[٣])[٤]، وإلى خوارزم نسبت الوثيقة رقم ٦١٣ المؤرخة ١٩ ذي القعدة ٧٩٦هـ/١٥ أيلول ١٣٩٤م أحد سكان القدس وهو (الصدر الأجل شرف الدين محمود بن شهاب الدين أحمد بن محمد الخوارزمي[٥])[٦].

ونسبت وثائق الحرم القدسي البعض من سكان القدس الشريف إلى الجزيرة الفراتية، فعلى سبيل المثال نسوق الوثيقة رقم ٦٩٢ المؤرخة في ١٣ شعبان ٧٨٧هـ/١٩ أيلول ١٣٨٥م وفيها يقر كل من (محمد بن عمران بن عبد الله الارداني وأبو بكر بن أحمد بن منعم الماردانى[٧]) بدين لناصر الدين الحموي[٨]، والوثيقة رقم ٦٩٣ المؤرخة في ٢٤ شوال ٧٩٣هـ/٢٤ أيلول ١٣٩١م وهي عبارة عن جرد عقار (الحاجة عائشة بنت عبد الله بن إبراهيم

---

(1) Ibid, p . 148 .

(٢) الخواجا أو الخواجه، تعني المعلم، انظر، المقريزي: السلوك ج١، ق٢، ص٤٢٠، حاشية رقم ٥.

(٣) نسبة إلى نيسابور: مدينة عظيمة تبعد عن الري ١٦ فرسخ وعن سرخس ٤٠ فرسخاً، كثيرة الفواكه والخيرات. انظر، الحموي: المصدر المتقدم، ج٥، ق٢، ص٣٨٢-٣٨٤ . انظر، السيوطي: المصدر المتقدم، ص٢٦٩.

(4)Ibid, p . 136 .

(٥) نسبة إلى خوارزم، السيوطي: المصدر المتقدم، ص٩٨. وخوارزم إقليم منقطع عن خراسان وما وراء النهر، يحيط به من الغرب بعض بلاد الترك، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك، ويقع هذا الإقليم في آخر جيحون، ويشتهر ببرودته الشديدة. انظر، أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٤٧٧.

(٦) العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٢.

Ibid , p . 316 .

(٧) نسبة إلى ماردين: قلعة مشهورة في قنة جبل في الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، الحموي: معجم البلدان ، ج٥، ص٤٦-٤٧. انظر، السيوطي: لب اللباب ، ص٢٣٣.

(8) Little:A Catalogue, p. 219.

الموصلية[١])[٢]، وورد في الوثيقة رقم ٦٥٧ المؤرخة في ٢٨ جمادى الثانية ٧٩٧هــ/٢٠ نيسان ١٣٩٥م اسم (المصونة "ححك" بنت عبد الله زوجة المرحوم زين الدين عبد الكريم الموصللي التاجر السفار)[٣].

حوت القدس أيضاً بين سكانها أيضاً أناساً ينتسبون إلى قلب الجزيرة العربية، ففي الوثيقة رقم ٤٦٦ المؤرخة في ١٩ رمضان ٧٩٥هــ/ ٢٩ تموز ١٣٩٣م حصر تركة المتوفية (فاطمة بنت مسعود بن عبد الله الحجازية) في رباط السلطان في منطقة باب الحديد بالقدس الشريف[٤].

وتطلعنا الوثائق على أن القدس سكنها أناس من أصل سوداني، وخاصة أن معظم العبيد كانوا من أصل أفريقي – كما سيرد معنا لاحقاً – فنقرأ في الوثيقة رقم ٢٣٧ المؤرخة في ٢٣ ذي القعدة (العام غير واضح في الوثيقة) حصر موجودات لشخص مريض هو (الحاج عبد الله بن الحاج أحمد السوداني)[٥]، وفي الوثيقة رقم ٣٨٢ المؤرخة في ١٧ رجب ٧٤٠هــ/١٨ كانون الثاني ١٣٤٠م، عقد شراء جارية (تكرورية الجنس)[٦]، وفي الوثيقة رقم ٢٩٨ المؤرخة في ٤ شوال ٧٩٥هــ/١٣ آب ١٣٩٣م عقد شراء بين أطراف عدة اشترى به علاء الدين الحارثي (جميع العبد الرقيق النوبي[٧] الجنس، المسلم الدين، المراهق المدعو رشيد)[٨]، وهناك عقد شراء آخر لجارية نوبية،

---

[١] نسبة إلى الموصل: مدينة قديمة على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى وهي إحدى قواعد بلاد الإسلام. انظر، الحموي: المصدر المتقدم، ج٥، ص٢٥٨-٢٦٠. انظر، السيوطي: المصدر المتقدم ، ص٢٥٥.

[٢] Ibid, p . 219 .

[٣] اسم هذه المرأة غير واضح في الوثيقة. Ibid, P.219.

[٤] Ibid , p . 124 .

[٥] Little: A Catalogue, p . 87 .

[٦] التكرورية مؤنث تكروري والجمع تكارنة، وهم من الأفارقة السودان سكان بعض أجزاء السنغال وبوندو. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٢. Ibid, p. 291 .

[٧] نسبة إلى النوبة في السودان، السيوطي: لب اللباب، ص٢٦٦.

[٨] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٩. Ibid, p . 282 .

حيث تنص الوثيقة رقم ٥٧٤ "آ" المؤرخة في ٢٤ رمضان سنة ٧٨٧هـ/٣١ آب ١٣٨٥م على شراء بدر الدين حسن لـ(جميع الجارية النوبية الجنس، المسلمة الدين، المرأة الكاملة المدعوة مباركة)[١].

وكان للأحباش من الأفارقة ذكر في وثائق الحرم على أنهم من سكان القدس الشريف، ومن الوثائق التي تخصهم نذكر الوثيقة رقم ٧٧١ (g[٧]) المؤرخة في ١١ شوال ٧٩٣هـ/ ١١ أيلول ١٣٩١م هي جرد عقار لـ(حرير بنت عبد الله زوجة الشيخ بشير بن عبد الله الحبشي)[٢]، والوثيقة رقم ٣١٦ المؤرخة في ١٤ صفر سنة ٧٨٣هـ/١٠ أيار ١٣٨١م وهي عقد شراء بين تاجرين (حموي ومصري)[٣] لشراء (جميع العبد السحرتي الجنس[٤]، المسلم الدين، المدعو رشيد)[٥].

وحفلت وثائق الحرم بذكر أناس سكنوا وعاشوا بين سكان القدس الشريف في عصر المماليك يعودون بنسبهم إلى أصول تركية، ولقد كان تمثيل الأتراك في هذه الوثائق كبيراً، ومن هذه الوثائق الوثيقة ٦٣٥ المؤرخة في ١٨ محرم ٧٩٣هـ/ ٢٦ كانون الأول ١٣٩٠م وهي وثيقة حصر إرث لرجل ميت في بيته في حارة المشارقة، وعثر في بيته على (حجة على شخص يسمى إسماعيل بن عيسى بن أحمد التركماني)[٦]، والوثيقة رقم ٣١٥ المؤرخة في ٢ ربيع الآخر (الثاني) ٧٩١هـ/١ آذار ١٣٨٩م وهي إقرار (المصونة يلقطوا بنت

---

(١) العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٥٢. Ibid, p . 292 .

(2) Ibid , p . 222 .

(٣) سبق ذكر هذين التاجرين في ص(٥٢) و ص (٥٧).

(٤) نسبة إلى سحرت، وهو جنس من الأجناس الموجودة في الحبشة.

Little, (Donald .p): "Six fourteenth Century Purchase Deeds dor Slaves from Al-Haram As-Sharif" Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft (Z.D.M.G) Band 131, Heft 2, 1981. p . 319 .

(٥) العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٧.

(٦) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٤.

المرحوم زين الدين محمود بن الشيخ زكريا التركية) بأن زوجها ابن عمها هو وريثها الشرعي الوحيد[1]، والوثيقة رقم ٧٣٦ المؤرخة في ١ شعبان ٧٩٦هـ/١ حزيران ١٣٩٤م، وهي وثيقة حصر موجودات لامرأة كانت تدعى (فاطمة بنت عبيد التركية) وزوجها غائب عن القدس وهي تقيم في حارة صهيون[2]، والوثيقة رقم ٧٤٤ المؤرخة في ٩ رمضان ٧٩٥هـ/١٩ تموز ١٣٩٣م هي باسم (آلتون بنت عبد الله زوجة عثمان بن داوود التركماني)، ومكان الحدث هو باب العمود بالقدس[3]، والوثيقة رقم ١٣٠ المؤرخة في ٢٢ ذو القعدة ٧٩٥هـ/الموافق ٢٩ تشرين الأول ١٣٩٣م نقرأ فيها اسم (لوكر بنت عبد الله التركية)[4]، والوثيقة رقم ٢٢٧ المؤرخة في ١٤ ذي الحجة ٧٩٦هـ/١٠ تشرين الأول ١٣٩٤م هي وثيقة حصر موجودات للضعيفة (إلا لميس بنت شلبي بن تاج الدين محمد التركية)[5] التي تقطن في حارة الخوالدة الشرقية، ومن ورثتها (الدرومش) الغائب في سيواس[6].

ووجد بين سكان القدس أشخاص نسبتهم الوثائق إلى مدن سلاجقة الروم التي كانت قائمة آنذاك في الأناضول (تركيا الحالية)، فعلى سبيل المثال نشير إلى الوثيقة رقم ٧٢٠ المؤرخة في ١٠ ذي الحجة ٧٩٥هـ/١٧ تشرين الأول ١٣٩٣م التي نقرأ فيها اسم الضعيف (يوسف بن حماد بن محمد الرومي القونوي[7])[8]، والوثيقة رقم ٢٩٨ المؤرخة في ٤ شوال ٧٩٥هـ/١٣ آب ١٣٩٣م وهي عقد شراء اشترى بموجبه علاء الدين علي الحارثي العبد النوبي

---

(١) العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١١٨. Little : A Catalogue , p . 209 .

(2) Ibid , p . 159 .

(3) Ibid , p . 161 .

(4) Ibid, p . 74 .

(5) Little: A Catalogue, p . 86 .

(٦) سيواس: تقع في بلاد الروم وتبعد عن قيسارية حوالي ستون ميلاً وهي شديدة البرد ومشهورة بتجارتها. انظر، أبي الفداء: تقويم البلدان، ص٣٨٤-٣٨٥.

(٧) نسبة إلى قونية من أعظم مدن الإسلام بالروم . انظر، الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٧١.

(8) Ibid, p. 155.

رشيد من ورثة المرحوم (أبي بكر بن علي بن الأرز الرومي[١] الدمشقي المتوفي بالقدس الشريف) وكان من بين ورثته الذين باعوا هذا العبد زوجته (خديجة بنت شهاب الدين أحمد ابن الأرز الرومي) وشقيقته (ألتي)[٢].

ولدينا أيضاً العديد من الوثائق التي تستخدم النسبة (الرومي أو الرومية)، ويرجح هنا أن هؤلاء كانوا من سلاجقة الروم، فعلى سبيل المثال نقرأ في الوثيقة رقم ٧٧١ المؤرخة في ١٢ ذي الحجة ٧٩٣هـ/١٠ تشرين الثاني ١٣٩١م، اسم (فاطمة بنت كوتلوبيك الرومية)[٣]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٣٦٩ والمؤرخة في ٣ جمادى الأولى ٧٧٣هـ/١٢ تشرين الثاني ١٣٧١م اسم (الحاجة مريم بنت عبد الله الرومية زوجة الحاج زكريا بن مختار الرومي)[٤]، ونقرأ في الوثيقة رقم ٣٨٧ المؤرخة ٢١ جمادى الأولى ٧٩٦هـ/٢٤ آذار ١٣٩٤م، (فاطمة بنت عبد الله التركية الرومية)[٥]، وتنسب الوثيقة رقم ٥٦١ المؤرخة في ٢٢ رمضان ٧٩٥هـ/ ١ آب ١٣٩٣م، امرأة إلى بلاد القرم[٦] هي (جميلة بنت شهاب الدين بن يصبرة القرمية) كنت تقطن القدس في دار وقف السلطان في منطقة باب الحديد[٧]، توفيت هناك ، وهذه الوثيقة هي حصر

---

[١] نسبة إلى أرز روم، هي نفسها أرض روم أو أرزن الروم، مدينة في تركية تقع في هضبة الأناضول الشرقي على نهر قره صو أحد روافد الفرات، تبعد عن بحيرة وان ١٥٠كم باتجاه الشمال الشرقي. انظر، الموسوعة العربية: الجمهورية العربية السورية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، م١، ص٩١٤.

[٢] (ألتي) Alti : اسم كوماني من الشعوب التركية ومعناه (المرأة المشتراة). انظر،
Little: six Fourteenth , p . 329 .
العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٤٩-١٥٠.

[3] Little: A Catalogue, P. 168.
[4] Little: A Catalogue, p. 289 .
[5] Ibid, p. 174-175.

[٦] شبه جزيرة القرم تقع شمال البحر الأسود. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص٣٢٧.
- الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص١٣٧٧.

[٧] باب الحديد أحد أبواب الحرم الغربية. انظر مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٠. انظر، الخرائط في الملاحق.

للمتلكات التي خلفتها هذه المرأة، وتذكر الوثيقة أن من بين ورثتها أطفالها الغائبون في بلاد القرم[(١)].

أما الأكراد، فقد كان لهم وجودهم في القدس، وربما يكون ذلك منذ أيام صلاح الدين، فتنسب وثائق الحرم الكثير من سكان القدس إلى الأصل الكردي، فالوثيقة رقم٣٠ المؤرخة في ٧ رجب الفرد سنة ٧٩٦هـ/ ٨ أيار ١٣٩٤م، كان أحد أعلامها (علاء الدين علي بن عمر الكردي متولي الليل بالقدس الشريف)[(٢)] وورد في الوثيقة رقم ٧٣١ المؤرخة ٦ ربيع الأول ٧٩٤هـ/١ شباط ١٣٩٢م اسم (موسى بن محمد بن موسى الكردي الخياط)[(٣)]، وورد في الوثيقة رقم٧٣٧ المؤرخة في ٢٣ شوال ٧٩٣هـ/ ٢٣ أيلول ١٣٩١م اسم (آسيون بنت أحمد الكردية)[(٤)].

ونرى من الفائدة ذكر الوثيقة رقم ٥٤٤ المؤرخة ٣ ذو الحجة ٧٩٣هـ/١ تشرين الثاني ١٣٩١م، كدليل على حرص الوثائق على ذكر الأصول العرقية لسكان بيت المقدس، وفيها عيّن عز الدين أيبك بن عبد الله الحسامي زوجته (بركة بنت الحاج عبد الله بن عبد الله السيلاني[(٥)]) وصية على ممتلكاته[(٦)].

وأخيراً فإن وثائق الحرم القدسي الشريف قد تعاملت مع أهل الذمة كما تعاملت مع المسلمين سواء من ناحية تطبيق نظام حصر الإرث الإسلامي عليهم، أو من ناحية ذكر أصولهم إن كانوا من غير المقادسة، وخير دليل على ذلك الوثيقة رقم ١٧٩ المؤرخة ٢٩ صفر الأغر سنة٧٩٥هـ / ١٤ كانون الثاني ١٣٩٣م، وهي وثيقة حصر إرث لرجل يهودي ضعيف اسمه (اسحق بن

---

(1) Ibid , P. 177 , 178.

(٢) أي أن المسؤول عن الأمن ليلاً كان كردياً ، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٣٢.

(3) Ibid, p. 157.

(4) Ibid, p. 159.

(٥) نسبة إلى جزيرة سيلان، السيوطي: لب اللباب، ص١٤٧.

(6) Little: A Catalogue, p. 316 .

شمويل بن يوسف) ويسكن بحارة اليهود[١]، ومن بين ورثته زوجته (سمحة ابنة يهودا الافرنجية الحاضر بالقدس الشريف) ووالدته (دوسا بنت سلتين الافرنجية الحاضرة معه بالقدس الشريف) ، ويمكن أن تكون هذه الأسرة أسرة حجاج لما جاء فيها (الحاضرة معه)، ولأنهم تعاملوا بعملة أوروبية هي (أفلوري)[٢]، أو أنها من بقايا الصليبيين.

وفي النهاية لابد أن نشير إلى أن الحديث عن الوثائق من ناحية ذكرها للأصول العرقية يطول، فالأمر قد يحتمل مجلداً أو أكثر، وما تم ذكره من وثائق في الدراسة التي سلفت يشكل نسبة ضئيلة (عينة)، تدلل على تشكل المجتمع المقدسي من عناصر سكانية متعددة الأصول، وتشير أيضاً إلى أن العناصر العربية – على الرغم من أن الحكومات لم تكن عربية – كانت أكثر من غيرها. فكان هناك الكثير من الدمشقيين[٣] والحلبيين[٤] والمصريين[٥]

---

[١] حارة اليهود: تقع غرب حارة الصلت، وهذه بدورها تقع غرب حارة الشرف وتقع هذه جنوب حارة المغاربة. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٢.انظر أيضاً الخرائط في الملاحق.

[٢] الأفلوري: هي عملة ذهبية ضربتها فلورنسا عام ١٢٥٢م، عرفت في أوروبا باسم أفلورين، وفي الأسواق الشرقية باسم أفلوري، وكانت تستخدم في عصر المماليك مع غيرها من العملات الإيطالية والمملوكية. انظر، محمد (عبد الرحمن فهمي): النقود العربية، ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٩٦.

[٣] عن الوثائق التي تشير إلى الدمشقيين: انظر:
little: A Catalogue: p. 36, 65, 79, 80, 83, 93, 100, 111, 112, 122, 134, 135, 137, 143, 144, 147, 156, 171, 179, 182, 185, 215, 220, 221, 238, 268, 279, 282 , 292, 294, 305 , 315.

عن الوثائق التي تشير إلى الدمشقيات، انظر:
Ibid, P. 63, 68, 72, 74, 78, 79, 80, 81, 83, 84, 86, 89, 94, 95, 96, 102, 104, 109, 115, 116, 119, 126, 135, 141, 143, 147, 151, 152, 155, 156, 158, 160, 163, 164, 166, 167, 168, 172, 179, 201, 209, 220, 221, 223, 228, 336, 339, 340, 341.

[٤] عن الوثائق التي تشير إلى الحلبيين ، انظر:
Ibid, P. 64, 70, 79, 97, 109, 121, 128, 129, 130, 133, 134, 142, 145, 150, 154, 155, 157, 160, 166, 172, 173, 175, 185, 209, 227, 233, 237, 250, 268, 281, 289, 290, 297, 339, 351.

عن الوثائق التي تشير إلى الحلبيات، انظر:
Ibid, P. 69, 76, 88, 91, 107, 113, 121, 133, 143, 150, 175, 217, 229, 268.

[٥] عن الوثائق التي تشير إلى المصريين، انظر:
Ibid,P.68,78,82,85,89,107,115,125,127,128,130,131,142,151,155,185,200,209, 211,219,230,226,279,280,282,286,298,303,341,346.

عن الوثائق التي تشير إلى المصريات، انظر:
Ibid,P.68,74,82,85,87,91,100,107,111,113,119,125,126,128,129,135,144,151,154,160,165,172,176,178,181,208,211,231,268,286.

والمغاربة[١]، هؤلاء اللذين شكلوا العناصر الرئيسة إلى جانب المقادسة، مع وجود عناصر أخرى غير عربية كالعجم والأكراد والأتراك.... الخ.

ونلاحظ الشيء نفسه في تركيبة الجيش المملوكي، إذ أنه تألف من عناصر عديدة، حيث كان خليطاً من الترك، والجركس، والروم، والأكراد، والتركمان[٢].

---

(١) عن الوثائق التي تشير إلى المغاربة، انظر:
Ibid,P.57,67,71,73,79,89,101,110,111,113,117,123,124,140,145,151,152,154,156,158,160,181,258,264,347,349, 356,358.
عن الوثائق التي تشير إلى المغربيات، انظر:
Ibid,P.79, 90,91,101,102,112,128,132,319.349 .
٢ المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)، دار صادر، بيروت، ج٢، ص٢١٥.

ثانياً: عوامل النمو والتنوع السكاني:

في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م، زار القدس ثمانية أشخاص أوروبيين، سجلوا مشاهداتهم، وهم: إسبانيان وثلاثة سويسريين وفلامنكييان وألماني، حيث دهش أحد السويسريين للصفة العالمية للقدس، حيث يتكلم الناس هناك سبع لغات[١]، وقد أُثبت فيما تقدم أن سكان القدس في عصر المماليك يرجعون في أصولهم إلى مناطق جغرافية وأصول عرقية متعددة، سكن هؤلاء القدس لأسباب مختلفة، ومنهم تشكل المجتمع الذي تكون من مزيج من عناصر سكانية متعددة، وفي محاولة لتعليل هذه التعددية، سيتم ذكر أسباب وعوامل النمو والتنوع السكاني التي كان من شأنها أن تنتج مجتمعاً متعدد الأصول العرقية والجغرافية.

١- دور صلاح الدين:

تعرض البحث المتقدم لأحد أهم هذه العوامل وهو مبادرات صلاح الدين الأيوبي لإسكان القدس بعد ترحيل الصليبيين منها في محاولة منه لإعادة الصفة الإسلامية للمدينة، فجاء بعدد من القبائل العربية وأسكنها القدس والمناطق المجاورة فضلاً عمن جاء معه واستقر بها[٢]، هذا العمل – بالإضافة إلى عوامل أخرى – كان من شأنه أن يقدم عناصر سكانية متنوعة الأصول، كما أن صلاح الدين الأيوبي ضمن هذه العملية شرع في برنامج عمراني بلغ أوجه في عصر المماليك، فبنى الأيوبيون ثم المماليك بصورة خاصة العديد من

---

[١] رافق (عبد الكريم): فلسطين في عهد العثمانيين، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٧٣١.

[٢] راجع الصفحة (٣٨)، ويذكر المرحوم كامل العسلي أنه لم يصادف عائلة مقدسية أثبتت له بالوثائق أنها تعود بتاريخها في القدس إلى ما قبل الفتح الصلاحي للمدينة. انظر، الشيخ: القدس الإنسان والمكان، ص٤٦-٤٧.

المساجد، والمدارس، والخانقاوات، والزوايا، ودور الحديث، ودور القرآن، ومكاتب الأيتام، والبيمارستانات، والسبل، والمطاهر، والربط[1].

فكان من نتيجة مبادرات صلاح الدين الأيوبي، والاستقرار السياسي الذي جاء به المماليك أن تعافت المدينة تعافياً مدهشاً من الضربات التي لحقت بها أيام الصليبيين، فـ(عادت إلى ما كانت عليه من التمدن بعد أن كانت لا تعد من القرى ولا يندى في جوانبها الثرى)[2].

٢- دور المماليك:

وكان من أهم عوامل النمو السكاني دخول القدس تحت سلطة المماليك، وما هيأ هذا الحكم لمدينة القدس من بيئة تساعد على التطور والتقدم، فقد مر

---

[1] عن العمارة في القدس: انظر، النعيمي (عبد القادر بن محمد النعيمي، ت٩٢٧هـ/١٥٢١م): الدارس في تاريخ المدارس، تح: جعفر الحسيني، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي، جزآن، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

- العسلي (كامل): معاهد العلم في بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٨١م.
- المؤلف نفسه: من آثارنا في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية ١٩٨٢م.
- غوشة (محمد هاشم): بوابات القدس، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٩٢م.
- عبد المهدي (عبد الجليل حسن): المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، جزآن، عمان ١٩٨١م.
- نجم (رائف) وآخرون: كنوز القدس، مؤسسة آل البيت ومنظمة المدن العربية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

Burgoyne, (Michael Hamilton): with Additional Historical Research By D. S. Richards Mamluk Jerusalem: An Architectural Study. (London). World of Islam Festival Trust for the British School of Archaeology in Jerusalem, 1987.

British School of Archaeology, (the Architectare of Islamic Jresalam) An Exhibition Prepared on the Occasion of the World of Islam Festival, London, 1976. Jerusalem, 1976.

[2] ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، السفر الثالث، ص٥٤٤-٥٤٥ .

معنا أن القدس خرجت من دائرة الحياة العامة في الدولة الإسلامية عندما سقطت بأيدي الصليبيين عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م[١]، لتصبح مقراً لمملكة صليبية عملت جاهدة على محو كل أثر إسلامي فيها، وبالرغم من استرداد صلاح الدين للمدينة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٢]، والقيام بخطوات جدية لأسلمة المدينة، إلا أنه لا يمكن القول إن المدينة قد عادت لها حياتها الطبيعية، والسبب في ذلك هو انشغال خلفاء صلاح الدين من بني أيوب بصراعاتهم الداخلية، مما أدى إلى ضياع القدس مرة ثانية وبتواطئ بعضهم عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٣].

لكن الأوضاع والظروف تغيرت بعد مجيء المماليك وتسلمهم مقاليد الحكم، واعتماداً على ما جاء في الوثائق وعلى ما كتبه الرحالة ولاسيما الأوربيون؛ يمكن القول بأن القدس في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي كانت مدينة مزدهرة عامرة تتفوق في ذلك على المدن الأوربية، ففي عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م زارها ثلاث رحالة إيطاليون وتركوا لنا مشاهداتهم، فوصفها أحدهم واسمه سيغولي (Sigoli) قائلاً: إن (المدينة تتألف من بيوت جميلة جداً وقديمة، وإن فيها شوارع جميلة جداً لأصحاب الحرف، وهؤلاء يحافظون على دكاكينهم نظيفة جداً يطيب النظر إليها، والشوارع كلها، أو في معظمها مسقوفة أو مقببة، وذات نوافذ تُنفذ الضوء بحيث تبقى الشوارع جافة حين تمطر السماء، وفي المدينة سوق عظيم للخبز ولكل أنواع اللحوم، أكثر بكثير مما عندنا)[٤].

---

[١] ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٧.

[٢] ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص٦٦.

[٣] المقريزي : السلوك، ج١، ق١، ص٢٦٨.

[4] Frescobaldi, Gucci And Sigoli: Visit To The Holy Places Of Egypt, Sinai, Palestine, And Syria in 1384, Translated by Fr.T. Bellorini Jerusalem: The Franciscan Press, 1948, P. 180.

فمن محاسن الحكم المملوكي استتباب الأمن الذي نعمت به البلاد تحت حكمهم[١]، فقد اعتمدت النظرية السياسية للحكم المملوكي على عدة محاور، كان أهمها وأبرزها:

أ. الصبغة الدينية للحكم، وذلك بتحالف المماليك مع علماء الدين الإسلامي، وإظهارهم تمسكاً شديداً بالدين واهتماماً بالأماكن المقدسة والإكثار من الأبنية التعليمية والدينية، وقد نالت القدس من هذا حظاً وافياً[٢].

ب. القوة العسكرية لإثبات الكفاءة، واتخاذ الجهاد وسيلة لإشعار الشعب بضرورة وجودهم لحماية البلاد[٣].

فلقد كان المماليك محرجون بسبب أصلهم المملوكي، والنظرية السياسية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الحاكم حراً[٤]، ويروى بأن المعاصرين لحكم المماليك استاؤوا وتذمروا منهم بعد انقلابهم على ساداتهم الأيوبيين، فأهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يُسمعونه ما يكره، حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون :(لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة)[٥]، ومن جهة ثانية فلقد ظهر المماليك بمظهر من اغتصب الحكم من ساداتهم الأيوبيين[٦]، ولتجنب هذه المعضلة ومحوها من ذاكرة المعاصرين، نجد أن السلطان الظاهر بيبرس وبعملية سريعة يقوم بتنصيب أحد أفراد البيت العباسي واسمه (أبو العباس

---

[١] عاشور، بعض أضواء جديدة، ج١، ص٨٤.

[٢] زكار (سهيل): فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، ج٢، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، م٢، (د.ت)، ص٥٤٤.

[٣] عاشور: المرجع المتقدم، ص٨٤ وما بعدها.

[٤] عبده قاسم (قاسم): دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ص ١١.

[٥] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٢.

[٦] عاشور: المرجع المتقدم، ص٩٩.

أحمد) خليفةً في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، وبعد مبايعته بالخلافة من قبل الخاصة والعامة، قام بتقليد السلطان الظاهر بيبرس (البلاد الإسلامية، وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار)[١].

وبذلك حصل السلطان الظاهر بيبرس ومن سيخلفه على شرعية الحكم من قبل الخلافة الإسلامية – وهي أعلى سلطة شرعية في الإسلام – مفوضين منها بحكم المسلمين، وأصبحت مصر بذلك مقر الخلافة الإسلامية، وظهر المماليك أمام العالم الإسلامي بمظهر المدافعين عن الخلافة، وألقى هذا على المماليك مسؤوليات كبيرة لرفع راية الإسلام والدفاع عنه وإحياء شعائره ورعاية مقدساته، وفي الحقيقة إن سلطة الخليفة كانت شكلية، وجميع الأمور كانت بيد السلطان، والخليفة ليس له من الأمر شيء، ويؤكد أحد الباحثين بأن (أهم مظاهر السيادة التي تمتع بها الخلفاء العباسيون في مصر ثلاثة، وهي: السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعياً، وذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة، ونقش اسمه على السكة)[٢]، وبعد عهد الظاهر بيبرس لم يعد يسك اسم الخليفة على العملة مع أنها من شعائر الخلافة، وكان الدعاء في المساجد للخليفة ثم للسلطان باستثناء مسجد القلعة، فإن الدعاء فيه كان للسلطان ثم للخليفة، وما بقي للخلفاء في مصر هو لبس البردة ومسك القضيب[٣].

هنا أصبح على المماليك إثبات أنهم أهل لهذه المسؤولية، وذلك بالجهاد والعمل على حماية البلاد والعباد في وقت أطبقت فيه المحن والمخاطر على المسلمين من معظم الجوانب، فما زالت إمارات الصليبيين قائمة على أرض المسلمين تهددهم بين الفينة والأخرى من الغرب، والمغول المتحالفين مع

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٥٠.

– أبو شامة: الذيل على الروضتين، نشر دار الجيل، بيروت ، ط٢، ١٩٧٤م، ص٢٣٠.

[٢] حسن (علي): تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط٢، ١٩٤٨م، ص٢٠٧.

[٣] ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ج١، ص٣٤.

الصليبيين قائمون على نهر الفرات ينتهزون الفرص للانقضاض على المسلمين من الشرق، وفعلاً أثبت المماليك أنهم أهلٌ للمسؤولية، فأوقفوا الزحف المغولي، وتمكنوا من اقتلاع ما تبقى من معاقل صليبية في بلاد الشام، وقام المماليك بوضع الشام بما فيها القدس تحت سيطرتهم التامة لتُحكم دمشق والشام من قبل القاهرة، وهذا أمر (أي حكم دمشق من قبل القاهرة) فيه ما ينبئ عن قوة حكم المماليك، وعلى هذا يمكن الحديث عن وضع ساد فيه الأمن والاستقرار في القدس وغيرها من البلاد التي خضعت لحكم المماليك – تحت إدارة قوة عسكرية – خلّصت البلد مما كان فيه بإبعاد المخاطر الخارجية والعمل على استتاب الأمن داخلياً، فقد أشاع الحكم المملوكي قسطاً من الاستقرار والسلام في المنطقة، وهو ما أتاح للقدس أن تزدهر، وأتاح لشخصيتها الإسلامية أن تتطور تطوراً كبيراً.

ومن مظاهر الاهتمام المملوكي بمدينة القدس ما أنبأت به الوثائق، ونذكر منها بعض ما أصدره السلاطين المماليك من مراسيم تهتم بمدينة القدس وتنص على تأمين الدعم المالي لصيانة المدينة ورعاية منشآتها الدينية والاجتماعية، (وسنقتصر هنا على المراسيم التي وردت في وثائق الحرم القدسي) ومن أقدم هذه المراسيم المرسوم الذي تضمنته الوثيقة رقم٣٤ المؤرخة في العشر الأخير من جمادى الأولى ٦٦٤هـ/٢٨ شباط إلى ٨ آذار ١٢٦٦م وهو مرسوم من السلطان الظاهر بيبرس يأمر فيه بأن تظل أراضي قرية العوجا[1] وقفاً للقدس والحرم القدسي الشريف[2]، والوثيقة رقم ٨ المؤرخة في ٣ رجب ٧٠١هـ/ ٤آذار عام ١٣٠٢م هي أمر سلطاني من السلطان الناصر محمد بن قلاوون

---

[1] قرية العوجا: تقع شمال شرقي مدينة أريحا بالقرب من عين العوجا. انظر، شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٥٠.

[2] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١٧٧-١٧٩.

يوصي فيها بأوقاف الحرمين الشريفين (القدس والخليل)[١]، والمرسوم الذي أصدره السلطان الأشرف شعبان والذي وصلنا في الوثيقة رقم ٦ المؤرخة في ٤ جمادى الآخرة سنة ٧٦٦هـ/٢٦ شباط ١٣٦٥م نصَّ على إبطال جوالي[٢] قرية مجدل فضيل[٣]، لدفع رواتب خدم الحرم الشريف في القدس[٤]، وللملك الظاهر جقمق مرسومين، الأول وصلنا في الوثيقة رقم ٣٠٨ المؤرخة في ١٨ ذو القعدة ٨٤٤هـ/١٠ نيسان ١٤٤١م الذي قضى باستمرار وقف للمسجد الأقصى وتعيين وكلاء لإدارته[٥]، والثاني جاء في الوثيقة رقم ٣٠٤ المؤرخة في ١٧ محرم ٨٥٠هـ/ في ١٤ نيسان ١٤٤٦م ونص أيضاً على أوقاف للمسجد الأقصى[٦]، وتضمنت الوثيقة رقم ٣٠٩ المؤرخة في ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦١هـ/ ٨ نيسان ١٤٥٧م، مرسوماً من الملك سيف الدين أينال يأمر بأن الدخل المتحصل من بيع الحاجات في دار الوكالة[٧] يعود إلى وقف المسجد الأقصى[٨]، وهناك مرسوم سلطاني آخر صادر من السلطان خشقدم ورد في الوثيقة رقم ١ المؤرخة في ربيع الآخر سنة ٨٦٦هـ/ كانون الثاني

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١٨١.

[٢] جوالي: جمع جالية وهي ما يأخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٢.

[٣] مجدل فضيل (مجدل بني فاضل): تقع جنوب شرقي نابلس على بعد ٢٣كم . انظر، شراب : معجم بلدان فلسطين، ص ٦٤٨.

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص١٨٣.

[5] Little A catalogue, p. 34 , 35 .

[6] Ibid, p. 34.

[٧] دار الوكالة: وهي خان عظيم تباع فيه أصناف البضائع، وكانت دار الوكالة وقفاً على مصالح المسجد الأقصى تؤجر في السنة بنحو ٤٠٠ دينار، وحالياً تعرف (خان السلطان)، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٢، العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، ص٣٩.

[8] Ibid, p. 35.

١٤٦٢م ينص على أن المتحصل من جوالي قرية طيبة لسم[١] يُصرف على مصالح الصخرة الشريفة[٢].

لقد كان المماليك يسعون من خلال هذه الأعمال إلى إضفاء الشرعية على حكمهم عبر دعم القدس كمنطقة إسلامية مقدسة لها مكانتها في قلوب المسلمين.

٣- الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي:

عاشت القدس في ظل حكم المماليك حياة مستقرة، إذ أنها لم تشهد اضطرابات عسكرية أو سياسية، ومن الناحية الجغرافية هي مدينة داخلية جبلية[٣]، فالأمر لا يستدعي ــ من الناحية العسكرية الدفاعية ــ الالتفات إليها، فحمايتها العسكرية ــ إن وجدت فيها حامية ــ صغيرة[٤].

ولم تشهد القدس في عصر المماليك اضطرابات داخلية وثورات عسكرية، ويبدو أن المدينة لم تشارك في الحركات التي قامت ضد المماليك البحرية (الأتراك) والتي انتهت بسيطرة المماليك البرجية (الشراكسة)[٥]، وشكل الأمن والاستقرار هذا الذي نعمت به القدس في عصر المماليك عاملاً مهماً من عوامل النمو والتزايد السكاني، لم يكن من الممكن الاستغناء عنه حتى في أي

---

(١) طيبة لسم: تقع جنوب طولكرم على بعد ٥كم. انظر، شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٥٠٨.

(٢) العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٨٩.

(٣) خسرو (ناصر خسرو القبادياني، ت ٤٨١هـ/١٠٨٩م): سفر نامة، تر: أحمد خالد البدلي، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٥٣-٥٤.

(٤) يذكر ليتل أنه لم يجد في المصادر ما يدل على وجود حامية عسكرية في القدس. انظر:

Little, (Donald P.): (Relations between Jerusalem and Egypt during the Mamluk Period According to Literary and Documentary Sources) in Egypt And Palestine: A Millenium of Association (868-1948) Jersalem: Ben-Zvi Institute, 1984, p91.

في حين يذكر أحد المؤرخين أنه كان في القدس حامية صغيرة. انظر:

Drory (joseph): Jerusalem during the Mamluk Period (1250-1517),Symposium :Muslim Literature in Praise of Jerusalem. Jerusalem :Yed Ishak Ben-Zvi,1981),P.196.

(5) Lutfi, (Huda): A Study of Al-Quds during the Late Fourteenth Century Based Primarily on the Haram Esate Inventories and Related Documents. Berlin: Klaus Schwarz Verlag, 1985, p.11.

مدينة تريد أن تتطور اجتماعياً أو علمياً أو حتى عمرانياً واقتصادياً، وسيشكل هذا العامل مع عوامل أخرى – ستذكر فيما بعد – سبباً في جذب المهاجرين واللاجئين من شرق وغرب العالم الإسلامي والذين افتقروا إلى هذا العنصر.

وكان من عوامل النمو السكاني وجذب المهاجرين واللاجئين الجدد، الرخاء الاقتصادي، فمن خلال ما ورد في وثائق الحرم من وثائق جرد الممتلكات، ووثائق بيع وشراء وحصر إرث، ومن خلال ما ورد في مشاهدات الرحالة، بالإضافة إلى ما ورد في المصادر التقليدية، يمكن الحديث عن حياة اقتصادية هنية عاشها أهل القدس في عصر المماليك.

فبالنسبة للزراعة: لم تكن أراضي القدس أراضٍ زراعية، وإنما كانت ذات طبيعة جبلية صخرية[١]، أما الموارد المائية؛ فلم يكن هناك ماءٍ جارٍ ولا مصدر للماء سوى ما يُختزن بعد هطول الأمطار ليستخدم كذخيرة لسقيا المدينة[٢] التي كانت تفتقر إلى الماء[٣]، ومعدل الأمطار فيها يبلغ سنوياً حوالي ٦٠٠ ملم موزعة على طول فصل الشتاء، وهذه نسبة غير كافية لزراعة ناجحة[٤]، كما أنها نفسها ترتفع عن سطح البحر ٨٩٢ قدم[٥]، وهذا يعرضها لرياح قوية تضر بالزرع.

وبالرغم من قلة المياه فقد توفر في القدس بعض المنتجات الزراعية، من أهمها شجرة الزيتون[٦]، وهي من النوع الأكثر احتمالاً لقسوة المناخ،

---

[١] خسرو: سفر نامة، ص٥٣.

[٢] فابري (فيلكس): رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ج٤٢، ص١٠١٨.

خسرو: المصدر المتقدم، ص٥٤.

(3) Gucci And Sigoli : (Visit to Holy), p. 180.

(4) Amiry (M.A.) : Jerusalem , Arab Origin and heritage. London , 1984, p.8.

[٥] زايد (عبد الحميد): القدس الخالدة ، دار الكتب المصرية، ١٩٧٤م، ص١٣-١٥.

[٦] خسرو: المصدر المتقدم، ص٣٥.

والعنب[١]، و(الأترج[٢] واللوز والرطب والجوز والتين والموز)[٣]، ومن أهم المحاصيل على الإطلاق القطن[٤]، إذ نلاحظ أنَّ أكبر الفئات المهنية تمثيلاً في وثائق الحرم هم المشاطون والغزالون والحياكون- انظر جدول المهن الآتي -، وكان إنتاج القمح فيها ضعيفاً، مما دفع سلاطين المماليك في القاهرة إلى إرسال كميات كبيرة منه في بعض الأوقات إلى كل من القدس والخليل[٥].

وتوافرت في القدس العديد من المناطق الزراعية في أطراف المدينة وحولها من تلال وأودية وقرى ذات موارد مائية جيدة وأراض زراعية خصبة، كانت تمد القدس بما تحتاجه من منتوجات زراعية، ويكفي هنا أن نذكر سوق (عرصة الغلال) التي كانت تقع قرب باب الخليل[٦]، وهي ساحة أو ميدان واسع كان الفلاحون والقرويون يجلبون إليها غلاتهم لبيعها للتجار والأهالي المقدسيين، وكانت تتم فيها مقايضة منتوجات الفلاحين من حبوب وفواكه وخضروات وألبان وأجبان وزيت وتين مجفف وجوز ولوز.... الخ بسلع مختلفة[٧].

أما الصناعات: فكان يأتي في مقدمتها إنتاج زيت الزيتون[٨]، ومن ثم صناعة الصابون الذي كان يُصدّر إلى المدن المجاورة مثل يافا ــ فرضة بيت

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٨١.

[٢] نوع من الحمضيات ذو قزة غليظة. انظر، دهمان (محمد أحمد): معجم الألفاظ التاريخية في عصر المماليك، دار الفكر المعاصر، بيروت-دمشق، ١٩٩٠م، ص١٢.

[٣] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٤٤.

(4) Ashtor: Asocial And Economic Histore Of The Near East In the Middle Ages, iondon, 1976 ,P. 300

[٥] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٩٧-٩٩.

[٦] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٥٣.

[٧] غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص٨٣.

[٨] خسرو: سفر نامة، ص٥٣.

الحسن (أحمد يوسف): التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، بحث ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في العصور الوسطى، تحرير هادية وبرهان ديجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٤٠.

المقدس على البحر[١]ـ وكان يُصدّر منها إلى مصر والبلدان المختلفة، وقد استوعبت صناعة الصابون عدد كبير من الأيدي العاملة في القدس[٢]، ومن خلال وثائق الحرم القدسي الشريف نرى أن العائدات من صناعة الصابون وعصر الزيوت كانت عائدات مربحة، ومن الصناعات التي اشتهرت بها القدس المنسوجات القطنية والحريرية[٣]، فكثيراً ما نقرأ في الوثائق عن مهن متصلة بذلك (النسّاج، القطّان، الغزّال...الخ)[٤]، وللمقادسة شهرة في صناعة التحف والأثريات وأدوات الزينة[٥]، حيث كانت تلاقي إقبالاً من الحجاج وكثيراً ما يرد في الوثائق (السقطيون) وهم بائعوا التحف والأثريات، و(الخرضواتيون) وهم بائعوا حاجات صغيرة متنوعة، بالإضافة إلى صناعة الزجاج والمشغولات الذهبية – انظر جدول المهن الآتي – وصناعة السلال من سعف النخيل[٦]، وعرفت مدينة القدس صناعة المشغولات الفضية والتي يذكرها ابن شاهين بقوله: (يعمل فيها الفضة ميناء تجلب منها إلى سائر البلاد)[٧] وما يدعم هذا القول وجود سوق الصاغة في القدس[٨].

---

(١) الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي، ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج١، ص ٣٦٤.

(٢) السيد علي (علي): القدس في عصر المماليك، دار الفكر، القاهرة-باريس، ط١، ١٩٨٦، ص١٩٩.

(٣) الحسن: التقانة في فلسطين، ص ٥٤٢-٥٤٣.

(٤) انظر الوثائق: ٣٥ و١١٩ و١٥٦ و١٦٢ و٣٧٦.

Little : A Catalogue ,p. 255, 70, 79, 82, 101.

(٥) عاشور: بعض أضواء جديدة، ج١، ص١٠٨.

(٦) العارف: تاريخ القدس، ص٢١١.

(٧) ابن شاهين (خليل بن شاهين الظاهري، ت٨٧٣هـ / ١٤٦٨م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راديس ، طبع بمدينة باريس بمطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م، أعاد نشره دار العرب للبستاني، القاهرة،١٩٨٨- ١٩٨٩ ، وأعاد تصحيحه توفيق نسيم، ص٢٣.

(٨) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٢.

وتشير المهن الكثيرة الواردة في وثائق الحرم إلى نوع الأنشطة الاقتصادية التي كان السكان يمارسونها وإلى أحوالهم بشكل عام، ومن أهم هذه المهن[1].

المهنة	الوثيقة	المصدر	الصفحة
الصايغ	٣٠١	Little : A Catalogue	٣٧
الحدّاد	٤٧٠	Little : A Catalogue	١٢٥
القطّان	٣٧٦	العسلي: وثائق، المجلد الأول	٢٦٥
النسّاج	٦٣٥	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	٣٤
الجوخي (تاجر القماش)	١٦٣	العسلي: وثائق، المجلد الأول	٢٦٧
الصوّاف	٣٥	العسلي: وثائق، المجلد الأول	٢٧٦
الدكّاني	٤٩٤	صالحية: من وثائق الحرم	١١٠
النسّاخ	٤٩٤	صالحية: من وثائق الحرم	١١٠
الزردكاش (العامل الذي يعمل في دار السلاح ويصنع الزرد- الدروع المزرودة)	٦١٣	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	١٤٢
الجرايحي (الطبيب الجراح)	٦٤٢	العسلي: وثائق، المجلد الأول	٢٢٥
القفّاص (صانع الأقفاص)	١٨٦	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	٩٢
الجمّال	٦٠٩	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	٥١
السقّاء	٣٦٧	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	٢٥
الطحّان	١٩٩	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	٨٧
القصّاب	٣٣٦	العسيلي: وثائق، المجلد الثاني	٢٨٠
الخبّاز	٦٢١	Little : A Catalogue	٢٩٣
السنبوسكي (فطائر اللحم الشعبية)	١٩٥	Little : A Catalogue	٢٢٧
الزيّات	٤٩٧	Little : A Catalogue	١٨١
البقّال	١٠٩	Little : A Catalogue	٣٢٦

[1] سنكتفي بذكر مثال واحد فقط عن كل مهنة وذلك لكثرة الأمثلة.

المهنة	الوثيقة	المصدر	الصفحة
السمّان	٦١٨	Little : A Catalogue	١٧٩
السمّاك	١٩٦	Little : A Catalogue	٢٢٨
البنّاء	٥٥٠	Little : A Catalogue	١٤١
الحفّار	٥١٠	Little : A Catalogue	١٣٢
الفاعل	٤٦٨	Little : A Catalogue	١٢٥
السقطي (بياعو التحف والأثريات)	٢٧٧	Little : A Catalogue	٢٣١
الدبّاغ (الذي يدبغ الجلد)	٣٩٠	Little : A Catalogue	١٠٥
الدلاّل	٦٣٨	Little : A Catalogue	١٥٠
المعصراني (الذي يعمل بعصر الزيت وسواه)	١٧١	Little : A Catalogue	٨٤
الحبّال (الذي يصنع الحبال)	٢٢٨	Little : A Catalogue	٨٦
الحمّال (العتال)	٣٧٧	Little : A Catalogue	١٠١
الأدمي (صانع الأحذية)	٣٢٦	صالحية: من وثائق الحرم	٦٠
البلانة (عاملة الحمامات)	٦٢٧	Little : A Catalogue	١٨٢-١٨٣
الخيّاط	٢٠١	العسلي: وثائق، المجلد الثاني	٩٠
العطّار	٣٤٤	Little : A Catalogue	٢١١

وتدل هذه الوثائق دلالة واضحة على أن حياة سكان بيت المقدس كانت نشطة، وتتوضح هذه الصورة أكثر عندما نتحدث عن التجارة والأسواق التجارية والصناعية والخانات، فمن أهم المظاهر والتي تأخذ بعين التقدير على أنها من مقاييس قوة الاقتصاد أو ضعفه، كثرة الأسواق والخانات أو قلتها، ويكفي القول هنا بأن القدس كانت حافلة بالأسواق العامة والأسواق التخصصية والخانات، بالرغم من أنها كانت لا تقع على أي من الطرق التجارية العالمية الرئيسية، وأغناها عن ذلك مكانتها الدينية وقصد الحجاج والزوار لها من الشرق والغرب، وأهم هذه الأسواق: سوق العطارين، سوق الخضر، سوق

الصاغة، سوق القماش، سوق القطانين، سوق القشاش، سوق الزيت، سوق المبيضين، سوق خان الفحم، سوق الطباخين[١]، سوق الملابس، سوق اللحوم، سوق الدجاج، سوق السمك، سوق الحمير[٢].

وأوردت الوثائق المتوافرة بين أيدينا الأسواق التالية (لم ترد في مصدر سابق):

سوق البيمارستان الصلاحي (الوثيقة رقم ٦١٨)، سوق الخلع (الوثيقة٥٢٥ والوثيقة٧٢٥)، سوق باب السلسلة (الوثيق ٤١٧مع ذكر الدكاكين الموجودة فيه) سوق الصلاحية (الوثيقة٣٤٤)، سوق القطن (الوثيقة ٣٨٥)، سويقة حارة اليهود (الوثيقة ٥٢٤)، سويقة باب حطة (الوثيقة ١٧٢ والوثيقة٢٤٨)، خان السمك (الوثيقة١٩٦)[٣].

ويوجد إلى جانب الأسواق ما عرف باسم القيساريات، وهي عمائر تجارية مسقوفة غالباً، ذات دكاكين خاصة ببضاعة معينة أو عدة أنواع من البضائع، وكانت أبواب هذه العمائر تقفل ليلاً ويُعيّن لها حراس[٤]، وقد ورد ذكر هذه القيساريات في الوثائق، فعلى سبيل المثال ورد في الوثيقة رقم ٣٥ المؤرخة في ٤ ربيع الآخر سنة ٧٧٨هـ/ ٢١ أب ١٣٧٦م (دار الشواني التاجر بقيسارية القدس)[٥]، وقد ذُكر سابقاً سوق عرصة الغلال والعمليات التجارية التي كانت تقوم بها.

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٠-٥٣.

[٢] روثلين: ذيل روثلين (تكملة روثلين لتاريخ وليم الصوري ويعرف بذيل روثلين ، وضع عام ١٢٦١م) من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، الجزء الثامن والخمسون(لم ينشر بعد)، ص١٧٩١، ١٧٩٣، ١٧٩٦.

[3] Little: A Catalogue, p. 179, 136, 156, 111, 211, 104, 136, 84, 90, 228.

[٤] العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، ص٣٩.

[٥] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٧٦.

ووجد بالإضافة إلى هذه الأسواق العديد من الخانات داخل وخارج القدس، والخان كلمة فارسية معناها مخزن البضائع[1]، ثم أصبحت تعني الفندق الذي يستخدمه التجار للراحة وقضاء أعمالهم، وقد نشطت هذه الخانات في عصر المماليك، حتى بات عددها وحجمها معياراً للنشاط الاقتصادي للمدينة أو المنطقة التي أقيمت فيها.

ومن أهم هذه الخانات في القدس[2]:

الخان	الموقع
خان السلطان (وكان يعرف في عصر المماليك باسم دار الوكالة)	طريق باب السلسلة
خان الغادرية	سوق القطانين
خان تنكز	سوق القطانين
خان القطانين	سوق القطانين
خان القاضي فخر الدين بن نسيبة	قرب درج العين
خان الفحم	طريق باب السلسة
خان المصرف	أعلى طريق باب السلسة
خان الشعارة	سوق الحصر
خان الزيت	سوق باب خان الزيت
خان الجبيلي	حارة القرمي (حارة حمام علاء الدين)
خان الجاولي	
خان العناية	باب حطة
خان الظاهر	خارج القدس قرب قرية لفتا
خان بني سعد	حارة سعد وسعيد بظاهر القدس القديمة

---

(١) العسلي: من آثارنا، ص٣٩. زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص٥٩٨.

(٢) المصدر الرئيس لهذه الخانات كتاب الأنس الجليل لمجير الدين الحنبلي، ولمزيد من التفاصيل عن هذه الخانات يمكن العودة إلى العسلي، من آثارنا: ص٣٩-٩٦. وعن مواقعها انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٩).

لقد دلت هذه الأسواق والخانات على النشاط التجاري للمقادسة، فكثيراً ما نقرأ في وثائق الحرم القدسي الشريف: (التاجر، التاجر السفار، المكاري...)[١]، كما ويتبين لنا من وثائق الحرم – وخاصة وثائق حصر الممتلكات والإرث والتي تقوم بوصف الأثاث المنزلي الذي استخدمه المقادسة وصفاً دقيقاً – أن المقادسة كانوا يستخدمون أشياء مستوردة من أماكن بعيدة، فمن خراسان وتركيا والشوبك استورد المقادسة البسط[٢]، ومن اليمن وحوران السجاجيد[٣]، والنطوع الجلدية من اليمن ومكة وطرابلس[٤]، ومن الإسكندرية الحرير ومن البندقية القمصان[٥].

وهناك العديد من الأمثلة على فعالية حركة التجارة الخارجية، ففي الوثائق إشارات وأدلة على وجود تجار أجانب في القدس وخصوصاً تجار القماش، وهناك إشارات إلى تجار الحرير والقطن[٦]، وكان وجود هؤلاء أمراً غير مستغرب نظراً لوجود سوق القطانين الكبير الملاصق للحرم[٧].

وكانت البضائع المستوردة تصل إلى القدس من ثلاثة وعشرين مكاناً تتجاوز حدود دار السلام إلى بلاد الفرنج[٨]، ويبدو أن علاقة القدس مع المدن التجارية الإيطالية ــ التي كانت تملك اقتصاد أوربا آنذاك ــ كانت جيدة، ففي سنة ٨١٨هــ/١٤١٥م أقيمت قنصلية للبنادقة في القدس لرعاية شؤون رعاياها،

---

[١] من هذه الوثائق: الوثيقة ٦٠ و٥٣ و١٨٥ و٧٢٠ و٤٣٦ و٤٤١ و٢٠. انظر، صالحية: من وثائق الحرم، ص٤٩. وانظر أيضاً:

Little: ACatalogue, P. 64, 117, 118, 155, 193, 199.

[٢] انظر، الوثيقة ٥٩٥ المؤرخة في ٧٨١هــ/ ١٣٧٩م، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٣٧.

[٣] صالحية: المرجع المتقدم، ص٣٤.

[٤] انظر الوثيقة: ٥٠٣، صالحية: المرجع المتقدم، ص١٠٥، والوثيقة ٣٠١، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٨. والوثيقة ١٣٦ العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٧،.

[٥] الوثيقة ٣٠١ ، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٧–٣٨.

[6] Lutfi: A Study, p. 423 - 424

[٧] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٠، ٥٣.

[8] Ibid, P.296.

وفي عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م أقيمت فيها قنصلية أخرى للجنوية[١]، ناهيك عن السفارات والتي يضيق المجال هنا لذكرها، وحصل أهل القدس على أرباح جيدة من خدمة الحجاج والزوار الذين يحتاجون إلى الطعام والسكن والأدلاء والنقل والهدايا التذكارية، والذين كانوا يدفعون رسوماً وضرائب أثناء إقامتهم[٢]، فقد كان يزور القدس سنوياً حوالي عشرون ألف حاج مسلم فضلاً عن الحجاج من الديانات الأخرى[٣]، ويكشف استخدام العملات الإيطالية التي ورد ذكرها في الوثائق على حجم التبادل الذي كان قائماً مع الإيطاليين من تجار وحجاج[٤]، ومن أهم الدلالات التي تشير إلى حياة اقتصادية ميسرة وسهلة عاشها أهل القدس، ما تم لمسه في وثائق الحرم القدسي الشريف، وهو أن التعامل بالدرهم (العملة السهلة) كان سائداً وشائعاً أكثر بكثير من التعامل بالدينار (العملة الصعبة)[٥].

على الرغم من كل ما ذكر فإن القدس أصابتها – مثلها مثل بلاد الشام ومصر– أزمات اقتصادية متعددة، ففي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م حصلت أزمة اقتصادية رافقها مرض وبائي عم جميع أنحاء المملكة من مصر إلى بلاد الشام

---

[١] الإمام (رشاد): مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦، ص ٢٨٢.

[٢] ليتل: القدس في التاريخ، ص٢٢٣.

- رونثلين: تكملة الحروب الصليبية، الموسوعة الشاملة، ج٥٨، ص١٧٩٦.

[٣] خسرو: سفر نامة، ص٥٣.

- زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص٥٩٨.

[٤] من هذه الوثائق: الوثيقة١٩٧، العسلي: وثائق مقدسية, ج٢، ص٤٢.

Lutfi: A Study, P.P. 285-286.

[٥] من الوثائق التي ورد فيها ذكر استخدام الدراهم: ٣٧٦، ٢٢، ٤٦، ٣٨٢. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص ٢٤٨، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٥٢. وهناك العديد من الوثائق التي أشارت إلى استخدام الدراهم، بينما تلك التي أشارت إلى استخدام الدينار قليلة جداً.

بما فيها بيت المقدس[١]، فبلغت الغرارة[٢] من القمح مئتين وعشرين درهماً، وبلغ سعر الشعير نصف هذا المبلغ، وبلغ سعر رطل[٣] اللحم عشرة دراهم[٤]، وفي عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م (أجدبت أرض بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر)[٥]. وكان للأزمات الاقتصادية أثرها على المدينة بحيث يعم الغلاء وتهلك من البهائم ما لا يحصى، ويفتقر أكثر الأغنياء، مما يجعلهم نهباً للمرض والأوبئة المختلفة والفتاكة بالوقت نفسه[٦]، ويذكر مجير الدين أنه في سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م فشا الغلاء في جميع أنحاء المملكة، واشتد الأمر في بيت المقدس، وفي أواخر تلك السنة وصل سعر مد[٧] القمح

---

[١] المقريزي: السلوك ، ج١، ق٣، ص٨٠٨- ٨١٠.

[٢] الغرارة: مكيال دمشقي للحنطة وتعني حرفياً (العِدْل من صوف أو شعر)، وكانت الغرارة في دمشق تساوي ٢٠٤,٥ كغ أو ٢٦٥ لتر، بينما كانت في القدس كل ٣ غرائر دمشقية تساوي حوالي ٦١٣,٥كغ قمح أو حوالي ٧٩٥ لتر. انظر، هنتس (فالتر): المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط١، ١٩٧٠م، ط٢، (د.ت)، ص٦٤.

[٣] الرطل هو أكثر وحدات الوزن استعمالاً في المشرق العربي كان يساوي في القدس في العصور الوسطى ٢,٥ كغ، وفي القرن التاسع عشر كان يساوي ٢,٨٨٦ كغ، أما في دمشق كان يساوي في العصور الوسطى ١,٨٥ كغ، وفي مصر ٤٣٧,٥ كغ. انظر، هنتس: المرجع المتقدم، ص٣٠-٣٣.

[٤] المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢ ،١٩٥٧م، ص٣٤.

[٥] المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦٠٩، حوادث سنة ٨٢٥.

[٦] كما حدث في عام ٨٢٩هـ/١٤٢٤م. انظر، ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفي، ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ج٢، ص١٠٤.

[٧] المد الشرعي يساوي ١,٠٥ لتر، وكان يساوي في القدس ٢٤ صاعاً أي حوالي ١٠٠ لتر. انظر، هنتس: المرجع المتقدم، ص٧٤-٧٥.

بالقدس إلى ثلاثين درهماً، ومد الشعير إلى اثني عشر درهماً، والخبز كل رطل بأربعة عشر درهماً، وكان الغلاء عام في جميع أنحاء المملكة(١).

ومن مظاهر ازدهار الحياة في القدس، الوقف، وما كان يقدمه من خدمات اجتماعية ودينية واقتصادية وثقافية.

والوقف لغة: يعني الحبس والمنع(٢)، والوقف والتحبيس والتسبيل بمعنى واحد، ويقصد به تلك الأراضي والمنشآت التي كان يخصصها المسلمون لأغراض دينية أو للمجاهدين والفقراء، أو لليتامى وفك رقاب العبيد، أو لبناء المساجد والحصون والمشافي والمدارس والزوايا والأربطة والخانات وغيرها من المنافع العامة(٣).

والأوقاف على نوعين:

أ. الوقف الذري: وهو الذي يختص بالأهل والذرية، بأن يوقف الواقف أملاكه على ذريته.

ب. الوقف الخيري: أي يحبس على جهة من جهات الخير والبر(٤).

ووجد في القدس العديد من المؤسسات العامة التي أوقف عليها المسلمون الأوقاف العديدة، وكان ريع تلك الأوقاف يرصد للنفقة على تلك المؤسسات، وشكل هذا دخلاً جيداً للقدس، وكان له أثره على الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والثقافية والدينية في المدينة ــ وسنأتي على ذكر ذلك لاحقاً ــ،

---

(١) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٣٧- ٣٣٩.

(٢) الجوهري (اسماعيل بن حماد، ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م): الصحاح ، تح: أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت)، ج٣، ص٩١٥.

(٣) غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١٠٧.

(٤) إبراهيم (عبد الغفار): أحكام الميراث والوصية والوقف الإسلامي، القاهرة، (د. ت)، ص٢٢٦-٢٢٧.

وأوردت العديد من وثائق الحرم نصوص أوقاف أوقفها العامة والخاصة لأغراض إنسانية[١].

٤- المهاجرون من شرق العالم الإسلامي وغربه:

إن ما نعمت به المدينة المقدسة في بداية عصر السلاطين المماليك من أمن واستقرار ورخاء اقتصادي، كان من شأنه أن يشكل عامل جذب للمهاجرين الذين افتقروا لهذين العنصرين، بالإضافة إلى العلم، فمعظم الذين هاجروا من شرق العالم الإسلامي وغربه قد وجدوا ضالتهم في مدينة القدس، وخاصة بعد الاجتياح المغولي لبلدان المشرق الإسلامي، فما ارتكبه المغول من مذابح رهيبة دفعت بالمسلمين الذين رغبوا بالعيش في ظل حكم إسلامي إلى ترك العراق والبلدان الإسلامية الشرقية متجهين نحو بلاد الشام[٢]، إما طلباً للعلم أو بسبب ما تمتع به سكان هذه البلاد من رخاء تحت حكم المماليك، وكثير ممن هاجر من الشرق إلى بلاد الشام تحت الضغط التتاري قد استقر في القدس لكونها مركز ديني مهم، وباشروا فيها كثيراً من الوظائف الدينية مثل تولي القضاء أو مشيخة بعض الخوانق والمدارس[٣].

ووصل القدس أيضاً الكثير من أهل المغرب الإسلامي وعلمائه الذين هاجروا لأسباب عديدة: فمنهم من هاجر بغية طلب العلم[٤]، إذ احتفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء لمئات من رجال الدين والعلم والأدب الذين رحلوا من الغرب إلى الشرق لطلب العلم، فكان الشرق محط أنظارهم وخاصة القدس،

---

(١) منها الوثائق: ٣٤ ، ٨ ، ٦، ٣١١، ١، ٨٣٣، ٣٦، ٢٢. انظر،
العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٧٧، ١٨١، ١٨٣، ١٨٧، ١٩٠، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٦١١، ١٠٢٩.
Ashtor: Asocial, p.288.

(٣) يلاحظ ذلك من ترجمة شيوخ وقضاة بيت المقدس في عصر المماليك التي قدمها مجير الدين في الأنس الجليل، ج١، ص٣٠١، ٣٠٢. ج٢، ص٢١٠، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٥٢-٢٥٥.

(٤) التازي (عبد الهادي): أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة-المحمدية (المغرب)، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٥.

فيتحدث ابن خلدون في مقدمته شارحاً سوء الأوضاع التعليمية في المغرب بقوله: (وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس .... فلما خربتا انقطع التعليم في المغرب إلا قليلاً كان من دولة الموحدين... وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب العربي خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم)[1]. فوجدوا في القدس ضالتهم، وفي ذلك يذكر المقري صاحب كتاب (نفح الطيب) عن نفسه أنه (لما حللت بيت المقدس عرفت به مكاني من الطلب)[2].

ويدلنا على كثرة هؤلاء المغاربة في القدس تسمية حي خاص باسمهم أُوقفت عليه العديد من الأوقاف[3]، - وسنقدم دراسة في الفصل الثاني عن هؤلاء المغاربة وعن أسباب هجرتهم وعن نشاطهم في القدس -.

ومن أسباب الهجرة: الحركة العلمية النشطة التي شهدها بيت المقدس في ذلك العصر، فلقد بلغت الحركة العلمية فيه أزهى أدوارها، وقد أكثرت كتب التراجم من ذكر العلماء الذين عاشوا في القدس في عصر المماليك، ومارسوا

---

(1) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت ٨٠٨هـ/١٤٥٠): المقدمة ، ضبط الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر ، بيروت، ط٢. ١٩٨٨م، ص٥٤٤ -٥٤٦.

(2) ابن العماد (شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي، ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط ، إشراف عبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٨، ص٣٣٤.

(3) التازي: أوقاف المغاربة، ص١١ وما بعدها.

- الطيباوي (عبد اللطيف): حائط البراق والأوقاف الإسلامية في غربة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الخامس والخمسون، الجزء الثاني، جمادى الثانية ١٤٠٠هـ/نيسان ١٩٨٠م، ص ٢٦٦-٢٨٧.

نشاطات متعددة، فمنهم من تسلم المناصب، ومنهم من ساهم في النشاط العلمي وقدم العديد من المصنفات[١].

وإن ما تمتعت به القدس من ثراء ونشاط وأمن ظهر جلياً في المؤسسات والمنشآت التعليمية والخيرية والاجتماعية والدينية، فقد شيد سلاطين المماليك من المدارس (ما ملأ الأخطاط وشحنها)[٢]، وأحصى مجير الدين ما ناف على أربعين مدرسة في بيت المقدس[٣]، في حين أحصى بعض المؤرخين عدد المدارس التي بنيت في القدس في عصر المماليك فبلغت زهاء خمسين مدرسة من معاهد ومدارس إضافة إلى المدارس التي ورثتها القدس من العصر الأيوبي، حيث جذبت هذه المدارس العلماء من فلسطين والشام ومصر والمغرب والهند وتركيا وأواسط آسيا...إلخ، ومن دراسة إحصائية ثانية لثمانين عالم في القدس منذ الفتح الصلاحي للقدس حتى عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤م تبين أنهم قدموا من ٢٢ قطراً وما تراوح بين ٦٠ و ٧٠ مدينة[٤].

وذكر أحد المؤرخين أنه على الرغم من أن القاهرة كانت العاصمة وبالتالي فهي يجب أن تستقطب رجال الدين والسياسة والعلماء، إلا أن البعض فضّل الإقامة في القدس بعيداً عن أضواء العاصمة وسلطان الحاكم متفرغين للعبادة مجاورين بالقدس الشريف[٥]، وإن نسبة لا يُستهان بها منهم دأبوا على التنقل بين الأماكن المقدسة – مكة والمدينة والقدس– طلباً للبركة، ومع عظم

---

[١] من هذه الكتب على سبيل المثال:الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ,والضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لابن العماد، والأنس الجليل لمجير الدين، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن، وبدائع الزهور لابن إياس...إلخ.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤١٦.

[٣] مجير الدين: الأنس الجليل ، ج٢، ص٣٣-٤٨.

[٤] العسلي (كامل): المدارس ومعاهد العلم والعلماء في فلسطين، بحث في كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على القدس في العصور الوسطى، تحرير هادية وبرهان دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ط١، ١٩٩٤، ص ٥١١-٥١٢.

[٥] ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص١١٢.

المكانة الدينية لمكة والمدينة إلا أنه يبدو من دراسة ذلك العصر أن كثيراً من العلماء لم يستسيغوا الحياة هناك لقسوة المناخ وبعد هاتين المدينتين عن مركز النشاط الحضاري في العالم الإسلامي، أما القدس فالحياة كانت فيها أطيب نسبياً لاعتدال جوها، ووقوعها داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة الإسلامية آنذاك[1].

ولا بد أن نشير إلى عامل آخر ساهم في تنوع الأصول العرقية لسكان بيت المقدس وهو: اتخاذ القدس من قبل سلاطين المماليك منفىً مريحاً لأولئك الذين لم يعودوا موضع ثقة من قبل الحكومة، ومع أن المنفيين إلى القدس لم يكونوا من حيث غضب الدولة عليهم كأولئك الذين تم سجنهم في سجن الإسكندرية أو نفيهم إلى الكرك والشوبك ومكة والمدينة[2]، وهي مناطق بعيدة وقاسية المناخ، أما مرتكب الذنوب الصغيرة فكان يتم نفيه إلى القدس (بطالاً)[3]، فالذي يُنفى إلى القدس هو في الحقيقة لم يكن سجيناً، بل كان نفيه نوعاً من أنواع تحديد الإقامة بحيث يعيش داخل المدينة حراً طليقاً، ولكن لا يخرج منها إلا بإذن السلطان[4]، وكانت تحدث في عصر المماليك وساطات من

---

[1] عاشور: بعض أضواء جديدة ، ج١، ص٩٠.

[2] عاشور: المرجع نفسه، ج١، ص١١٣.

[3] المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص ٤٦٦، ٦٨٧. السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٩٠٢هـ/١٥٠٠م) التبر المسبوك في ذيل السلوك، تصحيح أحمد زكي بك، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٨٩٦م، ص٣٢٩.

والبطال من الأمراء والأجناد: هو العاطل عن عمل الدولة ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان، أو كبر السن، أو اضطراراً إلى الاعتكاف والاختفاء، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد، وكلمة بطال مرادفة لكلمة (طرخان)، والطرخان هو الأمير المتقاعد دون أن يكون مغضوب عليه. انظر، المقريزي: المصدر المتقدم، ج١، ق١، ص٧٣، حاشية٤.

- الدباغ (مصطفى مراد): الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨١، ج١، ص٢١٤-٢١٥.

[4] عاشور: المرجع المتقدم، ج١، ص١١٢.

أجل تخفيف الحكم على المنفيين بنفيهم إلى القدس، مثلما حدث مع القاضي زين الدين عبد الباسط بعد أن تم نفيه إلى مكة المكرمة عام ٨٤٣هـ/١٤٤٠م كان يشكو من ثقل الإقامة هناك فتوسط له القاضي كمال الدين محمد بن البارزي عند السلطان الذي سمح له بالاستقرار في القدس عام ٨٤٤هـ/١٤٤١م (فسكن جأشه لأنه كان كثير القلق وهو بمكة)[١]، وبالتالي فإن أهم مكان كان ينفى إليه الناس في المنطقة لا بل في السلطنة المملوكية بأسرها كان بلا ريب؛ القدس[٢].

وبدراسة إحصائية قام بها أحد الباحثين للمصادر المعاصرة للعصر المملوكي من كتب الحوليات والطبقات وغيرها، وجد أن أكثر من ثمانين بالمئة من حالات النفي في عصر سلاطين المماليك استأثرت بها مدينة القدس وحدها[٣].

وهناك عدة أسباب جعلت السلاطين المماليك يعتمدون على القدس في نفي خصومهم إليها، أهمها:

أ. إن القدس مدينة يغلب عليها الطابع الديني والعلمي، فضلاً عن أنها محدودة الإمكانات البشرية والمادية، وهي غير مرغوبة لمن يطلب الثراء والجاه، وغالبية سكانها هم من أهل العلم والتدين وليسوا من أهل الحرب والسلاح.

ب. قرب القدس من القاهرة مركز الحكم ، مما يجعلها تحت الأنظار.

ج. ظلت القدس طوال عصر المماليك مدينة مستقرة سياسياً، ولم تكن فيها قوى عسكرية مرابطة، فضلاً عن أنه – كما سلف القول – إذا كان فيها حامية فهي لم تكن قوية أو كبيرة، وبالتالي فإن الشخصية التي لم تعد موضع ثقة للحكومة لن تجد من يساندها إذا ما أرادت التمرد على

---

[١] المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص١١٨٤، ١٢٠٣.

[2] Ayalon (David), Discharges From Service, Banishments And Imprisonments In Mamluk, Israel Oriental Studies 1972, p34

[٣] عاشور: بعض أضواء جديدة، ج١، ص١١٣.

الحكومة، كما أنها لا يمكن أن تستخدم القدس مركزاً للمقاومة وذلك لعدم توفر الحصون والقلاع فيها.

الفصل الثاني: بنية مجتمع بيت المقدس في عصر المماليك

أولاً: حالة المجتمع المقدسي وتعداده في عصر المماليك.

ثانياً: فئات المجتمع:

١- المسلمون.

٢- المسيحيون.

٣- الجالية اليهودية.

ثالثاً: العلاقات بين فئات المجتمع.

رابعاً: الرقيق المنزلي.

أولاً: حالة المجتمع المقدسي وتعداده في عصر المماليك:

حظيت القدس بمكانة سامية عند أتباع الديانات السماوية الثلاث[١] (الإسلام، المسيحية، اليهودية)، فعنها يقول القزويني: (هي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي، وما فيها من موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك)[٢]، ولذلك كانت مقصداً لجميع سكان العالم، فبالنسبة للمسلمين كانت وما زالت أرض الإسراء والمعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وفيها الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك وما حوله ..الخ، وبالنسبة للمسيحيين فهي ضريح السيد المسيح عليه السلام، وفيها الكثير من تراثهم الخاص لاسيما كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون من كافة أنحاء العالم، وفيها علية صهيون التي يعتقد المسيحيون بأن السيد المسيح عليه السلام تناول فيها مع حواريه العشاء الرباني الأخير[٣]، ويزعم اليهود نسبة بعض الأماكن لأجدادهم، وأن فيها رفات أنبيائهم[٤].

ومن سماحة المسلمين أنهم لما حكموا القدس لم يصدوا حاجاً أو زائراً مسيحياً كان أم يهودياً، فكانت هذه المدينة في تاريخها الإسلامي مثالاً لمدينة السلام والتسامح، وسكنها من شاء أن يسكنها.

ومن الأحداث الطارئة على هذه المدينة، تغير بنية مجتمعها ما بين القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، والثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي تغيراً جذرياً، فالمقدسي عندما عاش في القدس وكتب مؤلفه أحسن التقاسيم نحو ٣٥٧هـ/٩٦٧ـ٩٦٨م ذكر بأن المدينة غلب عليها أهل الذمة عندما وصفها

---

[١] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص٤٦١، ٥٤٤.

[٢] القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٥٩ – ١٦٠.

[٣] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٤، ص٤٠١.

– دراج: وثائق دير صهيون، ص٢٢ – ٢٣.

[٤] دراج: المرجع نفسه، ص٢٦-٢٧.

بأنها: (كثيرة النصارى قليلة العلماء)[1]، إلا أنه حدث تغير في تركيبة سكانها عندما استولى الصليبيون عليها عام ٤٩١هـ/١٠٩٩م، فقد عمل هؤلاء على إفراغ المدينة من سكانها الأصليين وإسكانها بوافدين جدد جاؤوا من الغرب الأوروبي[2]، كما أنهم اضطروا إلى جلب السريان إليها من وادي عربة وسوات.

ولما حرر السلطان صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م اتخذ عدة إجراءات لتصحيح الوضع ومعاودة أسلمة المدينة، فقام بترحيل الأوروبيين وإسكان المدينة بسكان محليين، وباشر بأعمال عمرانية في المدينة كما أشرنا سابقاً، فنتيجة لمبادرات صلاح الدين هذه، والاستقرار السياسي والاقتصادي الذي جاء به الحكم المملوكي بعد احتواء خطر المغول والصليبيين؛ تعافت المدينة، لنجد نظرة مؤرخ القدس الشهير في عصر المماليك (مجير الدين) الراضية عن وضع القدس في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، تختلف كل الاختلاف عن نظرة المقدسي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وعن آراء ونظرات غيره من المؤرخين والجغرافيين والرحالة في عصر الحروب الصليبية وما تلاه.

أما عن حجم الكثافة السكانية أو تعداد سكان القدس في عصر المماليك، فالقدس لم تختلف عن مثيلاتها، من مدن الشرق الأوسط، فقد نالت ما نالته مدن الشرق الأوسط من دراسات، إلا أنه ومن الحقائق اللافتة للنظر أنه حتى الآن لم يتمكن أحد من أن يضع جداول مفصلة للكثافة السكانية لأية منطقة من مناطق الشرق الأوسط في الحقبة العائدة إلى العصور الوسطى، ولا تختلف القدس كثيراً عن مثيلاتها فلا يوجد هناك إحصائيات تساعد على تحديد عدد السكان، فالمعطيات أو الإشارات القليلة الواردة في المصادر الأدبية (التقليدية)

---

[1] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٤.

[2] الصوري: الأعمال المنجزة، ج١، ص٤٣٧.

- مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص١٧٥-١٧٦.

كانت تعتمد على ما شاهده وقدره الرحالة والزوار والحجاج، وبالنسبة لوثائق الحرم القدسي الشريف (وهي المصدر الرئيس والأساس لهذه الدراسة) لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر إحصائي دقيق، وذلك عائد لمجموعة من الأسباب، أهمها:

١. إن نسبة عظمى من الوثائق (نحو ٨٠% منها) تعود إلى المدة الممتدة بين ٧٩٣هـ-٧٩٦هـ/١٣٩١-١٣٩٤م، ويتوزع الباقي (الذي يشكل تقريباً ٢٠% من الوثائق) على الحقبة الممتدة بين ٦٠٤-٨٦٦هـ/١٢٠٧-١٤٦١م، وبذلك لا تغطي عصر المماليك كما ينبغي.
٢. الوثائق لم تشر إلى كل من توفي أو كل من وُلد بالقدس.
٣. تتحدث بعض الوثائق عن الحجاج والزوار إلى جانب السكان المحليين.
٤. إن نسبة ذكر النساء في الوثائق تفوق نسبة ذكر الرجال.
٥. لم يتوفر في وثائق الحرم القدسي وثائق تخص كبار رجال الحكم والمال والدين، فقد أشارت الأدلة المستقاة من عصر المماليك وسجلات العصر العثماني أن وثائق الممتلكات الخاصة بالأثرياء والكبار كانت تعد منفصلة[1].

وبالتالي فإن استخدام هذه الوثائق للتوصل من خلالها إلى تقدير معقول لعدد سكان القدس، قد يؤدي إلى نتائج مغلوطة بسبب الثغرات التي ذُكرت، ومع ذلك من الممكن الاستفادة من وثائق الحرم في الخطوط العامة، وخاصة أنها أكدت أن المسلمين كانوا في عصر المماليك يشكلون أغلبية سكان القدس في حين أن المسيحيين واليهود كانوا أقلية.

---

(1) Lutfi: A Study of Al-Quds, p. 29.

ومن أجل التوصل إلى تقدير مقبول لتعداد سكان القدس في عصر المماليك سيعتمد البحث على مشاهدات الرحالة[١]، وعلى الإحصائيات العثمانية التي تمت في مطلع الحكم العثماني للمنازل والسكان.

ففي منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو المدينة المقدسة في عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م قَدَّر عدد السكان بحوالي عشرين ألف نسمة[٢]، وفي نهاية هذا القرن عندما سقطت القدس بأيدي القوى الصليبية حدثت تحولات جذرية في بنية السكان (كما سلف الذكر)، فأباد هؤلاء السكان الأصليين، وأسكنوا القدس بسكان جدد، وعندما حرر صلاح الدين المدينة عام ٥٨٣ هـ/١١٨٧م قام بأعمال عديدة لإصلاح المدينة، فكان أهم هذه الأعمال إعادة إسكانها، فارتفع عدد السكان ليصل إلى ٣٠٠٠٠ نسمة، وبلغت مساحة المدينة ٧٢٠ دونماً، فكثافتها السكانية إذن كانت ٤٢ شخصاً للدونم الواحد[٣]، ولكن الكثافة السكانية بلغت أقصاها في عصر المماليك الذي نحن بصدده، فقد كانت السلطنة المملوكية بمثابة الحصن الأخير للمسلمين، لجؤوا إليه من غرب العالم الإسلامي (بعد توالي ضربات الأوربيين إثر نشاط حركة الاسترداد الإسبانية)، ومن شرقه (إثر سيطرة المغول عليه وبطشهم بالسكان)، فَقَدِمَ إلى القدس كل من رغب في حياة هادئة ومستقرَّة [٤].

لقد أجمعت المصادر على امتداح عصر المماليك الأول ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٠ م، على أنه أفضل من عصر المماليك الثاني ٧٨٤-

---

[١] إن الأرقام التي يذكرها الرحالة عن تعداد السكان أرقام ليست دقيقة لأن الرحالة اعتمد في تحديدها على تقديره ونظرته، فهو لم يعتمد على إحصائيات منظمة، إلا أنه للرقم الذي يورده الرحالة دلالته، فكبر هذا الرقم أو صغره سيكون له بلاشك دلالة على وضع المجتمع وحالته وحركته.

[٢] خسرو: سفر نامة، ص٥٦.

[3] Benvenist. (M.): The crusader in the holy land, New-York. 1972. P. 26.

[٤] نستنتج ذلك من الترجمات التي قدمها مجير الدين لعلماء القدس، ومن أنساب الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الوثائق، فقد تم نسب العديد منهم إلى المغرب والمشرق، وقد تقدم شرح ذلك في الفصل الأول.

٩٣٣ هـ/١٣٨٠-١٥١٧م[١]، فقد شهد العصر الأول نشاطاً عمرانياً بالإضافة إلى الاستقرار السياسي والاقتصادي بفضل وجود سلاطين أقوياء أمثال الظاهر بيبرس وقلاوون والناصر محمد، بسط هؤلاء سلطتهم على البلاد، وفرضوا الأمن، كذلك لم يشهد هذا العصر حالات انحباس الأمطار، على عكس ما تردده المصادر من كثرة انحباسها في عصر المماليك البرجية مع كثرة انتشار الأوبئة والطاعون والتي كانت تأتي على حد قول أحد الرحالة كل عشر سنوات[٢]، لقد انعكس الاستقرار والهدوء الذي نعمت به القدس في عصر المماليك الأول - مع الهجرات المكثفة إليها - على الكثافة السكانية لترتفع إلى أعلى معدلاتها في تاريخ المدينة في العصور الإسلامية فوصل عدد السكان في القرنين السابع والثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين إلى ما يقارب ٤٠٠٠٠ نسمة[٣] وهو أعلى معدل للنمو السكاني في المدينة.

بدأت الكثافة السكانية بالتناقص في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي أمام انتشار الأوبئة المعدية وأهمها الطاعون الجارف[٤] (الموت

---

(1) Ashtor: A Social and Economie, P.301.

هناك فرق واضح بين خط الصعود والنمو في عصر دولة المماليك البحرية، وخط التدهور والإضمحلال في عصر دولة المماليك الجراكسة، عن هذا بالتفصيل. انظر، حمادة (محمد ماهر): الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص٧-١١.

(2) Souriano (Franscesco): Treatise on the Holy land Trans From the Italian by. Fr. Theophilus Bellorini, Jerusalem, 1984,P. 10

(٣) غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١١٥-١١٧.

(٤) تكررت حالات انتشار الطاعون في الأعوام التالية: ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، فأصاب الطاعون غزة والقدس والرملة ودمشق وحلب وحمص وحماة وهلك فيه خلائق لا يحصى عددهم.

- المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٢٢-٨٣٦.

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٨.

وتكرر في الأعوام ٨٧٣هـ/١٤٢٩م، ٨٨١هـ/١٤٧٦م، ٨٩٧هـ/١٤٩١م وفي هذه السنة عم جميع أنحاء المملكة واستمر ٤أشهر و١٠أيام. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٨٦، ٣١٨، ٣٦٠ - ٣٦٣.

الأسود كما سمته المصادر)[١] ، كما أنها تأثرت بالحروب التي قامت في المنطقة، فالغزوة التي قام بها تيمورلنك عام ٨٠٢ هـ /١٤٠٢ م على الرغم من عدم وصولها إلى القدس، إلا أنها أدت إلى هجرة كثير من السكان، حيث لجؤوا إلى مصر[٢]، إذ أن بطش المغول مازال ماثلاً في ذاكرتهم، هذا يفسر من ناحية ثانية ضعف المماليك البرجية وغياب سلطان قوي يقبض على زمام الأمور أمثال بيبرس، وقلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد، أيضاً تأثرت الكثافة السكانية بالجفاف وانحباس الأمطار التي تكررت حالاته[٣]، كما أنها تأثرت بالزلازل التي كانت تضرب المنطقة والتي كان ينتج عنها هلاك بعض السكان، كالذي حدث عام ٩٠٢هـ /١٤٩٦م، فلم يترك بيتاً علوياً في بيت المقدس إلا وهدمه[٤].

أثرت هذه العوامل بشكل أو بآخر على الكثافة السكانية فتدنت معدلاتها كثيراً في أواخر عصر المماليك، ويمكن أن نلمس ذلك عند الرحالة الذين زاروا القدس في تلك الحقبة؛ فعندما زار القدس الحاخام مشلم بن مناحم (مشلم الفولتيري) عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م قدر هذا عدد المسلمين بـ١٠٠٠٠، وعدد اليهود بـ٢٥٠[٥]، وبعد عامين أي ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م قام الراهب الدومنيكاني

---

[١] سمي بالموت الأسود لأنه قلّما ينجو منه أحد، ولأن القروح التي كانت تظهر على الجلد وفي الآباط والمراق وفي الرقبة كانت سوداء. انظر، السيوطي (جلال الدين، ت٩١١هـ/١٥٠٥م): ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تح: محمد علي البار، دار القلم- دمشق، الدار الشامية- بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

[٢] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٤.

ويذكر المقريزي أنه بعد غزوة تيمورلنك (أقامت القدس مدة إذا أُقيمت صلاة الظهر بالمسجد الأقصى لا يصلي خلف الإمام سوى رجلين). انظر، المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٢٢٥.

[٣] كالذي ضرب حوران والقدس والرملة والكرك عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م مما دفع ببعض السكان للنزوح عن أوطانهم. انظر، المقريزي: المصدر نفسه، ج٤، ق١، ص٦٠٩.

وتكررت الحالة في الأعوام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م و٨٩١هـ/١٤٨٦م و٨٩٥هـ/١٤٩٠م. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٨٥، ٣٣٧، ٣٤٨.

[٤] العارف: تاريخ القدس، ص١٧٤.

[5] Adler, E., N. : Jewish Travellers, lst, Published London, 1930, P. 234.

الألماني فليكس فابري بزيارة حج إلى القدس؛ قدر أثنائها عدد المسيحيين بـــ ١٠٠٠ مسيحي من مختلف الطوائف، واليهود بـــ ٥٠٠ يهودي[١]، كذلك يقدر الرحالة اليهودي عوبدياً الذي زار القدس عام ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م عدد السكان بحوالي ٤٠٠٠ أسرة؛ يشكل اليهود منها حوالي ٧٠ أسرة، معظمهم من الشيوخ والأرامل الذين أتوا من ألمانيا وإسبانيا والبرتغال، وكانت النسبة بينهم هي سبع سيدات إلى رجل واحد[٢].

وفي مطلع القرن العاشر الهجري نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلادي ذكر الرحالة كازولا الذي زار القدس عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م أن في المدينة عدد متواضع من المنازل وأن سكانها ليسوا كثيرين[٣].

تدل هذه المشاهدات على أن عدد سكان بيت المقدس انخفض كثيراً في أواخر أيام السلطنة المملوكية، فالأرقام المتوفرة من السجلات العثمانية تدل على أن القدس في عام ٩٣٢ هـ/١٥٢٥ م أي بعد سقوط السلطنة المملوكية بعشرة أعوام كانت تضم ٩٣٤ بيتاً فقط (٦١٦ للمسلمين و١٩٩ لليهود و١١٩ للمسيحيين)[٤].

وفي منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كانت الإحصائيات العثمانية تشير إلى أن عدد سكان القدس كان ٨٠٠٠ نسمة في ذلك الوقت، فتكون بذلك ثاني مدن فلسطين من حيث عدد السكان بعد مدينة صفد[٥]،

---

[١] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٢، ص١٠١٨.

[2] Adler,: Jewish travelers, P. P. 234-235.

[3] Casola's (Canon Pietro): Pilgrims to Jerusalem in the year 1494 by,M. Margaret Newett, Manchester, the university press 1907 P. 251.

[4] Cohen, A. and B. Lewis: Population and Revenue in the Towns of Palestine in the 16th Century. Princeton :Princeton University Press, 1978. P. P. 92-94.

[٥] في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي لم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية، فديمغرافيتها كانت على الشكل التالي:

صفد ١٢٠٠٠ نسمة، القدس ٨٠٠٠ نسمة، غزة ٦٠٠٠ نسمة، نابلس ٤٣٠٠ نسمة، الخليل ٣٥٠٠ نسمة، كفر كنا ٢٨٥٠ نسمة، مجدل ٢٨٠٠ نسمة، لد ٢٥٠٠ نسمة. انظر،

Wolf–Dieter (Hutteroth) and Kamal Abdulfattah: Historical Geography of Palestine, Transjordan and southern Syria in the late 16th century Erlangen, 1977, P.P. 45, 52.

وفي إحصائية عثمانية أخرى قامت سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م لسكان القدس، تبين أن عددهم كان يبلغ ١٢٥٠٠ نسمة، منهم ٩٩٠٠ مسلم، و١٤٠٣ مسيحي، و١٢٠٠ يهودي[١].

ولكن يبدو أن هذا الإحصاء كان غير دقيق، والدليل على هذا وثيقة تعود إلى عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م، تم فيها إحصاء عدد اليهود في القدس بعد أن شكا اليهود لمدير الخزانة (دفتردار) كثرة الضرائب المفروضة عليهم، وأن عددهم أقل مما هو مسجل في دفتر تحرير الأراضي، وبناءاً على ذلك جرى إحصاء جديد لهم بإشراف أمين الخراج، فكان عددهم ١١٥ شخصاً من دافعي الجزية، وبما أن النساء والأطفال ورجال الدين كان يعفون من أداء الجزية، فنضرب هذا العدد بخمس، فيتبين أن عدد اليهود كانوا حوالي ٥٧٥ شخصاً في عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م[٢]، واعتماداً على وثيقة أخرى لعام ١٠١٥ هـ/١٦٠٦م نشرها أيضاً المرحوم العسلي يتبين أن عدد اليهود انخفض كثيراً فبلغ عددهم ٦٠ شخصاً من دافعي الجزية، وعدد المسيحيين ٩٤ شخصاً من دافعي الجزية (٦٨ روم أرثوذكس و١٤ سريان و١٢ قبط)، وباستخدام الطريقة السابقة يتبين أن عدد المسيحيين حوالي ٤٧٠ شخصاً، وعدد اليهود حوالي ٣٠٠ شخصاً، وهو عدد قليل جداً[٣].

ومهما بلغت دقة الروايات فإنها لن تصل إلى رقم حقيقي، ذلك ما لم تعتمد على إحصائية منظمة للسكان، وما الهدف من هذه الإشارات إلا التدليل على حالة المجتمع وحركته، فأي مجتمع سيتأثر بلا شك وينخفض عدده أمام تعرضه

---

[١] العسلي (كامل): مكانة القدس عربياً وإسلامياً عبر التاريخ، الموسوعة الفلسطينية، ق٢، (الدراسات الخاصة)، م٦، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٨٠٢. نقلاً عن دفتر التحرير العثماني رقم ٥١٦، ص٥-١٧.

[٢] الوثيقة العثمانية رقم ٣٧ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، سجل رقم ٥٥، ص٢٠٧، سنة ٩٨٠هـ. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٢٨٤.

[٣] الوثيقة العثمانية رقم ١١٥ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، سجل رقم ٨٧، ص١٠٢، سنة ١٠١٥هـ. انظر، العسلي: المرجع نفسه، ج٣، ص١٥٤.

لحالات انحباس الأمطار وانتشار الوباء والطاعون وحدوث الزلازل، فهي أمور لا حيلة للبشر فيها، ومع ذلك بقيت القدس كما سلف القول مهوى الأفئدة والقلوب ويسكنها من شاء، فهي – كما ذكر فابري – (في هذه الأيام "أي في عصر المماليك" موضع الاستقرار والسكن لمختلف شعوب الدنيا)[١]، فقد أشاع الحكم المملوكي قسطاً من الاستقرار في المدينة وهذا ما أتاح للقدس أن تزدهر وأتاح لشخصيتها الإسلامية أن تتطور.

---

[١] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٣، ص١١٨٨.

ثانياً: فئات مجتمع بيت المقدس في عصر المماليك:

كان المجتمع في عصر المماليك خليطاً من أتباع الديانات السماوية الثلاث، وكانت الأغلبية من المسلمين في حين أن المسيحيين واليهود كانوا أقلية.

١) المسلمون:

إن ما تم ملاحظته أن العنصر العربي كان أكثر تواجداً في المدينة من العناصر غير العربية وهذا أمر طبيعي، فالمنطقة عربية، والبلاد بلادهم، وقد أفاضت الوثائق بذكر المقادسة من أصول شامية وعراقية ومصرية ومغربية وقد أوردنا ذلك في الفصل الأول.

وسنتحدث هنا عن العناصر الجديدة في المنطقة، مثل المماليك والأكراد والأتراك والخوارزميين والمغاربة.

أ. المماليك:

المماليك هم الفئة العسكرية الحاكمة، كانت مهمتهم تدعيم النظام العسكري الحاكم، فعلى عاتقهم وقعت مسؤولية الدفاع عن البلاد من الأخطار الخارجية والداخلية، والمحافظة على النظام وحماية عرش السلطان، وهم من أجناس مختلفة؛ تركي وجركسي وتتري وقبجاقي وهندي ورومي...، إلا أن أكثرهم تركي وجركسي(١).

أما عن وجودهم في القدس فلم يحظ المماليك في القدس – إذا استثنينا أنشطتهم العمرانية – إلا بقسط ضئيل من عناية المؤرخين في تلك الحقبة بما في ذلك مؤرخ القدس مجير الدين(٢)، مع علمنا بوجودهم في القدس كإداريين

---

(١) سليم (محمود رزق): عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ط٢، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ج١، ق١، ص١٧.

(٢) يذكر مجير الدين عن المماليك: (لم أستوعب أسمائهم ولا تراجمهم، فإن ذلك تطويل لا طائل تحته، خصوصاً حكام الشرطة من النواب ليس بالاعتناء بذكرهم كبير فائدة، وإنما أذكر من النظار =

وزوار ومنفيين (بطالين)، فإنهم قاموا بتعمير العديد من المراكز الاجتماعية والدينية والعلمية، أما احتمال وجودهم كعامل عسكري (جنود) فهو احتمال ضعيف، فقد كانت القدس في عصر المماليك بعد احتواء خطر المغول والصليبيين مدينة مستقرة سياسياً، ومركزاً للأنشطة الدينية والعلمية لا للأعمال العسكرية، وهي مدينة جبلية داخلية[1] لا تستدعي من الناحية الدفاعية وجود حامية عسكرية، وإن كان هناك حامية فهي بلا شك كانت صغيرة جداً لا تشكل عاملاً رئيسياً في تعداد السكان[2].

وهناك العديد من الوثائق التي تخص المماليك ولا ندري إذا ما كانت تعكس بصورة صحيحة الوجود المملوكي في المدينة، إلا أنها تؤكد الانطباع الذي يتركه مؤرخ القدس القاضي مجير الدين، وهو أن الوجود المملوكي في المدينة كان يشمل في معظمه ذوي الرتب الدنيا والمتوسطة في سلسلة مراتب المماليك[3]، وقلة منهم ورد في المصادر التقليدية.

أما وجودهم كمنفيين فقد كان كثيراً، فالقدس وحدها استأثرت بحوالي ٨٠% من المماليك الأمراء والقادة والموظفين الكبار المنفيين من قبل الحكومة[4]، ولقد كان لهؤلاء آثار عمرانية ضخمة، فضلاً عن أن بعضهم فضَّل الإقامة في القدس لكي يكونوا بعيدين عن مجريات الأحداث السياسية ولينعموا

= والنواب من اشتهر من أعيانهم، ومن عرف له فعل بر أو معروف). مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٦٩.

[1] خسرو: سفر نامة، ص٥٣.

فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٢، ص٩١٠، ١٠١٧.

[2] هناك من يشير إلى عدم وجود حامية: Little: Relations, P. 91

وهناك من يشير إلى وجود حامية صغيرة: Drory : Jerusalem During the Mamluk ,P.196.

[3] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٢٩٦.

[4] عاشور: بعض أضواء، ج١، ص١١٣.

بالهدوء والاستقرار فيها، وبعضهم تفرغ للعبادة وعاش مجاوراً للقدس الشريف[١].

أما عن أحوالهم في القدس؛ فيبدو أنهم كانوا أثرياء إذا ما قيسوا ببقية السكان، ففي الوثيقة رقم ٤٧ المؤرخة في ٦ ذي القعدة سنة ٧٧٠ هـ / ١٢ حزيران ١٣٦٩ دفع الأمير أرمنجي أحد أفراد الحلقة المنصورة لعروسه خديجة ١٠٠ دينار مصري صداق الزواج، ويتبين من هامش الصفحة اليمنى أن الزوج زاد قيمة الصداق فيما بعد ٢٠٠ دينار فأصبح الصداق كله ٣٠٠ دينار[٢]، وفي حين أننا نجد نساجاً قد دفع - على حسب ما جاء في الوثيقة ٦١٠ المدونة في ٢ صفر ٧٩٣ هـ / ٩ كانون الثاني ١٣٩١ م - ستة دنانير ذهبية لخطيبته[٣]، وجاء في الوثيقة ٦٤٦ المدونة في ١٢ صفر ٧٩١ هـ / ١٠ شباط ١٣٨٩ أن لباناً دفع صداقاً إلى عروسة ثلاثة دنانير[٤].

وتشير الأدلة على أن المماليك قد اندمجوا في حياة المدينة بالرغم من وضعهم الرسمي كممثلين للسلطة، فنجد في الوثيقة ٩٦ المدونة في ١١ رجب سنة ٧٨٥ هـ، / ١٨ أيلول ١٣٨٣ أن أربعة من الخصيان المقدمين الذين كانوا بطالين من سكان القدس أجَّروا مشتركين إلى بائع بالمفرق في باب حطة[٥] منزلاً في حارة المشارقة[٦] كان وقفاً لصالحهم[٧].

---

[١] ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١١٢.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٤.

(3) Little : Acatalogue, P. 305.

(4) Ibid, P. 305-306.

[٥] باب حطة: يقع في الجهة الشمالية من سور الحرم. انظر ، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٠.

[٦] حارة المشارقة: تقع إلى الشمال من حارة باب حطة التي تقع شمال سور المسجد الأقصى (عند باب حطة) وتنتهي عند سور المدينة الشمالي. انظر، مجير الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص٥٤، انظر، الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٦).

(7) Ibid , P. 297 .

وتضمنت الوثيقة رقم ٣٢٤ المؤرخة في ١ رجب ٧٩٧ هـ / ٢٢ نيسان ١٣٩٥م، سند شراء اشترى بموجبه القاضي شرف الدين (حصاناً) بمبلغ قدره ٣٥٠ درهماً من الأمير سيف الدين الطنبغا الظاهري[١]، وتحفظ الوثيقة ٣٧٠ المدونة في ١ جمادى الآخرة ٧١٢ هـ/ ٤ أيلول ١٣١٢م، عملية بيع أرض في القدس، اشترى بموجبها محمد بن أبي غانم علي الحلبي أرضاً بمبلغ وقدره ١٨٠ درهماً من الأمير الكبير عماد الدين داود[٢]، وجاء في الوثيقتين ٤٩٠ المدونة في ١٥ شوال سنة ٧٨١ هـ ٢٤ كانون الأول ١٣٨٠ م[٣] و٣٣١ المدونة في ١٦ محرم سنة ٢١/٧٩٦ تشرين الثاني ١٣٩٣ م[٤] تعيين وكلاء مدنيين عن أمراء مماليك عسكريين، ففي الوثيقة الأولى عُيّن برهان الدين الناصري (أحد شيوخ الخانقاه الصلاحية) وكيلاً عن الأمير أحمد بن سيف الدين داوادار[٥] الذي كان أمير أخور[٦] المقر[٧] العالي المولوي السيدي المالكي المخدومي السيفي بُستمر أحد مقدمي الألوف بالشام المحروس، في المطالبة بحقه وقبضه والدعوى به والمحاكمة عليه واستيفائه ممن هو عليه وعنده..... الخ، وفي الثانية والتي هي عبارة عن إشهاد بوصية يسند فيها الأمير الكبير

---

(1) Little : Acatalogue, P. 284.

(2) Ibid , P. 290.

(٣) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص ١٤٠.

(٤) العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص ٤٩.

(٥) الداودار: موظف كبير، موضوعه تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إلى السلطان والمشاورة على من يحضر إلى الباب وتقديم البريد. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩.

(٦) أمير آخور: هو الموظف الذي يشرف على اصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيها من الخيل والإبل وغيرها، ومما هو داخل في حكم الاصطبلات، وهذا المصطلح مركب من مقطعين أمير وآخور، والأخير لفظ فارسي معناه المعلف، فيكون معنى أمير آخور أمير المعلف، وهي وظيفة عالية. انظر، القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص١٩.

- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٨، حاشية٣.

(٧) المقر: لقب يختص بكبار الأمراء، وأعيان الوزراء، وكتاب السر ومن يجري مجراهم من كبار الموظفين. انظر، القلقشندي: المصدر المتقدم، ج٥، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

سيف الدين قبقجي[١] بن عبد الله الناصري محمد بن المقر السيفي بكتمر الساقي وصيته إلى الشيخ علاء الدين بن شهاب الدين بن شمس الدين إبراهيم وإلى القاضي علم الدين، بالإضافة إلى الأمير الأجل شهاب الدين خنجر.

ومن خلال الوثائق نجد أن المماليك عوملوا مثلهم مثل باقي أفراد المجتمع، فنعرف من خلال الوثيقة ٤٧ المذكورة آنفاً أن عقود الزواج التي تخص المماليك أو التي كان المماليك طرفاً فيها كانت تتم في المحاكم المدنية[٢]، ومن خلال الوثيقة ٣٥٥ المؤرخة في ٢٤ جمادى الأول ٧٩٥ هـ/ ٧ نيسان ١٣٩٣ م، نعرف أن المحكمة في القدس كانت تحكم بين المتنازعين من المماليك والمدنيين، ففي هذه الوثيقة شهد أمير أنه استلم تأميناً بمبلغ قدره (٣/٤ ١٧٩٤) ؟ درهم دمشقي، وعشر قطع من الذهب الأفلوري من تركة تاجر وزوجته[٣].

ب. الأكراد:

يُلاحظ الباحث في وثائق الحرم القدسي وفرة العنصر الكردي في مجتمع بيت المقدس في عصر المماليك، فالعديد من الوثائق حملت أسماء أشخاص تم نسبتهم إلى أصول كردية، وكان بعضهم قد تسلم مهاماً في القدس، ففي الوثيقة رقم ٣٠ المؤرخة في ٧ رجب ٧٩٦ هـ/ ٨ حزيران ١٣٩٤م محضر جنائي بخصوص نزاع دموي نشب بين أهالي قرية القصور من أعمال القدس، وبين أهالي قرية أريحا وسواها من قرى الغور، وكان أحد أعلام هذا المحضر علاء الدين علي بن عمر الكردي متولي الليل بالقدس الشريف[٤]، فدلنا ذلك على أن

---

[١] ربما نسبةً إلى لعبة القبق، عبارة عن خشبة عالية يعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرُماة وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك وتسمى القبق أو القباق وهو لفظ تركي.انظر، الدباغ: الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ج١، ص ٢١٨-٢١٩.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٤.

[3] Little : ACatalogue , P. 232.

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص ١٣٢ – ١٣٣.

المسؤول عن الأمن ليلاً في القدس في ذلك الوقت كان كردياً، والوثيقة رقم ٧٣١ المؤرخة في ٦ ربيع الأول ٧٩٤ / ١ شباط ١٣٩١ م، هي باسم موسى بن محمد بن موسى الكردي الخياط[1]، وهذا دليل آخر على وجود كردي كان يعمل خياطاً بالقدس في ذلك العصر، بالإضافة إلى وثائق أخرى تؤكد وجود عائلات كردية كانت تقطن القدس آنذاك، فالوثيقة رقم ٧٣٧ المؤرخة في ٣٢ شوال ٧٩٣هـ/ ٢٣ أيلول ١٣٩١ هي باسم امرأة كردية هي (آسيون بنت أحمد الكردية)[2]، و الوثيقة رقم ٧٦٧ المؤرخة في ٢٩ ربيع الأول ٧٩٥ هـ/ ١٢ شباط ١٣٩٣ م، تحمل اسم مباركة بنت إبراهيم الكردية[3]، والأدلة المتوفرة في الوثائق على وجود العنصر الكردي في القدس كثيرة جداً وإنما ذكرنا نماذج منها فقط[4].

ويمكن أن نُرجع وجود الأكراد في القدس إلى عهد صلاح الدين الأيوبي، محرر القدس صاحب الأصل الكردي، فمن الطبيعي أن يلتف الأكراد حوله وحول ورثته من بعده، وتذكر المصادر أنه عقب فتح مدينة القدس على يد صلاح الدين ترك خلفه الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين بها، وبعد وفاته دُفن هذا في داره بعد أن صُلي عليه في المسجد الأقصى[5]، وفي الوثيقة رقم ١٩٨ المؤرخة

---

(1) Little : A Catalogue, P. 157.
(2) Ibid ,P. 159
(3) Ibid, P. 343.

(٤) من هذه الوثائق على سبيل المثال: ١٣، ١٣٦، ٤٠٢، ٤٢٧، ٦٤٢. انظر،
Ibid ,P. 39 , 76 , 108 , 114 , 272 .

(٥) ابن شداد: سيرة صلاح الدين، ص٢٤٣.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد: ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص ١٨٠ -١٨١.
- ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٤٨٢ - ٤٨٤.
- مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٩، ق٢، ص ٢٣٨.

في ١٠ جمادى الثانية ٧٨٦هـ/٣٠ تموز ١٣٨٤م كان أحد الشهود فيها محمد ابن خالد الهكاري[١].

وورد في كتب التراجم أسماء عدة أشخاص مقادسة من الهكاريين[٢]، والهكارية هي إحدى القبائل الكردية[٣]، وكان لهم أوقاف باسمهم في القدس[٤]، وهذا يشكل دليلاً على استقرار العنصر الكردي في المدينة بعد الفتح الصلاحي لها.

وتفيد الترجمات التي قدمها مجير الدين لعلماء القدس في عصر المماليك بأن العنصر الكردي كان موجوداً بالمدينة حيث كان منهم من أهل الفضل ومن الفقهاء ومن درّس في المدرسة الصلاحية[٥]، وأحياناً يرد ذكر هؤلاء الأكراد في مشاكل كانت تنشب بينهم وبين العرب ينتج عنها أحياناً قتلى من

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص ٨٩.

[٢] مثل ضياء الدين الهكاري (الفقيه) الذي كان عوناً لصلاح الدين، حضر فتح القدس، ودفن فيها في تربة ماملا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م. انظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٩٧ -٤٩٨. أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ٥٨. وأيضاً كان هناك شرف الدين عيسى بن محمد كامل الكردي الهكاري أحد أمراء الظاهر بيبرس، ولد في القدس سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م، وسمع الحديث وحدّث، توفي سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م في دمشق. انظر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٠٣.

[٣] هذه الطائفة كانت تقيم في بلاد الجبال غرب أذربيجان وشمال العراق وخوزستان وغرب فارس وخراسان وجنوب بلاد الديلم وقزوين والري. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٦٦، ٣٧٨. ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص ٢٧٠ – ٢٧٢.

[٤] من هذه الأوقاف: وقف صلاح الدين على الشيخ أحمد بن أبي بكر الهكاري، والشيخ علي بن أحمد الهكاري، ووقف سيف الدين عيسى بن حسين قاسم الهكاري، ووقف محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري، ووقف سيف الدين عثمان الحسين بن أبي القاسم الهكاري، ووقف الملك العادل على الحاجب الهكاري وعلى أولاده وذريته.

انظر، عبد الغني (مصطفى): الأوقاف على القدس، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ٨٦، ٩٧، ١٠١.

أيضاً المدرسة البدرية في القدس هي وقف بدر الدين محمد الهكاري. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٧.

[٥] مجير الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ١٠٥، ١٥٣، ١٩٧.

الطرفين[١]، وقد ورد ذكر حي الأكراد في القدس في العديد من الوثائق[٢]، وكان يسمى من قبل بحي (حارة) الشرف[٣]، ويؤكد بعض المؤرخين أن الأكراد عاشوا فيه بشكل منعزل محافظين فيه على عاداتهم وتقاليدهم الموروثة، وأن المماليك شجعوا على إقامتهم لاستخدامهم في الدفاع عن السواحل[٤].

ج. الأتراك (التركمان):

حفلت الوثائق بذكر هؤلاء الأتراك (التركمان) على عكس المصادر التقليدية، فلم نعثر لدى مجير الدين إلا على إشارات قليلة لعلماء تركمان عاشوا في القدس في عصر المماليك[٥]، ولا نجد في بقية المصادر المعاصرة إشارات تدل على وجود العنصر التركي في المدينة، في حين أكثرت وثائق الحرم من ذكر أشخاص من أصول تركية، فعلى سبيل المثال نجد في الوثيقة رقم ١٥ المدونة في ٢ ربيع الآخر ٧٩١ هـ / ١ آذار ١٣٨٩ م، إقرار من المصونة (يلقطلو التركية) بأن زوجها هو وارثها الوحيد[٦]، وفي الوثيقة رقم ٥٨٦ المؤرخة في ٧ ذي القعدة ٧٩٦ هـ / ٤ أيلول ١٣٩٤ م، حصر أثمان تركة (بوطية بنت عبد الله التركية)، والتي يتبين من خلال الوثيقة أنها على جانب من الثراء[٧]، والوثيقة رقم ١٣٠ المؤرخة في ٢٢ ذو القعدة ٧٩٥ هـ / ٢٩ تشرين الأول ١٣٩٣ م، هي باسم (لوكر بنت عبد الله التركية)[٨]، والوثيقة رقم ٢٤٣ المدونة في ٨ شوال ٧٩٦ هـ / ٦ آب ١٣٩٤، باسم (يعقوب بن عبد الله

---

[١] البرغوثي: تاريخ فلسطين، ص ٢٢٥.

[٢] منها الوثائق ٢٩٧، ٥٥٨، ٤٦٩، ٦٧٩. انظر،
Little : A Catalogue , P. 98, 143, 186, 217-218.

[٣] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢.

[4] Cohen and Lewis: Population and revenue, P. 34-35.

[٥] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ١٦٠، ٢٠١.

[٦] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص ١١٨.

[٧] العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص ١٥٨.

[8] Ibid, P. 74.

التركي)[1]، وقد أشارت الوثيقة رقم ٢٩٨ المؤرخة في ٤ شوال ٧٩٥ هـ/ ١٣ آب ١٣٩٣م، إلى وجود عائلة تركية بأكملها مقيمة في القدس، في هذه الوثيقة تم بيع عبد امتلكته أسرة تركية الأصل – كما يتبين من نسبهم – عن طريق الوراثة من المرحوم أبي بكر بن علي الأرز الرومي[2]، الدمشقي الذي توفي بالقدس، وأن ورثته هم زوجته خديجة بنت شهاب الدين أحمد بن الأرز الرومي، وحسنية بنت علي الدين، وشقيقتيه ألتي[3] ونفيسة، وابنتيه فاطمة وسارة الصغيرتين، وكان المشتري رجل مقدسي حارثي، وتمت عملية البيع في القدس[4].

وكثيرة هي الوثائق التي تدل على وجود الأتراك في القدس[5]، ويؤكد الرحالة فليكس فابري هوية هؤلاء الذين يعرفون باسم التركمان ووجودهم في المدينة، إلا أنه يصفهم بالمتوحشين الذين استولوا على جميع آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، وعلى شطر كبير من آسيا الكبرى، ويذكر أنهم هم أنفسهم الأتراك[6].

د. الخوارزميون:

في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بدأ يظهر على الساحة في المنطقة العربية (الشام، العراق) عنصر تركي جديد هم: الخوارزميون، الذين ظهروا كنتيجة مباشرة لتحرك المغول في أراضيهم، فبعد

---

(1) Little: A Catalogue, P. 173.

(٢) نسبةً إلى مدينة أرز روم،هي نفسها مدينة أرض روم، وهي مدينة تركية تقع على هضبة الأناضول الشرقية. انظر، الموسوعة العربية، ج١، ص٩١٤.

(٣) هذا الاسم تركي معناه المرأة المشتراة. انظر، Little: Six Forteenthe, P.329.

(٤) العسلي: المرجع السابق، ج٢، ص ١٤٩.

(٥) وهي حوالي ٣٤ وثيقة، منها الوثائق التالية: ٣٩٦، ٣٩٧، ٤١٣، ٤٢٩، ٤٦٤، ٤٧٧، ٥٣٧ن ٥٧٦، ٧٣٦ ٧٤٤، ٧٥٧، ٢٢٤.
Ibid , P. 106 , 110 , 115 , 124 , 127 , 138 , 146 , 159 , 161 , 165 , 184.

(٦) فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٣، ص ١١٩٣ – ١١٩٤.

أن دمر جنيكز خان دولتهم عام ٦١٧-٦١٨ هـ/١٢٢١م، بدأ هؤلاء بالتحرك في فارس والمنطقة العربية بقيادة جلال الدين منكبرتي الذي خلف والده محمد بن خوارزم شاه، فهدد هذا الخليفة العباسي والأيوبيين[١].

وتتحدث بعض المصادر والمراجع عن وجود هذا العنصر في مدينة القدس في عصر المماليك، وأكدت وثائق الحرم القدسي وجود الخوارزميين كسكان مقيمين في المدينة المقدسة، فقد تم العثور على ثلاث وثائق في طياتها ما يؤكد ذلك، ففي الوثيقة رقم ٦١٣ المؤرخة في ١٩ ذي القعدة ٧٩٦ هـ / ١٥ أيلول ١٣٩٤ م يتم إسناد وصية من قبل (الصدر الأجل شرف الدين محمود بن شهاب الدين أحمد بن محمد الخوارزمي التاجر بالقدس الشريف) إلى زوجته[٢]، وتتضمن الوثيقة رقم ٦٤٤ المؤرخة في ١٥ ربيع الأول ٧٩٧ هـ/ ٨ كانون الثاني ١٣٩٥ م، توكيل أو ما شابهه لكل من (جمال الدين بن بهاء الدين أحمد الخوارزمي وعبد الرحمن بن شرف الدين عيسى الخوارزمي)[٣]، أيضاً يرد في الوثيقة رقم ٩٨ المؤرخة في ٩ شعبان ٧٠٦ هـ / ١٣ شباط ١٣٠٧ م، ذِكر لأمير خوارزمي آخر مقيم في القدس هو الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير نصر الدين قرا سقل الخوارزمي[٤].

وبالعودة إلى آثار القدس الخالدة في عصر المماليك نجد أن تربة بركة خان التي تشكل حالياً المكتبة الخالدية تضم رفاة ثلاثة من أمراء الخوارزمية، وهم: الأمير بركة خان مقدم الخوارزمية الذين استدعاهم نجم الدين أيوب لاسترداد القدس[٥]، وتضم رفاة ولديه بدر الدين محمد بك وحسام الدين كره

---

(١) عاشور (سعيد عبد الفتاح): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٠٠ – ١٠١.

(٢) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص ١٤٢.

(3) Littel: A Catalogue, P. 237.

(4) Ibid, P. 298.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٥، ص ٢٣٦.

– المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦.

بك[١]، وقد ورد ذكر لهذه التربة في الوثيقة رقم ١٣٦ المؤرخة في ١٧ محرم ٧٩٧ هـ/ ١٢ تشرين الثاني ١٣٩٤ م، التي تؤكد أن بدر الدين المذكور هو الذي بنى هذه التربة وأوقفها[٢].

وفي المصادر التقليدية ما يعلل وجود العنصر الخوارزمي في القدس، ففي عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م، سيطر الصليبيون على القدس وأصبحت من أملاكهم بموجب معاهدة سلمية بين الملك الكامل محمد والإمبراطور فردريك الثاني ملك ألمانيا[٣]، وفي عام ٦٢٧ هـ/١٢٣٠م احتل الخوارزميون أخلاط مقر مملكة الملك الأشرف بن العادل الأيوبي[٤]، لكن سرعان ما تحالف الأيوبيون بزعامة الملك الأشرف ابن الملك العادل مع سلاجقة الروم بزعامة كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان وأنزلوا هزيمة ساحقة بالخوارزميين قرب أرزنجان[٥] في عام ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م، فانسحب الخوارزميون إلى أذربيجان[٦] ثم تشتتت جموعهم بعد مقتل جلال الدين منكبرتي في ٦٢٩ هـ /

---

[١] العسلي (كامل): أجدادنا في ثرى بيت المقدس، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان،١٩٨١، ص ٧٣.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٣٧ – ٢٣٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢٣٠.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٤٣.

– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٤٣٨.

– أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٦، ص ٤٦.

– ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد ت ٦٦٠هـ/): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، ج٣، ص ٢٠٨.

[٥] أرزنجان: ويقول أهلها عنها أرزنكان، وهي بلدة طيبة مشهورة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وأخلاط قريبة من أرزن الروم، معظم أهلها أرمن وفيها مسلمون. انظر، الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ١٨٠.

[٦] أبو الفداء: المصدر المتقدم، ج٦، ص ٤٦.

– ابن العديم: المصدر المتقدم، ج٣، ص ٢٠٩.

– ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج١٠، ص ٤٤١.

١٢٣١ م[١]، وأصبحوا هائمين يعرضون خدماتهم على من يرغب في شراءها من حكام المسلمين، وعلى من يكتريهم ويقدم لهم المال والمؤن ويغريهم بامتلاك أرض ووطن.

احتاج الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية (فيما بينهم) وفي صراعاتهم الخارجية مع (الصليبيين) إلى مساعدة جموع الخوارزمية، فبعد أن تحالف صاحب دمشق وصاحب الكرك وصاحب حمص (الصالح إسماعيل والناصر داود والمنصور إبراهيم)، ضد الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر، طلب هذا مساعدة الخوارزميين، فما كادت تصلهم دعوة الصالح حتى توجه أكثر من عشرة آلاف منهم وعبروا الفرات واحتلوا طبرية ونابلس، ثم اتجهوا إلى القدس[٢].

أما فيما يتعلق بالقدس؛ فبعد ما أدى الخوارزمية خدمات كبيرة للصالح أيوب طلبوا منه منحهم أرضاً يسكنون فيها، فما كان من الصالح أيوب إلا أن قال: (هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان يوجد بعض الناس يُدعون باسم الصليبيين، وهم يسكنون في الأماكن الساحلية وهم يزدرون شريعتنا وهم مثيرون للمتاعب لنا ويسببون الأضرار لنا، ويهددون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهم ومقرهم الرئيس هو مدينة القدس اذهبوا بناء عليه واطردوهم حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة وسوف تمتلكون أراض خصبة)[٣]، وبناء عليه فرحوا كثيراً بهذا الكلام وهاجموا أولاً القدس وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين، وبذلك كان

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ج٦، ص ٥١.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦.

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٨٦.

[٣] متى باريس: تاريخ متى باريس، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠١م، ج٤٧، ص٦١٨.

انتزاع القدس من الصليبيين وطردهم منها عام ٦٤٢ هـ/١٢٤٤م[١]، وعلى ضوء هذا يمكن القول: إن بعض الخوارزمية استقر في مدينة القدس على أساس أنهم كانوا يبحثون عن أرض ليسكنوها وحرروا القدس انطلاقاً من هذا المبدأ، وجاءت وثائق الحرم لتؤكد ذلك.

ه. المغاربة:

أصبحت مدينة القدس بعد الفتح الإسلامي لها موئلاً لقرَّاء القرآن الكريم ورواة الحديث الشريف، ومقراً للزهّاد وطلاب العلم، ومزاراً للتُقاة والحجاج، فجاءها المسلمون من سائر الأنحاء لطلب العلم أو للمجاورة (مجاورة الأقصى الشريف)، أو الزيارة، فكثر المجاورون كثرةً جعلت ولاة الأمر والمحسنين يخصصون أوقافاً ليصرف ريعها على هؤلاء[٢].

ومن هؤلاء؛ المغاربة والأندلسيين اللذين ارتبط تاريخ وجودهم بالقدس الشريف منذ اللحظات الأولى التي اعتنقوا فيها الدين الإسلامي، فقد شدتهم إليها الوشائج نفسها التي شدتهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، فكان جلهم يمر بالشام عند عودته من الحج حتى ينعم برؤية معراج النبي صلى الله عليه وسلم، ويحقق الأجر في الرحلة إلى المساجد الثلاث[٣]، مستجيبين في ذلك إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم[٤].

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦.

– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٨٦.

[٢] الطيباوي (عبد اللطيف): حائط البراق والأوقاف الإسلامية في غربة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الخامس والخمسون، الجزء الثاني، ١٤٠٠هـ/نيسان ١٩٨٠م، ص ٢٦٦.

[٣] التازي (عبد الهادي): أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة،المحمدية، المغرب، ١٩٨١م، ص٥.

[٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص): "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول (ص)، والمسجد الأقصى". انظر، البخاري (محمد بن اسماعيل، ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م): صحيح البخاري، اعتنى به عز الدين ضنلي وعماد الطيار وياسر حسن، مؤسسة الرسالة، دمشق – بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٢٣٨.

قدمت وثائق الحرم القدسي الشريف، كما هو معروف، صوراً حية للحياة اليومية في بيت المقدس في عصر المماليك، وما يشد الانتباه هو الحضور اللافت لهؤلاء المغاربة في الوثائق، فقد ورد ذكرهم في حوالي ٣٥ وثيقة، وورد ذكر حي المغاربة في حوالي ٦٥ وثيقة[1]، وهناك عدد لا بأس به من الوثائق يسلط الضوء مباشرة على المغاربة المقيمين بالقدس والدور الذي شغلوه في القدس، فالوثيقة رقم ٣٣٥ المؤرخة في العشر الأوسط من شهر ذي القعدة ٧٩٥ هـ/١٨-٢٧ تشرين الأول ١٣٩٢م، تتضمن شكوى رفعها شيخ المغاربة محمد بن عبد الوارث المالكي، إلى كافل السلطنة في دمشق، بعد محاولة المسؤول عن الشرطة مصادرة أملاك أحد اليهود الذي توفي بالقدس، لجأ اليهود إلى شيخ المغاربة يلتمسون إنصافهم، فقام هذا بمخاطبة والي الشرطة الذي لم يستجب له، فقام بمخاطبة كافل المملكة بالشام وعاد الحق لأهله[2]، هذه الوثيقة تلقي الضوء على أنَّ شيخ المغاربة كان له مكانة عالية في مجتمع بيت المقدس حتى لجأ إليه اليهود لحل مشكلتهم، وبلغت مكانته من الأهمية ما خوله مخاطبة كافل المملكة بشأن إجراء تعسفي قام به المسؤول عن الشرطة (صديق الوالي).

وحسن حال المغاربة في القدس وصار بعضهم من أصحاب الأملاك في المدينة وضواحيها، فتملكوا العديد من العقارات وأوقفوا العديد من الأوقاف على مصالح أبناء جنسهم المقيمين في القدس أو العابرين فيها، ولعله من المفيد هنا أن نذكر مضمون وثيقة تاريخية سياسية قانونية، هي وثيقة وقف أبي مدين (شعيب المغربي العثماني المالكي)، فقد حُررت هذه الوقفية في ٢٩ رمضان ٧٢٠ هـ/٢ تشرين الثاني ١٣٢٠م، في حياة العالم العارف أبي مدين (الحفيد)، وأوقف في هذه الوثيقة مكانين، المكان الأول الموقوف هو: قرية عين كارم من

---

[1] Little : ACatalogue , P. 451 , 463.

[2] صالحية: من وثائق الحرم، ص ٩٠.

- العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٧٠.

قرى مدينة القدس الشريف، بما تحتويه من أراضي فيها المعتمل والمعطل وفيها العامر والداثر... وآثار بنيان بأراضيها وبساتين... بجميع حقوقها ومرافقها ومزروعها ومفلحها... وجميع ما ينسب للقرية المذكورة داخلها وخارجها ما عدا مسجد الله تعالى وطريق المسلمين ومقبرتهم..، أما المكان الثاني الموقوف: فإنه يقع في مدينة القدس الشريف بالخط الذي يعرف بقنطرة أم البنات بباب السلسلة وهو يشتمل على إيوان، وبيتين، وساحة، ومرتفق خاص، ومخزن، وقبو.

وتؤكد الوثيقة أن هذا الوقف (لا يبطله تقادم دهر ولا يوهنه اختلاف عصر)، ويحبس هذا الوقف على المغاربة المقيمين في القدس أو القادمين إليها على اختلاف أوصافهم، وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم، كبيرهم وصغيرهم، ينتفعون في ذلك بالسكن، والإيجار، وسائر الانتفاعات، والمقاسمة والمزارعة، وتحدد الوثيقة أنه إذا ما انقرض المغاربة من القدس فإن النفع يعود على المغاربة المقيمين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وإذا ما انقرض هؤلاء أيضاً فإن النفع يعود على الحرمين الشريفين، وحددت الوقفية أنه إذا ما حدث هناك فائض في الأحباس، فيخصص جزء منه للترفيه على المحتاجين المغاربة سواء المقيمين أو العابرين طيلة أشهر رجب وشعبان ورمضان، وذلك بتوزيع الخبز بعد العصر، ويخصص جزء لكسوة القادمين من المغرب، وجزء آخر لتجهيز الموتى المغاربة المحتاجين، وأخيراً أنذرت الوثيقة أنه لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه (إلى ربه العظيم صاير)، (من أمير أو مأمور وذي سلطان جائر)، أن يبطل هذا الوقف ومن فعل ذلك وأعان عليه فالله تعالى (طلبيه وحسيبه ومواخذه ومجازيه)، ومن خالف ذلك فقد عدل عن أمر ربه وتمرد عليه واستحق لعنته[1].

---

[1] انظر الملحق رقم (٢٣)

أصل الوثيقة محفوظ في سجل أوقاف المغاربة الموجود بقلم المحكمة الشرعية ص ١ – ٢، وكان أول من تحدث عنها عام ١٩٣١م، الأستاذ عبد الله مخلص، أمين المجلس الإسلامي الأعلى، =

ولم تكن أوقاف أبي مدين هي الوحيدة من نوعها فهناك وثيقة وقف أخرى مشابهة للسابقة الذكر، هي للشيخ العابد المجاهد عمر المجرد بن شيخ الشيوخ القدوة عبد الله بن عبد النبي المصمودي المالكي، ويتعلق الأمر بوقف ثلاث دور تقع في حارة المغاربة مع جميع ما تعرف به وينسب إليها خارجاً عنها أو داخلاً فيها، وإلى جانب الدور الثلاثة حبس الواقف جميع الزاوية التي أنشأها بأعلى حارة المغاربة من جهة الغرب، وكانت تشتمل على عشر حجرات بجميع مرافقها داخلاً فيها وخارجاً عنها، أوقفها على المغاربة المحتاجين المقيمين بالقدس أو العابرين فيها وجعل الإنفاق على الزاوية من مداخيل الدور الثلاث، وجعل الفائض يصرف على الضعفاء المغاربة طيلة شهور رجب وشعبان ورمضان وقد حررت في ٣ ربيع سنة ٧٣٠ هـ ١٣٢٩م[1].

ومن الأوقاف على المغاربة ما ورد في وثائق الحرم القدسي الشريف، فالوثيقة رقم ٨٣٣ المدونة في ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٤٧ هـ/٦ تموز ١٣٤٦م موضوعها هو أن فاطمة بنت محمد المغربية قد أوقفت عمارتها المستجدة في

= وعضو المجمع العلمي بدمشق آنذاك، (جريدة الكلية ببيروت، عدد ٣، ٤)، وممن اهتم بهذه الوثيقة الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي في كتابه بالإنكليزية عن المؤسسات الإسلامية الخيرية في القدس، بعنوان: The Islamic Pious Foundations in Jerusalem London, Islamic Cultural Contre (1978)، وفي مقاله (حائط البراق) المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثاني، من المجلد الخامس والخمسون، ص ٢٦٩ وما بعدها، وقام بنشرها التازي في كتاب أوقاف المغاربة، ص٤١ وما بعدها.

[1] انظر الملحق رقم (٢٤)

أخرجت الوثيقة من سجل أوقاف المغاربة المحفوظ في قلم المحكمة الشرعية بالقدس، وقد تحدث عنها الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي في كتابه بالإنكليزية عن المؤسسات الإسلامية الخيرية في القدس، ص١٠، وكذلك في بحثه المذكور سابقاً، ص ٢٦٨، ولكنه يجعل تاريخ الوثيقة سنة ٧١٣ هـ معتمداً في ذلك على رواية مجير الدين في الأنس الجليل، ج٢، ص٢٤٣، إلا أن التاريخ هو ٧٣٠ هـ في شهر ربيع، ولكن الوثيقة لا تحدد أي ربيع الأول أم الآخر، أما مجير الدين فيحدد ربيع الآخر. انظر، التازي: المرجع المتقدم، ص٢٠.

حارة المغاربة على الفقراء والعجايز المغاربة فإذا انقرضوا فيجري ذلك مجرى وقف حارة المغاربة[١].

إن ما تم ملاحظته هو أن الاهتمام بالقدس والأماكن المقدسة لم يكن فقط على مستوى المغاربة العاديين، وإنما على مستوى حكوماتهم أيضاً، ففي عام ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧م، خصص السلطان أبو الحسن علي بن عثمان[٢] ستة عشر ألفاً وخمسمائة دينار ذهبي لشراء الرباع[٣] في القدس والحرمين الشريفين، وقام هذا السلطان عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م بانتساخ مصحف بيده وجمع الورّاقين لتنميقه وتذهيبه، وأحضر القرّاء لضبطه وتهذيبه، ووضع له ظرفاً مصنوعاً من الأبنوس والعاج والصندل مغشى بصفائح الذهب ومغلف برقاع من الحرير والديباج، وأرسله إلى القدس[٤]، وذكر المقري أنه رأى المصحف الذي ببيت المقدس، ورأى رِبعته[٥] (يعني ظرفه) وهي في غاية الصنعة، وكان هذا

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

[٢] السلطان علي بن عثمان بن يعقوب بن عبدالحق(٦٩٧-٧٥٢هـ/١٢٩٧-١٣٥١م)، من كبار بني مرين، تولى عرش السلطنة المرينية سنة ٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٨م، له أعمال عظيمة في شتى المجالات، قاتل الفرنج أكثر من مرة، وخضعت له السلطنة الحفصية مدة قصيرة، وله أعمال عمرانية في مراكش وسلا ومكناسة الزيتون وغيرها، وله اشتغال بالأدب والشعر. انظر، الزركلي(خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٤،١٩٩٩م، ج٤، ص٣١١.
– الغنيمي (عبد الفتاح مقلد): موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٥، ص٢٣٦.

[٣] الرَّبْع: المنزل والدار، وجمعه أرْبُعٌ و رِباعٌ وأرْباعٌ و رُبُوعٌ. انظر، ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم، ت ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٩٩٧م، ج٨، ص١٠٢، (مادة ربع).

[٤] التازي: أوقاف المغاربة، ص ٢١ – ٢٢.

[٥] الرّبْعة: إناء مربع كالجونة، ويقال: حملت ربْعَه، أي نعشه. انظر، ابن منظور: المصدر المتقدم، ج٨، ص١٠٦، (مادة ربع).وهنا ربعته أي ظرفه.

المصحف واحد من ثلاثة، أرسل المصحفين الآخرين إلى المسجد الحرام بمكة وإلى المسجد النبوي بالمدينة[١].

أما عن سبب وجود هؤلاء المغاربة في القدس وتاريخ قدومهم، فبعض المؤرخين يُرجع هجرة المغاربة إلى القدس، بشكل مكثف، إلى أيام الدولة الفاطمية التي اعتمدت في تأسيس جيشها على قبائل المغرب العربي[٢]، فكان من الطبيعي أن تهاجر هذه القبائل أو من انخرط في جيش الفاطميين منها إلى مصر بعد أن أصبحت هذه الأخيرة مقر ومركز الدولة الفاطمية، ناهيك عن أنَّ بعض هذه القبائل عبرت متجاوزة منطقة الرمل شرقاً، مثل قبيلة لواته[٣]، ويمكن على هذا الأساس وبما أن القدس خضعت للسيادة الفاطمية أن تكون قد حدثت هجرات للمغاربة في هذا العصر إلى القدس.

وأكد الرحالة ابن جبير الذي زار الشام ثلاث مرات كان أولاها في ٥٧٨ – ٥٨١هـ/١١٨٢–١١٨٥م، أن المغاربة من أهل الأندلس وشمال أفريقيا تطوعوا في جيش نور الدين الشهيد وأبلوا بلاء حسناً في القتال بشكل لفت نظر الصليبيين الذين انبهروا بشجاعة هؤلاء المغاربة[٤].

لقد كان عند هؤلاء المغاربة رغبة ملحة للمشاركة في الجهاد دفاعاً عن هذه البقعة الطاهرة[٥]، ومن المرجح أن عددهم زاد في بيت المقدس عقب الفتح

---

[١] المقري (أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٤، ص ٣٩٩ – ٤٠٠.

[٢] زكي (عبد الرحمن): الجيش المصري في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٣٠-٣١.

[٣] المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تح: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ١٣٢ – ١٣٦.

[٤] ابن جبير (محمد بن جبير الكناني الأندلسي، ت ٦١٤هـ/١٢١٧م): رحلة ابن جبير، دار الشرق العربي، بيروت ــ حلب، (د.ت)، ص ٢٣٥.

[٥] التازي: أوقاف المغاربة في القدس، ص ٦.

الصلاحي للمدينة، فقد أعطاهم صلاح الدين الأيوبي ميزات عديدة؛ إذ (جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم)[1].

ونظراً لأهمية هؤلاء المغاربة وكثرتهم فقد أوقف عليهم الملك الأفضل نور الدين علي، الابن الأكبر لصلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م، البقعة التي اعتادوا (المغاربة) على الإقامة فيها وعرف المكان فيما بعد بحي أو حارة أو محلة المغاربة، وحدود هذه الحارة كما جاء في وثيقة الوقف على الشكل التالي:

(الحد القبلي ينتهي إلى سور مدينة القدس الشريف الجنوبي وإلى الطريق المسلوكة إلى عين سلوان، والحد الشرقي ينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الشمالي ينتهي إلى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الغربي ينتهي إلى دار الإمام شمس الدين قاضي القدس الشريف، ثم إلى دار الأمير عماد الدين ابن موسكي، ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز)[2]، وقفها عليهم (على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم، كبيرهم وصغيرهم)[3]، وأنشأ لهم مدرسة عرفت باسمه (المدرسة الأفضلية)[4]، وكان

---

(1) ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٢٣.

(2) وهذه الدور تقع في حارة الشرف التي يسكنها علية القوم (الحكام والوجهاء والقضاة) ويمكن القول بأن الحد الغربي للحارة هو حارة الشرف. انظر، الطيباوي: حائط البراق، م٥٥، ج٢، ص٢٧٢-٢٧٣.

(3) نص الوقفية كان في سجلات المحكمة الشرعية في القدس تحت رقم سجل ٧٧ الصفحة ٥٨٨، وتم وضع النسخة الرسمية في مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة لندن لتسهيل الرجوع إليها، ويتبين من النص أن الصحيفة الأصلية ضاعت فأعيد تقييدها بأمر من القاضي الشرعي (بكتاب متصل الثبوت بحكم الشريعة) وقد تم ذلك مرتين الأولى عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، والثانية سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م.
انظر، الطيباوي: المرجع المتقدم، م٥٥، ج٢، ص٢٦٧. التازي: أوقاف المغاربة، ص١٣، انظر أيضاً نص الوقفية آخر البحث الملحق رقم (٢٢).

(4) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٦.

للمغاربة زاوية تعرف باسمهم، وشيخ يسمى شيخ المغاربة أو متولي مشـيخة المغاربة بالقدس[١]، وكان معظم هؤلاء المغاربة على مذهب الإمام مالك[٢].

ويرجح ازدياد هجرة المغاربة في عصر المماليك إلى بلاد الشرق وذلك بسبب ظروف الحروب التي شنها الإسبان في بلاد الأندلس وفي البحر على المسلمين هناك، ناهيك عن الظروف السياسية الصعبة التي عاشها أهل المغرب العربي من تفكك الأسر الحاكمة وتصارعها، فهاجر العديد من سكان المغرب إلى أراضي دولة المماليك حيث الاستقرار السياسي[٣]، وربما فضل الكثير من هؤلاء المغاربة الإقامة في القدس حيث القداسة هناك وتمتعوا بميزات لم تتوفر لغيرهم.

وهناك سبب قوي لهجرة المغاربة إلى القدس وهو طلب العلم[٤]، فالرحلة في طلب العلم ضرورة تثقيفية ودينية وأصلٌ من الأصول عند المسلمين فقد جعلها ابن خلدون أساساً في كمال التعلم، عندما قال: (إن الرحلة في طلب العلم

---

[١] الإمام: مدينة القدس، ص ١١٣.

(2) Cohen and Lewis: Population and revenue P. 34.

وعندما احتل الصهاينة القدس الشرقية في ٧ / ٦ / ١٩٦٧م هدموا حي المغاربة كاملاً بالديناميت والجرافات ونقلوا الركام بسيارات الجيش وخربوا جميع مباني الحي وأزالوا كل أثر عربي على الأرض التي أوقفها الملك الأفضل قبل سبعمائة عام. انظر، الطيباوي: المرجع المتقدم، ص٢٨٣. التازي: المرجع المتقدم، ص٦١-٦٦.

وفي ١٨/٤/١٩٦٨م أصدرت الحكومة الإسرائيلية قراراً نشرته في الجريدة الرسمية تحت رقم ١٤٤٣، يقضي باستملاك معظم أراضي الأوقاف الخاصة بالمغاربة، التازي: المرجع المتقدم، ص ٦٧ -٧١.

[٣] أحمد (علي): الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي، دار شمأل، دمشق، ١٩٩٥م، ص ٩٠.

- Ashtor : Ascial P. 259 – 260.

وأكد ابن خلدون سوء الأوضاع في المغرب والأندلس عندما يقول: (وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ... فلما خربتا انقطع التعليم في المغرب إلا قليلاً ...إلخ)، ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٤٤ – ٥٤٦.

[٤] التازي: أوقاف المغاربة، ص ٥ – ٦.

ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم)[١]، ثم اعتبرها بعد ذلك شرطاً لازماً للمثقف، فقال: (فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال)[٢]، وكانت القدس من أهم المراكز الثقافية التي يقصدها الرحالة المغاربة والأندلسيون (يزورونها فيلقون فيها ما طمحت إليه نفوسهم من صنوف العبادة، وما وعدتهم به الآثار من مغفرة وقبول)[٣]، ويلقون أيضاً من صنوف المعرفة ما تشع به حلقات دروس أكابر العلماء التي انعقدت في المسجد الأقصى، وخصوصاً بعد انقطاع التعليم في بلادهم[٤]، وفي الترجمة التي يقدمها مجير الدين لعلماء عصره يمكن ملاحظة كثرة المغاربة الذين تولوا مناصب قضائية ودينية في القدس في عصر المماليك[٥]، ناهيك عن أن المقرّي في كتابه "نفح الطيب" قد شغل ما يقارب الثلث منه في ذكر علماء المغاربة في القدس[٦].

٢) المسيحيون:

من المتعارف عليه ارتباط المسيحية والمسيحيين بالقدس ارتباطاً وثيقاً، فهي ضريح السيد المسيح عليه السلام، وفيها كنيسة القيامة، وهي الكنيسة الأم في المسيحية، والمسيحيون على اختلاف مذاهبهم يحجون إليها[٧]، ومن هنا

---

[١] ابن خلدون: المقدمة، ص ٧٤٤.

[٢] ابن خلدون: المصدر نفسه، ص ٧٤٥.

[٣] مجير الدين: الأنس الجليل، ج١، ص ٢٢٦–٢٣٠.

[٤] ابن خلدون: المصدر المتقدم، ص٥٤٤–٥٤٦.

[٥] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج١، ص٣٠١، ٣٠٢، ج٢، ص٢١٠، ٢٤٣– ٥٠، ٢٥٢– ٢٥٥.

[٦] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

وهناك دراسة مختصرة عن العلماء المغاربة الأندلسيين الذين قدموا إلى القدس خلال القرون "الخامس والسابع والثامن" الهجرية وأخذوا عن علمائها، قدمها الدكتور محمد الحبيب الهيلة إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في عمان ١٩٨١م، والدراسة تحت عنوان: (القدس وإشعاعها الثقافي في المغرب والأندلس من خلال الرحلات العلمية)، م١، ط١٩٨٣م، ص٢٩١.

[٧] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤١، ص ٥٥٤.

كانت قداسة القدس وأهميتها بالنسبة للمسيحيين، وكان يقطن في القدس في عصر المماليك مسيحيون ينتمون إلى طوائف ومذاهب متعددة، لا بل وأجناس مختلفة، وقد توفر الوجود المسيحي على شكل مقيمين محليين وعلى شكل حجاج وزوار، وبالنسبة لعدد هؤلاء، فإن مصادر ذلك العصر لا تقدم شيئاً يمكن الركون إليه، والشيء نفسه بالنسبة لوثائق الحرم القدسي الشريف، ونمتلك إشارة واحدة إلى عدد هؤلاء المسيحيين من قبل الراهب فيلكس فابري الذي قدر عددهم عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، بألف مسيحي من مختلف الطوائف والمذاهب[١]، وهو عدد قليل.

كان مسيحيو القدس على اختلاف مذاهبهم يتبعون إلى بطريرك دمشق، فهو مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم والفصل بحكم مذهبهم في مواريثهم وزواجهم، وإليه أمر الأديرة والكنائس ورعاية شؤونهم[٢].

وتوافرت في القدس الطوائف والأجناس المسيحية التالية:

أ. الروم الأرثوذكس:

كانت طائفة الروم الأرثوذكس أكبر الطوائف المسيحية في القدس عدداً[٣]، وكانت تمتلك أغلبية المؤسسات الدينية المسيحية، وكان لهم مكانة مهمة في كنيسة القبر المقدس[٤] (القيامة) التي يشترك فيها كل المسيحيين، ومن المعروف

---

[١] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٢، ص ١٠١٨.

[٢] كان للنصارى في بلاد الشام اثنان من البطاركة، الأول في أنطاكية والثاني في بيت المقدس، وكانت بطريركية بيت المقدس تحكم نصارى فلسطين وشرق الأردن.
Rey , les Colonies Franques de Syria aux Xll et Xlll siecles (Paris: 1883) P. 89
ولكن ذكرت المصادر وجود هذا البطريرك في عصر المماليك في دمشق، فقد ذكر القلقشندي وجود بطرك اليعاقبة وبطرك النصارى الملكانية آنذاك في دمشق. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠١. ج١٢، ص٤٢٢-٤٢٦.

[٣] فابري: المصدر المتقدم، ج٤١، ص ٥٥٧ – ٥٥٨، ج٤٣، ص ١١٩٠ – ١١٩١.

[٤] فابري: المصدر المتقدم، ج٤١، ص ٥٥٧.

أن هذه الطائفة قديمة العهد بالمدينة وكانت تابعة للكنيسة البيزنطية وهم من أصل عربي[١].

ب. الأرمن:

على الرغم من الخلافات التي كانت قائمة بين المماليك والأرمن، إلا أنهم تواجدوا في القدس وامتلكوا عدداً من الكنائس والأديرة، وجاء هؤلاء من أرمينية[٢]، وكانت لهم أبجدية ولغة خاصة بهم، وكان بينهم وبين الروم الأرثوذكس خلافات لأسباب دينية[٣].

ج. السريان:

وجد في القدس مسيحيون سريان، قدم هؤلاء إلى القدس في القرن الأول للميلاد، وازداد عددهم في المدينة أيام الصليبيين، وعندما حرر صلاح الدين القدس رحّل معظمهم[٤]، وهم على عقيدة الروم الأرثوذكس، وتحدثوا باللسان العربي في أحاديثهم العامة، أما في القداسات الدينية فإنهم استخدموا اللهجة السريانية، وهم شعب مسالم، لهم لحى طويلة ويكرهون الذين بلا لحى[٥]، وامتلكوا في القدس العديد من الأديرة والكنائس.

د. الأقباط:

قدم الأقباط إلى القدس في القرن الرابع الميلادي بعد بناء كنيسة القيامة، وفي أيام صلاح الدين ازداد عددهم حيث أعاد لهم الأماكن التي اغتصبها منهم الصليبيون[٦]، ومع ذلك كانوا أقل الطوائف المسيحية عدداً في بيت المقدس في عصر المماليك، وقد أشارت بعض المراجع أن مكانهم في كنيسة القيامة كان

---

(1) Conder : The latin kingdom of Jerusalem , London , 1897 , P. 223.

(٢) فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤١، ص ٥٦١.

(٣) فابري: المصدر نفسه، ج٤٣، ص ١١٩٢-١١٩٣.

(٤) العارف: المفصل، ص٧٦٢.

(٥) فابري: المصدر المتقدم، ج٤١، ص ٥٦٠ – ٥٦١، ج٤٣، ص ١١٩١.

(٦) العارف: المرجع المتقدم، ص٧٦٠.

يخلوا منهم بسبب تغيبهم وسفرهم إلى القاهرة[١]، كما أشارت الوثائق إلى وجود دير للأقباط في القدس[٢].

ه. الجورجيون (الكرج):

وجد في القدس جورجيون (الكرج) جاؤوا إلى القدس من القوقاز[٣]، وذكر فابري أنهم من القوقاز (جورجيا حالياً)، ويتسمون بأنهم رجال حرب منذ ولادتهم، حتى نسائهم تستخدم السلاح مثل الرجال[٤]، وهم على خلاف مع الأرمن الموجودين في القدس[٥]، ويذكر فابري أن الكرج كانوا يعملون بالقدس بمهنة سائقي الحمير الذين يرافقون الحجاج المسيحيين في رحلاتهم[٦]، ويبدو أن العلاقات بين الكرج والمماليك كانت سيئة، والدليل على ذلك محاولة ملكهم زيارة القدس متخفياً بزي الرهبان سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م، ولكن تم القبض عليه في يافا وتم حبسه بقلعة دمشق وأمره السلطان بأن يبعث لإخبار بلاده بحاله[٧]، وقد تكررت هذه المحاولة مرة أخرى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م، وحاول ملك الكرج توما سوطان بن كلياري زيارة القدس متخفياً، ولكن

---

[١] الإمام: القدس، ص ١٢٤.

[٢] الوثيقة رقم ٣٨٤ المؤرخة في ١٤ ذي القعدة ٧٩٥هـ/٢١ أيلول ١٣٩٣م. انظر،
Little : ACatalogue , P. 103.

[٣] ابن عبد الظاهر (محيي الدين بن عبد الظاهر ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، ط١، ١٩٦١م، ص ٢٣، حاشية ١.

[٤] فابري: رحلته، ج٤١، ص ٥٥٩، ج٤٣، ص ١١٩٣.

[٥] فابري: المصدر نفسه، ج٤١، ص٥٥٩، ٥٦١.

[٦] فابري: المصدر المتقدم، ج٤٣، ص١٢٦٠.

[٧] اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد، ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، تصحيح وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٣، ص ٣٢.

السلطان قلاوون علم بذلك فقبض عليه في بيت المقدس وأُرسل إلى قلعة الجبل[١].

و. الأحباش:

كان للأحباش طائفة تقطن القدس[٢]، وأطلقت عليهم بعض المصادر المعاصرة اسم الهنود المسيحيون[٣]، فبعد تنَصر هؤلاء في حوالي القرن الرابع الميلادي جاؤوا إلى القدس بدافع من الإيمان الجديد فكان لهم كنائس وأديرة، في حين لم يكن لهم في عصر المماليك سوى دير الحبش الملاصق لكنيسة القيامة والخلاف عليه قائم بينهم وبين الأقباط[٤]، وقد وصفتهم بعض المصادر المعاصرة ووصفت عاداتهم وتقاليدهم الغريبة[٥]، وفضلاً عن هؤلاء المقيمين كان هناك حجاج أحباش لا ينقطعون أبداً، فبلغ عددهم عام ٨٨٦ هـــ/ ١٤٨١م، حوالي ٣ آلاف حاج[٦]، وفي عام ٩٢٢هـــ/١٥١٦م، بلغ عددهم حوالي ٨٠٠ حاج أو زائر[٧].

---

[١] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٣. ويذكر ابن عبد الظاهر أنه كان (أكبر معين على المسلمين، وأشد الكفار في قتالهم وأعظمهم نجدة للتتار).

[٢] فيلبوس (الأنبا): حقوق الكنيسة الحبشية الأرثوذوكسية في الأماكن المقدسة، ق٢، القدس ١٩٦٢م، ص ١٩.

[٣] فابري: المصدر المتقدم، ج٤١، ص٥٥٩، ج٤٣، ص ١١٩٢.

[٤] العارف: تاريخ القدس، ص٢٥٤.

[٥] فابري: رحلته، ج٤١، ص ٥٦٠.

[٦] ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ت: ٩٥٣هـــ/١٥٤٦م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح: محمد مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ق١، ١٣٨١هـــ/١٩٦٢م، ص ٣٩.

[٧] ابن طولون: المصدر نفسه، ق٢، ١٣٨٤هـــ/١٩٦٤م، ص٥.

ز. الفرنسيسكان:

ارتبط تاريخ الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس بإقامتهم فوق جبل صهيون في دير يضم المقدسات المسيحية المتعلقة بحياة السيد المسيح عليه السلام، وعلى وجه التخصيص علية صهيون وقاعة الحواريين.

يختلف بعض المؤرخين في تحديد تاريخ وجود وإقامة هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان، ففريق يرى أن البابا غريغوري التاسع (ت ٦٣٩ هـ/١٢٤١م) عهد إليهم بخدمة كنيسة القيامة عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٦م، وأنهم تزعموا حراسة الأماكن المقدسة اللاتينية منذ سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م[1]، بينما يرى فريق آخر أن إقامة هؤلاء الرهبان الفرنسيسكان في بيت المقدس ترجع إلى عام ٦١٨هـ/ ١٢١٩م، عندما سمح لهم المعظم عيسى صاحب دمشق بناءاً على طلب أخيه الكامل محمد صاحب مصر بالإقامة فوق جبل صهيون، وفي عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، أصدر البابا هونوريوس الثالث مرسوماً بابوياً اعترفت بموجبه الكنيسة الكاثولكية بطائفة الرهبان الفرنسيسكان، وتمكنت هذه الطائفة عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٥ م من الحصول على الموافقة من السلطات الأيوبية على حق توليهم رعاية الأماكن المقدسة فوق جبل صهيون، وفي عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م قاموا بتوسيع مقرهم وبناء دير صهيون الذي ضم علية صهيون وكنيستها والأماكن المسيحية المجاورة لها فوق الجبل[2]، في حين يرى فريق ثالث أن هؤلاء الرهبان قُتلوا على يد الخوارزمية عندما اجتاحوا القدس سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٤ م، ولم يبق لهم أثر من هذا التاريخ حتى الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يظهروا في هذه الحقبة إلا على شكل حجاج، وظلوا يتحينون الفرصة للعودة إلى القدس حتى تم لهم ذلك سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م،

---

[1] العارف: المفصل، ص٢٤٥.

[2] دراج: وثائق دير صهيون، ص٢٢-٢٥.

ومن خلال ما حصلوا عليه من تصريحات تمكنوا من بناء دير لهم في جبل صهيون[1].

تأتي أهمية الحديث عن هذه الطائفة أنهم لم يكونوا مثل بقية الطوائف، إذ كانوا من الفرنج المقيمين في بيت المقدس، يجمعهم مع إخوانهم في الغرب الاوروبي هدف سياسي واحد، وما لبث نشاطهم أن امتد إلى فلسطين كلها، ثم ما لبث أن اتخذ صفة سياسية، أدت إلى حذر السلطات الإسلامية منهم بوصفهم من الفرنج المعادين لها.

في عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م، منحهم السلطان الأشرف علاء الدين كجك ابن الناصر محمد، حق الإقامة داخل كنيسة القيامة كممثلين لطوائف الفرنج[2]، وفي ٢٠ تشرين الثاني من العام نفسه عهد إليهم البابا كلمنت السادس مهمة رعاية كنيسة القيامة والأماكن المسيحية فوق جبل صهيون، فأصبح رئيسهم يسمى (حارس كنيسة القيامة وجبل صهيون)[3]، وازداد نفوذهم وأصبح لهم دير ثان في بيت لحم، وثالث في بيروت، ودار لاستضافة حجاج الفرنج بالرملة، ثم دير رابع بالرملة أواخر عصر المماليك، فضلاً عن دير لراهباتهم بالقدس الشريف، وتزايد نفوذهم السياسي ليطغى على نفوذهم الديني، فأصبح لهم قنصل يمثلهم عند السلطات المملوكية، وترجمان معتمد عند هذه السلطات للقيام بعملية الترجمة، وحسب ما جاء في وثائق دير صهيون فإن رئيسهم أصبح يلقب بـــ(الريس بدير صهيون وعين كارم وبيت لحم وكبير طائفة الفرنج المقيمين

---

[1] أرمسترونج (كارولين): القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، (د.م)، ١٩٩٨م، ص٣٠٥.
- علي: القدس في عصر المماليك، ص٩٤.

[2] دراج: وثائق دير صهيون، ص٣٦-٣٨.

[3] ورد هذا في إحدى وثائق دير صهيون. أنظر، دراج: المرجع المتقدم، ص٣٦.

بالقدس الشريف ودير صهيون)[١]، فمن أعمالهم السياسية؛ القيام بدور تجسسي لصالح الغرب، فعلى سبيل المثال قام رئيس هذه الطائفة عام ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م، بإبلاغ البابا نبأ فشل السفارة الكاثولكية للحبشة والقبض على أعضائها، وكان الفرنسيسكان هم اللذين نقلوا إلى الإسبتارية في رودس أنباء استعدادات السلطان جقمق للهجوم على الجزيرة عام ٨٤١ هـ/ ١٤٤٠م، مما جعل السلطان ينتقم منهم[٢].

وهكذا نجد أن هؤلاء (الرهبان قد تطور بهم الأمر وخرجوا عن حدود رسالتهم الدينية وأصبحوا دعاة وخداماً للفكرة الصليبية، فكانوا يقومون بتيسير الاتصال بين البابوات وملوك الفرنج وملوك الحبشة، وذلك عن طريق الرهبان الأحباش المقيمين معهم بالقدس، كما كان منهم الرسل والسفراء لدى ملوك الحبشة للاتفاق على تنفيذ المشروعات الصليبية، وهكذا طغت عليهم الصبغة السياسية واضطرت السلطات المملوكية من جانبها عندما كانت تحيق بهم الأخطار إلى أن تنظر إليهم من هذه الزاوية، فأصبحوا في نظرهم يمثلون من الناحية السياسية البابوية وأمم الفرنج، وأصبح لهم وضع متميز عن وضع بقية طوائف الرهبان الأخرى المقيمة معهم بالقدس)[٣].

بالإضافة إلى هذه الطوائف المسحية هناك طوائف قليلة الذكر مثل الموارنة، والنساطرة، واليعاقبة[٤].

---

[١] ورد هذا في مقدمة مرسوم السلطان خشقدم الصادر إلى الرهبان الفرانسيسكان في القدس في ٢٨ صفر ٨٦٩هـ، وفي مقدمة مرسوم السلطان قايتباي الصادر إليهم أيضاً في ٨ ذي القعدة ٨٧٦هـ. انظر، دراج: وثائق دير صهيون، ص٣٨، ١٤٠.

[٢] دراج: (أحمد): المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٥١-٥٤.

[٣] دراج: المرجع نفسه، ص١٢.

[٤] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٣، ص١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣.

٣) الجالية اليهودية في القدس:

انقضت قرون عديدة منذ إعادة بناء القدس عام ١٣٥م على يد الإمبراطور الروماني هادريان (١١٧-١٣٨)م، فمنذ ذلك العام لم يُذكر وجود لليهود في القدس، فلأسباب ما، تتعلق بشغب اليهود أصدر هذا الإمبراطور عدة قرارات تحرم على اليهود دخول القدس، وممارسة طقوسهم فيها[١]، ولم يقتصر على هذا فقط بل وصل إلى حد منعهم فيه من النظر إليها من بعيد، وبهذا يكون قضى على وجودهم في القدس قضاءاً مبرماً[٢]، وأطلق هذا الإمبراطور على القدس بعد بناءها من جديد اسم (إيليا كابيتوليا)[٣].

وعندما تسلم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمسلمون مدينة القدس من المسيحيين بقيادة بطريركها (صفرونيوس الأول) عام ١٥ هـ / ٦٣٦ م، اشترط المسيحيون ألا يسكن معهم في المدينة يهوداً، فكان لهم ذلك، وجاء في نص العهدة العمرة (تعهد من عمر بن الخطاب للمسيحيين بأن لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود)[٤].

---

[١] الدجاني (أحمد صدقي): ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين حتى الفتح العربي الإسلامي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٣م، ج٣، ص١٢٢.

[٢] العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص١٣٤.

[٣] هذا الاسم مأخوذ من اسم أسرته (إيليوس) وهي كلمة يونانية معناها الشمس و(كابيتول) تعني المقر أو المركز، وبذلك يكون معناها مقر أو مركز الشمس. انظر، العارف: المرجع نفسه، ص١٦٨.

[٤] الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار سويدان، بيروت ـ لبنان، (د.ت)، ج٣، ص٦٠٩، وقد شهد على هذه العهدة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان.

وفي عام ١٩٥٣م أذاع رجال البطريركية الأرثوذكسية في القدس نصاً جديداً للعهدة العمرية، قالوا عنه أنه نسخة عن الأصل المحفوظة في مكتبة الروم بالفنار من أعمال إستنبول، ولكن ثبت تلفيق هذا النص من جوانب عدة. انظر، العارف: المفصل، ص١٦٦-١٦٩.

وعلى هذا لم يسمح الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ومن خلفه لليهود بسكن القدس، إلا أننا لا يمكن أن ننفي دخول اليهود المدينة لأغراض عديدة لكن بدون الإقامة فيها، وفيما بعد تساهل المسلمون في دخول اليهود للقدس، وفي زمن الاحتلال الصليبي زار المدينة أحد الرحالة اليهود وهو بنيامين التطيلي في حوالي عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وعلى حسب إحصائه لليهود فيها بلغ عددهم حوالي ٢٠٠ يهودي يقيمون في حي مجاور لبرج داود[١]، وزار القدس بعد بنيامين عدد من الرحالة تركوا في كتاباتهم انطباعات بأن أعداد اليهود في تناقص مستمر[٢]، ويمكن أن نلمس هذه الحقيقة عند الرحالة بتاحيا الراتسبوني الذي زار القدس قبيل الفتح الصلاحي للمدينة وذكر أنه لا يوجد في المدينة إلا يهودي واحد هو إبراهيم هلتسيفغ (الصباغ)[٣].

وذكر عدد من المؤرخين المعاصرين أن صلاح الدين الأيوبي بعد فتحه مدينة القدس سمح لليهود بدخولها ويكون بذلك قد رفع الحظر عنهم[٤]، وفسروا عمله هذا بأنه كان ضمن مخططه لإعادة إسكان المدينة، إذ أن اليهود في ذلك الوقت لم يشكلوا - على عكس المسيحيين - خطراً على الطابع الإسلامي للمدينة، وهذا لا يمكن إثباته استناداً على مصادر معاصرة للحدث.

إلا أن هناك العديد من الأدلة التي تؤكد وجود اليهود في القدس في عصر المماليك على شكل مقيمين أو على شكل وافدين أو زوار ورحالة، وأهم هذه المصادر هي وثائق الحرم القدسي الشريف، إلا أن هذه الوثائق لا تقدم

---

(١) التطيلي (بنيامين بن بونه التطيلي ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م): الرحلة، ترجمة عزار حداد، بغداد، ١٩٤٩م، ص٩٩.

(٢) عوض (محمد مؤنس أحمد): الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٦١.

(٣) بتاحيا الرتسبوني: من خلال الرحالة الأوربيون لمحمد مؤنس عوض (المرجع المتقدم)، ص٢٠٤.

(٤) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٥٥-٧٥٦.

- القوصي (عطية): صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٤، ١٢٧٧م، ص٤٠.
- Graetz (Heinrich), History of the jews (London, 1892) p.475.

معلومات عن عدد اليهود الموجودين فيها، ولكن هناك تقديرات الرحالة التي تقدم ذكرها، فقدرهم موشلم الفولتيري الذي زار القدس عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م بـ ٢٥٠ يهودي يسكنون بيوتاً يملكونها[١]، وقدرهم الراهب فيلكس فابري الذي زار القدس عام ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ بـ ٥٠٠ يهودي[٢]، وبعد خمسة أعوام زار عويديا القدس وقدرهم بـ ٧٠ عائلة[٣].

أما عن حياة هؤلاء اليهود في القدس في عصر المماليك فكان لليهود حي خاص بهم يسمى حارة اليهود[٤]، وإليها ينسب أحد أبواب القدس المسمى بباب حارة اليهود[٥]، وتقع هذه الحارة بجوار حارة الصلتين من جهة الغرب وضمنها حارة الريشة وحارة صهيون الجوانية[٦]، والشارع الرئيسي لهذا الحي يسمى شارع اليهود وعلى جانبيه توجد منازل يسكنها اليهود، وهو يصل ما بين شارع داود إلى سور المدينة وليس ببعيد عن بوابة صهيون[٧]، إلا أن الحي لم يكن مقتصراً على اليهود فقط كما ظن بعض المؤرخين، بل سكنه معهم مسلمون، فالوثيقة رقم ٣٣٧ المؤرخة في ٦ رجب ٧٩٦هـ/ ٧ حزيران ١٣٩٤ م، دُونت باسم (قطلو ملك الرومية) التي كانت تسكن في دار خضر الرومي في حارة اليهود، تشير هذه الوثيقة إلى وجود مسجد للمسلمين في هذه الحارة[٨].

---

(1) Adler: Jewish travelers, p.p. 234.

(٢) فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٤٢، ص١٠١٨.

(3) Ibid, p.p. 234-235.

(٤) انظر الوثائق: ٣٣٧، ٤١٣، ٧٠٥، ١٩٧.

Little: A Catalogue, p. 99, 110-111, 154, 172.

(٥) الإمام: مدينة القدس في العصر الوسيط، ص١٣١.

(٦) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٢. انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٦).

(7) Marmorosch: Old and new places in Palestine, Syria and Lebanon Anew cuide-jerusalem, 1946, p.72.

(8) Little: A catalogue, p.99

- Little, (Donald P.): Haram Documents Related to the Jews of Late Fourteenth Century Jerusalem, Journal of Semitic Studies XXX No2 (Autumn 1985) p. 231-232.

تقدم الوثائق بشكل عام صورة حية عن حياة هؤلاء اليهود في القدس وعن ممارساتهم اليومية، فمن خلال الوثائق نعلم أنه كان بإمكان اليهود العمل في المدينة والتملك فيها، كما كان بينهم وبين المسلمين علاقات وأعمال تجارية، ففي الوثيقة ٣٤٤ المؤرخة في ٢٩ رجب ٧٨٣ هـــ / ١٩ تشرين الأول ١٣٨١ م أقرض عطار مسلم بعض اليهود مالاً[١]، وفي الوثيقة رقم ٣٢٧ المؤرخة في ١ شعبان ٧٦٢ هـــ / ٣ كانون الأول ١٣٦٠م، نجد أن يهودياً فرّاءً[٢] اشترى من مسلم بستاناً في ضواحي القدس[٣].

بشكل عام مارس اليهود عملهم بحرية تامة، وسُمح لهم بذبح ذبائح للمسلمين، ولكن عرف اليهود بمكرهم، فلأسباب ما، نجهلها منعوا في عام ٧٩٦هـــ/١٣٩٤م من ذبح الذبائح للمسلمين في القدس، فالوثيقة ٦٣٦ المدونة في ٢٦ جمادى الأول ٧٩٦هـــ/ ٢٩ آذار ١٣٩٤ والتي جاءت على شكل (تعهد حسن سلوك)، يتعهد فيه اليهود بعدم ذبح الذبائح للمسلمين وإن هم خالفوا الأوامر فإن الوثيقة تلزمهم بدفع عشرة آلاف درهم كغرامة[٤].

هذه الوثيقة تلقي الضوء على أن اليهود امتهنوا أعمال هي غالباً ما تكون حكراً على المسلمين في مجتمع إسلامي، ولكن إذا ما قام هؤلاء بأعمال شغب فيمكن منعهم كما ورد آنفاً.

---

(1) Little: A catalogue, p. 211.

(٢) أي كان يعمل بالفراء –صنعةً أو تجارة– انظر، السيوطي: لب اللباب، ص١٩٣.

(3) Ibid, p.285.

(٤) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٦٦.

– صالحية: من وثائق الحرم، ص٧٨.

يختلف كل من العسلي وصالحية في قراءة الوثيقة، فحسب قراءة العسلي فإن الوثيقة منعت اليهود من ذبح الذبائح للمسلمين فقط، في حين أن قراءة صالحية للوثيقة توحي بأن اليهود منعوا من ذبح الذبائح لهم ولغيرهم، إلا أنه كما تبين من قراءة الوثيقة فإن اليهود منعوا من ذبح الذبائح للمسلمين فقط، ولم تلزمهم بعدم ذبحها نهائياً. انظر الوثيقة في الملحق رقم (١٠).

وقد حفظت حقوق اليهود في بيت المقدس، فإذا مات أحدهم تُقام إجراءات مشابهة لتلك التي تُقام عندما يموت أحد المسلمين، ومن ذلك عملية حصر الإرث والممتلكات وتسجيلها لتورّث على حسب القوانين الإسلامية، وتتم هذه العملية بحضور ممثلين عن بيت المال والقاضي والشهود، فعلى سبيل المثال تضمنت الوثيقة رقم ١٩٧ المؤرخة في ٢٩ صفر ٧٩٥ هـ / ١٤ كانون الثاني ١٣٩٣ م، حصر ممتلكات رجل يهودي هو إسحاق بن شمويل الذي كان يسكن بدار القرموني في حارة اليهود، وحددت الوثيقة ورثته وهم (زوجته سمحا وابنته يهودا الافرنجية وأمه دوسا بنت سلتين الإفرنجية)[١]، وقد سجلت هذه الوثيقة بإذن القاضي الشرعي الحاكم بالقدس الشريف، وكدليل على خضوعه لقوانين السلطة الإسلامية في التوريث فإن بيت المال ورث منه عن طريق ديوان المواريث الحشرية[٢].

ومن المحتمل أن يكون هذا اليهودي زائر، ولكن الاحتمال أكبر أنه من يهود أوروبا الذين كثر تدفقهم في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وبخاصة من فرنسا[٣]، ويبدو أنه كان من المثقفين المهتمين بالعلم، فقد عثر بين ممتلكاته على كتب، كما يبدو أنه كان ميسور الحال إذ أنه تعامل بعملة أوروبية هي الأفلوري، والتي تنسب لمدينة فلورنسا الإيطالية، وهي عملة ذهبية[٤]، لكن هذه الحال لم تكن حال كل يهود القدس، فمنهم من كانوا فقراء، وهذا ما أكده عوبديا الذي زار القدس عام ٩٠٣ هـ / ١٤٨٨ م فيقول أن معظمهم فقراء يعيشون في مساكن متداعية[٥].

---

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٤٢.

(٢) تم التعريف بهذا الديوان سابقاً. انظر، الصفحة (١٥)، حاشية (١).

(3) Art Jerusalem: The Jewish Encyclopedia, vol VII. P. 132.

(٤) ورد التعريف بهذه العملة في الفصل الأول في الصفحة (٧٠).

(٥) أرمسترونج: عقائد ثلاث، ص٥٢١.

ومارس اليهود في القدس أعمالاً متنوعة، فالوثائق تذكر أن أحد اليهود كان يعمل فراءً[1]، وآخرون يعملون بالقصابة[2]، وآخر يحوز على عملة أجنبية[3]، فربما كان يعمل بالتجارة، وهي مهنة اليهود الأساسية، كما رأينا أن مسلماً أقرض بعض اليهود مالاً[4]، ربما كان بينهم علاقات تجارية، وفي عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م هاجر إلى القدس شخص يهودي اسمه إسحق بن تشلو، وبعث برسالة إلى والده وأصدقائه يصف فيها حالة اليهود قائلاً: (كثيرون من أفراد الطائفة يعملون بالصناعة، كالدباغة والخياطة وصنع الأحذية وغير ذلك، وغيرهم يعملون في التجارة ولهم حوانيت أنيقة)[5]، وقد عمل بعض اليهود كمرشدين وأدلاء سياحيين للحجاج المسيحيين ومترجمين أيضاً، فيذكر فابري أن اليهود في القدس كانوا يشتغلون بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب، وكان منهم التراجمة والمرشدون السياحيون، وقد رافقتهم أحد اليهود وكان دليلهم[6].

---

(1) Little: A catalogue, p. 285.

(٢) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٦٦.

(٣) العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص٤٢.

(4) Ibid, P. 211.

(٥) زيادة: رواد المشرق العربي، ص ١١٠.

(٦) فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٢، ص٩١٦، ٩١٨، ٩٢١.

ثالثاً ــ العلاقات بين فئات المجتمع:

كان الاهتمام المملوكي بمدينة القدس بالدرجة الأولى دينياً وعمرانياً وثقافياً، كونها مدينة لها قدسيتها في نفوس المسلمين وغيرهم، في حين ضعف الاهتمام بالمدينة سياسياً وعسكرياً بعد احتواء خطر المغول والصليبيين، وعلى هذا فإن أهل الذمة عوملوا على أساس ما نص عليه الشرع الإسلامي، فقد حرص السلاطين المماليك على تحقيق أكبر قسط من الأمن والاستقرار للطوائف الدينية القاطنة في القدس، ولقد عاش كل من أهل الذمة والمسلمين في أمن وحرية في ذلك العصر[١]، وهذا ما دل عليه قول أحد اليهود الذين هاجروا من إسبانية للاستقرار في مدينة القدس عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، وهو اسحاق ابن تشلو، ففي رسالة بعث بها إلى والده، ذكر فيها: (يعيش اليهود هنا – في القدس – في سعادة وطمأنينة، كل بحسب وضعه وماله، وذلك لأن الحكومة عادلة)[٢]، ويؤكد أحد الرحالة المسيحيين أن العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة في القدس في عصر المماليك كانت ودية جداً إلى حد أن الكثير (من المسلمين، نساء ورجالاً، يدخلون كنيسة قبر العذراء)[٣].

وقدمت وثائق الحرم القدسي الشريف صوراً عن التسامح الذي عاشته القدس في عصر المماليك، وأثبتت هذه الوثائق وغيرها من المصادر أن مدينة القدس لم تعرف في تاريخها السلام والأمن والتسامح إلا في ظل حكم المسلمين لها، ولعل مدينة القدس هي المدينة الوحيدة في العالم التي حكمت من قبل أتباع الديانات السماوية الثلاث، فكان حكم المسلمين لها خير دليل على سماحة دينهم، فهي الديانة الوحيدة التي اعترفت بالتعددية وبأتباع بقية الديانات، وتمكنت من احتوائهم، في حين أنكر المسيحيون واليهود على بعضهم وعلى المسلمين حقوقهم، ففي القرن الأول للميلاد اضُطهد السيد المسيح عليه السلام فيها،

---

(١) الإمام: مدينة القدس، ص٢٣٢.

(٢) زيادة: رواد الشرق العربي، ص ١١٠.

(3) Gucci and sigoli: Visit to the holy places, P. 129.

وشهدت المدينة الكثير من الثورات، وحُرم على اليهود فيما بعد سكنها، وفي أثناء الحكم الصليبي لها (٤٩١-٥٨٣هـ / ١٠٩٩-١١٨٧م)، أبيد وقتل كل من هو ليس مسيحي وحرم عليهم دخول المدينة، حتى أنهم اضطهدوا المسيحي الشرقي، وعملوا على محو كل أثر إسلامي في المدينة، وفي أيامنا هذه تلاقي مدينة القدس تحت حكم اليهود ما لاقته تحت حكم الصليبيين من قتل جماعي، وتشريد، وتهجير، وطمس للمعالم الإسلامية والتاريخية، وتزويرها (فيما عرف بالتهويد)، أما تحت حكم المسلمين فالوضع مغاير تماماً، ومن نماذج الحكم الإسلامي للمدينة؛ الحكم المملوكي الذي نحن بصدده، فمن صور التسامح والحفاظ على حقوق الذميين ما أنبأت به الوثائق، فقد تقدم سابقاً ذكر الوثيقة رقم ٣٣٥ سنة ٧٩٥هـ/ ١٨-٢٧ تشرين الأول عام ١٣٩٢ م، فما جاء فيها يشكل دليلاً لا يرقى إليه شك على الحرص لتحقيق العدالة وحماية أهل الذمة، إذ ورد فيها أن شيخ المغاربة تولى بنفسه حماية حقوق أحد اليهود في القدس[١]، وأيضاً وقعت في القدس حادثة مشابهة عام ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م، عندما دب النزاع بين المسلمين واليهود على الكنيس الموجود في حي اليهود، حيث منع المسلمون اليهود من دخوله والتعبد فيه بحجة أنه محدث في دار الإسلام ولا حق لليهود فيه، وبعد أخذ ورد، وعلى الرغم من إثبات المسلمين لحقهم إلا أن السلطان قايتباي أصدر أوامره بتمكين اليهود من كنيسهم[٢].

ومن الصور التي قدمتها وثائق الحرم القدسي والتي تدل على وجود علاقات تجارية وأعمال متنوعة بين أتباع مختلف الديانات الوثيقة رقم ٣٤٤ المؤرخة في ٢٩ رجب سنة ٧٨٣ هـ / ١٩ تشرين الأول ١٣٨١ م (أيضاً سبق ذكرها) إذ يقوم عطار مسلم بإقراض بعض اليهود مالاً، وهذا نوع من

---

[١] صالحية: من وثائق الحرم، ص٩٠.

[٢] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٠٢-٣١٣.

الأعمال التجارية التي كانت قائمة بين الطرفين، وقد تم هذا الأمر في سوق الصلاحية في القدس(١).

واستمرت العلاقات التجارية قائمة بين اليهود والمسلمين، فقد جاء في الوثيقة رقم ٣٢٧ المؤرخة في ١ شعبان ٧٨٧ هـــ / ٧ أيلول ١٣٨٥ م، أن يهودياً فرّاءاً اشترى من رجل مسلم بستاناً في ضواحي القدس(٢).

ونستنتج من الوثيقة رقم ١٥ المؤرخة في ١٦ رمضان ٧٤٣ هـــ / ١٢ شباط ١٣٤٣ أن حي النصارى في القدس سكنه مسلمون إلى جانب المسيحيين، ففي هذه الوثيقة يقوم شيخ مسلم ببيع بيته الذي كان يملكه في هذا الحي لرجل مسيحي(٣)، ويمكن أخذ هذه الوثيقة على شكل مثال يؤكد قيام علاقات تجارية بين المسلمين والمسيحيين أيضاً، لا بل وصلت العلاقة إلى حد المصاهرة، إذ نستنتج من الوثيقة رقم ٣٠٢ المؤرخة في ٢ رجب ٧٩٤ هـــ / ٢٥ أيار ١٣٩٢ م أن جمال الدين بن عبد الله بن منصور بن إبراهيم قد تزوج من سعيدة بنت توما النصرانية ودفع لها صداق قدره ٤٠٠ درهم(٤).

وفي الوثيقة رقم ٣٣٧ المؤرخة في ٦ رجب ٧٩٦ هـــ / ٧ أيار ١٣٩٤ م نجد أن المرأة المسلمة قطلو ملك بنت عبد الله الرومية كانت تسكن في حارة اليهود في دار خضر الرومي، وفي هذه الوثيقة إشارة إلى وجود مسجد في حارة اليهود(٥) وهي دليل بالنتيجة على وجود مسلمين سكنوا حارة اليهود.

ويمكن للباحث أن يلمس من المراسيم التي أصدرها السلاطين المماليك بحق طائفة الرهبان الفرنسيسكان مدى التسامح الذي كان عليه هؤلاء

---

(1) Little: A Catalogue, p.211

(2) Ibid, p.285.

(3) Ibid, p. 277.

(4) Ibid, p. 303.

(5) Ibid, p. 99.

السلاطين، ويضيق المجال هنا لذكر هذه المراسيم فهي كثيرة[1]، إلا أنها بشكل عام كانت تتناول النقاط التالية المهمة:

١. حرية التعبد للرهبان وعدم التعرض لهم في زيارة الأماكن المقدسة التي جرت عادتهم على زيارتها، والتعبد بها، كما تنص على إعفائهم من أية مكوس تجبى منهم على زيارتهم لكنيسة القيامة، وغيرها من المـزارات والمقدسات المسيحية بوصفهم رهباناً منقطعين للعبادة.

٢. معالجة شؤون حياتهم ومعاشهم وتقرير الإعفـاءات الماليـة لهـم فـي الحالات التالية:

- حرية السفر إلى الخارج وحرية العودة إلـى فلسـطين دون جبايـة أي مكوس منهم.
- حرية التنقل لهم ولأتباعهم داخل فلسطين ومعـاملتهم بالحسـنى وبمـا تقتضيه قواعد العدالة.
- عدم جباية أية أتاوات منهم عند قيامهم بترميم منازلهم.
- عدم جباية أية مقررات مالية منهم في مناسبات معينة، كمناسـبة توليـة نائب جديد للقدس، أو مناسبة قدوم رسول من قبل السلطان.
- الإعفاء الجمركي لما يرد إليهم من بلادهم من موارد غذائية، وألا يمنعوا من تقبل الهبات التي تقدم إليه من مواطنيهم في أوروبا.
- عدم فرض أية قيود على نقل المواد الغذائية الخاصة بهم داخل فلسطين، ومن دير إلى دير، ولا سيما النبيذ.
- معالجة شؤونهم الخاصة دون تدخل من أحد.
- ميراث من يموت منهم يؤول إليهم[2].
- عدم التعرض لهم في أموالهم وفي ممتلكاتهم الخاصة.

---

[1] قام بنشر هذه المراسيم الدكتور أحمد دراج في كتابه وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص٤٨-٦٤.

[2] كان بيت المال يرث من أهل الذمة عن طريق ديوان المورارث الحشرية الذي ذُكر من قبل.

- تأمين سلامتهم الشخصية وعدم التعرض لهم بأذى أو مكروه.

٣. عدم مسؤوليتهم إزاء ما يحدث من غارات المتجرّمة في البحر من الفرنج على سفن المسلمين أو على الثغور المصرية والشامية.

٤. بالإضافة إلى مراسيم تتعلق برفع مظلمة معينة عنهم، أو فصل في المنازعات بينهم وبين الطوائف المسيحية الأخرى، أو السماح لهم بترميم كنائسهم وأديرتهم[١].

ولم تقتصر المراسيم على طائفة الرهبان الفرنسيسكان وإنما شملت بقية الطوائف، فعلى سبيل المثال: أصدر السلطان الملك المظفر سيف الدين ططر في ١١ ذي القعدة ٨٢٤هـ/٧ تشرين الثاني ١٤٢١م، مرسوماً للتوصية بالسريان والإحسان إليهم[٢]، وفي ٤ شعبان ٨٢٥هـ/٢٥ تموز ١٤٢٢م أصدر السلطان برسباي مرسوماً حول إعفاءات مالية للسريان ويوصي ببطريرك السريان في القدس والبلاد الشامية[٣]، وأصدر السلطان قاتيباي مرسومين بحق هذه الطائفة، الأول في ١٧ جمادى الآخرة ٨٨٤ هـ / ٥ أيلول ١٤٧٩م، والثاني في ١٣ شعبان ٨٨٦هـ/٧ تشرين الأول ١٤٨١م، في الأول يسمح لمطرانهم بالاستمرار في عاداتهم القديمة في الزيارة للأماكن المقدسة، وفي الثاني يمنع الاعتداء على دير السيد للسريان[٤].

وفي سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً، نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة، أمر فيه معاملة النصارى معاملة حسنة، وألغى ما كان يؤخذ منهم من رسوم عند دخولهم كنيسة القيامة أو عند دخولهم فلسطين عن طريق يافا أو غزة[٥].

---

[١] دراج: وثائق دير صهيون، ص٤٥-٤٧.

[٢] العارف: المسيحية في القدس، ص١٢٦.

[٣] العارف: المرجع نفسه، ص١٢٦.

[٤] العارف: المرجع المتقدم، ص١٢٧.

[٥] دراج: المرجع المتقدم، ص١١٤-١١٥. انظر نص المرسوم في الملحق رقم (25).

ولم يخل الأمر من بعض المنازعات والخلافات الناتجة عن تملك بعض الأماكن الخاصة بالآخرين، أو الخلافات الناتجة عن مناظرات دينية، ولكن كانت هذه تحل مباشرة متى تدخلت السلطات الموجودة في القدس، أو تلك الموجودة في القاهرة، وغالباً ما يكون أهل الذمة هم الذين يخلقون المنازعات، فعلى سبيل المثال ورد في الوثيقة رقم ٦٤٦ المؤرخة في شعبان ٧٩٦هـ/ حزيران ١٣٩٤م اعتداء قام به مجموعة من الرجال المسيحيين في قرية تقوع[١] من أعمال القدس الشريف على رجل مسلم[٢]، وفي عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م قام مجموعة من الرهبان الفرنسيسكان بمسيرة إلى المسجد الأقصى وصمموا على مقابلة القاضي، ولما دخلوا إلى حضرته قاموا بشتم النبي صلى الله عليه وسلم وسبه، فخيرهم المسلمون بعد عملهم هذا باعتناق الإسلام أو بالإعدام، فكان الإعدام[٣]، ووقع حادث مشابه عام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م، أثناء مناظرة بين رهبان فرنسيسكان وعلماء مسلمين، عندئذ أخذ الرهبان يدينون الرسول صلى الله عليه وسلم بأشد الألفاظ فظاظة، مما أدى إلى تدهور العلاقات، وظهر جلياً البغض الذي يكنه المسيحيون الغربيون للمسلمين[٤]، وفي عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م، قام شخص مسيحي بسب الإمام علي رضي الله عنه والسيدة فاطمة زوجته (ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم)، فرفع أمره إلى القاضي، وحكم عليه بسفك دمه[٥].

وعندما كانت السلطنة المملوكة تتعرض لضغط من الدول الفرنجية فإنها كانت تستخدم الرهبان الفرنسيسكان (ممثلين الفرنج بالقدس) كوسيلة تهديد لهؤلاء الفرنج، وقد وقعت مثل هذه الحادثة عام ٨٨١ هـ/ ١٤٧٦ م، عندما

---

[١] تقع قرب بيت لحم. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٨٦.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٢٤.

[٣] أومسترونج: القدس عقائد ثلاث، ص٥١٢.

[٤] أومسترونج: المرجع نفسه، ص٥١٣.

[٥] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣١٧.

هاجم الفرنج الإسكندرية وأسروا أربعة مسلمين، فأمرت السلطات المملوكية بالقبض على الرهبان الفرنسيسكان في دير صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة وأسرهم[١]، وعندما هاجت قوى الفرنج الإسكندرية من رودس عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م[٢] تم اعتقال الرهبان الفرنسيسكان وإغلاق القبر المقدس[٣].

وهذه التصرفات من المماليك كانت نتيجة قيام هؤلاء بأعمال شغب وتجسس لخدمة إخوانهم الفرنج، متجاوزين بذلك مهنتهم الدينية إلى عمل سياسي مناهض للمماليك وللمسلمين[٤]، فكان لا بد للسلطات المملوكية من وضع حد لهم، في حين أنه من الملاحظ عدم وجود مشاكل كثيرة مع المسيحيين الشرقيين، ربما لأنهم تعلموا من المسلمين مبادئ حسن الجوار.

ويمكن القول في النهاية بأن الخلافات التي كانت تقع بين المسلمين وأهل الذمة هي حالات شاذة أو استثنائية، كما يحدث في أي مجتمع، إلا أن الوضع العام السائد آنذاك كان يملؤه جو من التسامح والأمن، فانصرف أهل القدس إلى عملهم وعمرانهم وحياتهم، ولو أنه لم يكن هناك استقرار وأمان لما كان هناك نهضة علمية ملأت كتب الأدب والتاريخ وشتى أنواع العلوم، ولما كان هناك نهضة عمرانية لا تزال آثارها الباقية حتى اليوم تشهد على ازدهار المجتمع آنذاك.

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣١٧.

[٢] حملة الإسكندرية قام بها ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م بمساعدة دول وقوى أوربة بما فيها المدن التجارية الإيطالية، إنطلقت من رودس إلى الإسكندرية ودخلتها ثم انسحبت بسرعة بعدما أعملت فيها القتل والسلب والنهب. انظر، عاشور (سعيد عبد الفتاح): قبرص والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٥٨-٧١.

[٣] أومسترونج: القدس عقائد ثلاث، ص٥١٢.

[٤] دراج: المماليك والفرنج، ص١٢.

رابعاً ــ الرقيق المنزلي:

الرقيق إنسان تحول بالرق إلى مال، يتصرف به مالكه كتصرفه بشيء من أشياءه، فله أن يبيعه ويؤجره، وله أن يرهنه وأن يوصي به، ويرث عنه إذا مات، غير أنه يتميز عن سائل الأموال والممتلكات في أنه ذو روح وإدراك، وأنه يفعل ما يؤمر به، فكانت الفائدة منه أكبر.

وبالرق تسقط حقوق الرقيق القانونية، فلا يحق له أن يتصرف في شيء حتى في نفسه لأنه مملوك في بدنه ونفسه، وفي القوانين والشرائع القديمة، لم يكن محروماً من أهليته القانونية فحسب، بل كان محروماً من حقوقه الإنسانية، كحقه في الحياة وحقه في الزواج، فحياته رهن بإرادة سيده، وليس من حقه أن يتزوج وإنما يتكاثر بالتوالد كالأنعام، ولا ينسب إليه أولاده، ولا تربطه بهم قرابة ولا نسب، فهم ملك سيدهم، ينزعهم منه متى شاء، ويتصرف بهم كما يشاء[١].

---

[١] الترمانيني: الرق، ماضيه وحاضره، مجلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد٢٣، ذو الحجة ١٣٩٩هـ–المحرم ١٤٠٠هـ/ تشرين الثاني ١٩٧٩م، ص١٠٩.

اختلفت الفلسفات القديمة في نظرتها إلى الرق، فأفلاطون ومدرسته صنفت البشر إلى صنفين: يونان عاقلين وبرابرة متوحشين، فكل من لم يكن يونانياً فهو بربري وهو الجدير بأن يكون عبداً لليوناني، ويذهب أرسطو مذهب معلمه في اعتبار الرق نظاماً طبيعياً، ويميز بين اليوناني وغير اليوناني، إلا أنه ظهرت فلسفات ومدارس فلسفية يونانية عارضت أفلاطون وأرسطو ودعت إلى المساواة بين البشر، فلا أغنياء ولا فقراء ولا أقوياء ولا ضعفاء، ولا سادة ولا عبيد.

وبالنسبة للديانات، فالديانة اليهودية تلتقي مع المذهب الأفلاطوني في التمييز بين اليهودي والغريب، فاليهودي لا يُسترق لأن اليهود هم عبيد الله الذين أخرجهم من أرض مصر (أي شعب الله المختار)، أما غير اليهودي – الغريب – فهو وحده الذي يجوز استرقاقه بالحرب أو الشراء ويعامل بعنف ولا يجوز تحريره أو افتداؤه ويبقى رقيقاً أبد الدهر، فاليهودي في نظر اليهودية كاليوناني في نظر أفلاطون وأرسطو.

أما الديانة المسيحية، فقد دعا السيد المسيح عليه السلام إلى المساواة بين الناس، فكانت دعوته خروج على اليهودية العنصرية من أجل ذلك نقموا عليه، وأغروا به الحاكم الروماني، فكان من أمره ما =

وعندما جاء الإسلام اختلف الوضع تماماً، وتبدلت الموازين، فالرقيق وإن كان يعد أدنى من الحر من حيث أنه مملوك، فالإسلام حرم إذلاله، وحث على رعايته والحدب عليه، وقد ضيق الإسلام المدخل إلى الرق ووسع مخارجه، فحصر حالة الرق في الأسرى الذين يقعون في الأسر في أثناء حرب مشروعة، والحرب المشروعة هي قتال من يحارب المسلمين بعد تبليغهم الدعوة، كما أن أبناء الأرقاء يتبعون آباءهم في الرق، ولم يقر الإسلام مصادر الرق الأخرى، أما المخارج من حالة الرق فقد كانت كثيرة[(١)].

= أخبره به الله تعالى، عندما اشتدت حملة الرومان الوثنيين على أتباع المسيح، تخلت المسيحية عن مثاليتها لتستسلم لواقعها، وأعلنت أن المساواة التي تدعوا إليها هي مساواة الروح، أما الجسد فقد خلق لهذه الدنيا وعليه أن يخضع لكل ذي سلطان، فقد جاء في رسالة بولس لأهل رومية (١٣: ١-٢) (لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيُدانون)، وجاء أيضاً في رسالة بطرس إلى أهل أفسس (٦: ٥-٧): (أيها العبيد أطيعوا ساداتكم حسب الجسد، بخوف ورعدة، في بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا خدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد للمسيح، عاملين بمشيئة الله من القلب)، وعلى مبدأ الخضوع المبني على ترتيب هو من أمر الله أقامت الكنيسة شرعية الرق واتبع آباء الكنيسة من بعد هذا المبدأ، وساروا على نهجه، فأباحوا الاسترقاق، وبذلك عدت الكنيسة الرق نظاماً إلهياً، على هذا نجدها في القرن السادس عشر الميلادي تؤيد استرقاق الزنوج ونقلهم إلى أمريكا.

انظر: الترمانيني: الرق، ص٢٠-٢٣، ٢٩-٣٣، ١٥٨.

(١) الرق في الإسلام نظام استثنائي فرضته ظروف الحرب، والإسلام يرى أن الحرية هي الأصل في جميع بني الإنسان، ويولدون أحراراً فلا يجوز استرقاقهم إلا لظرف طارئ يزول بزواله، إلا أنه عندما جاء الإسلام كان الرق نظاماً عالمياً، فعمل الإسلام على علاج هذه الظاهرة على مراحل بغية الوصول مع مرور الزمن إلى إلغائه دون حدوث هزة اجتماعية، فحصر الرق بأسرى الحرب وجعله حالة مؤقتة يزول بالفداء أو العتق، أما طرق العتق فهي كثيرة: ١- العتق بأمر الشرع: فقد جعل الإسلام عتق رقبة كفارة لأحد الأخطاء التالية: أ- القتل الخطأ، ب- الحنث في اليمين، جـ- الظهار، د- الإفطار في شهر رمضان، ٢- العتق لقاء مال يؤديه العبد إلى سيده بعد أن يكونوا قد اتفقوا على ذلك، ويتحرر متى أداه ويسمى هذا الاتفاق (المكاتبة)، ٣- العتق بالوصية: بأن يقول السيد لعبده أنت حر بعد موتي ويسمى ذلك التدبير، ٤- وهناك العتق بأمر الحاكم: إذ آذى السيد عبده، وقد تدخل =

أما عن معاملة الإسلام للرق فقد دعا الإسلام إلى الرفق بهم والإحسان إليهم، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ... وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ ﴾[١]، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ضرب العبد وحض على التجاوز عن خطأه[٢]، وفي طعام العبد وكسوته ومعاملته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، وإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم)[٣].

وفي الرفق بالعبيد قال: (لا يدخل الجنة سيء الملكة)[٤]، أي سيء الصحبة لمماليكه، كما أنه حض على تأديب الأمة وتعليمها والزواج منها، وفي ذلك قال: (أيما رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها وأعتقها وتزوجها فله أجران)[٥]، وبشكل عام حض الرسول صلى الله عليه وسلم على عتق وتحرير العبد فقال (أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله به بكل عضو منه، عضواً منه من النار)[٦].

= النبي صلى الله عليه وسلم في حالة مشابهة وحرر عبداً آذاه مولاه في بدنه. انظر: الترمانيني: الرق، ص٧٥-٨١.

النباهين (علي سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨١م، ص٩٣-٩٥.

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٢) النووي (يحيى بن شرف: ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م): رياض الصالحين، تح: شعيب الأناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ لبنان، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٤٥٤.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، ص ٤٤٩.

-الترمذي (محمد بن عيسى، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تح: مصطفى حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ج٤، ص١٠٨.

(٤) الترمذي: المصدر المتقدم، ج٤، ص١٠٨.

(٥) البخاري: المصدر المتقدم، ص٤٤٩.

(٦) البخاري: المصدر المتقدم، ص٤٤٤.

وتتميز الشريعة الإسلامية عن غيرها في أنها سوت بين الحر والعبد في حقين عظيمين: في الإمامة بالصلاة، وفي حق العبد أن يجير العدو المستأمن إذا استجار به، وذهب بعض التابعين إلى أن الحر يقتل بالعبد، واعترفت الشريعة الإسلامية للعبد بحقه في الزواج ممن يختارها، وذهب بعض الأئمة إلى التسوية بين الحر والعبد في الشهادة، وبعضهم ذهب إلى التسوية بينهم في القضاء[١].

وفي التاريخ الإسلامي توفرت ظاهرة في المشرق والمغرب الإسلامي وفي الأندلس، هي ظاهرة الرق العسكري، ذلك أن رجال السلطة من خلفاء وسواهم أقبلوا على شراء غلمان صغار بين العاشرة والخامسة عشر من العمر، يتم تجنيد هؤلاء وتدريبهم بشكل جيد، ثم ينخرطوا في الجيش، وكانوا يقيمون في ثكنات خاصة بهم، ويتعلمون اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ففي المشرق كان معظم هؤلاء الغلمان في البداية من العناصر التركية، ثم توفرت فيما بعد بعض أكراد الديلم، ولكن بشكل أساسي كان هؤلاء الغلمان أتراكاً من بلاد القفجاق، والقرم، والقوقاز، وتركستان، ومنغوليا، وبلاد ما وراء النهر.... الخ[٢]، ومن أسباب توفر هذه العناصر التركية هو كثرة الحروب في مناطقهم بين القبائل التركية، أو بسبب فقر البيوت التركية، فيقومون ببيع أولادهم لتجار الرقيق[٣]، أما بالنسبة للمغرب أو الأندلس فكان الرقيق هناك جلهم من الصقالبة الذين اشتهروا في أوروبا باسم السلاف.

وقد ظهرت حالة الرق العسكري منذ القرن الثاني للهجرة عندما استقدم الخليفة العباسي المعتصم بالله أفواجاً من الرقيق الأتراك، كان يشتريهم من بلاد

---

[١] الترمانيني: الرق، ص١١٠-١١٢.

[٢] النباهين: نظام التربية، ص١٠٢-١٠٣.

- ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، ج١، ص١٢.

[٣] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٦.

ما وراء النهر، يجندهم ويجعل منهم قادة ورؤساء[1]، ولكثرتهم وتضايق الناس منهم بنى لهم المعتصم مدينة سامراء وأسكنهم بها[2].

وسرت عادة تجنيد الرقيق وامتدت إلى المغرب والأندلس، ففي الأندلس، كان الحكم بن هشام (١٥٤-٢٠٦ هـ / ٧٧١-٨٢١ م)، أول من جند المماليك وكان يسميهم بالخرس لعجمتهم[3]، وتبعه بعد ذلك المنصور بن أبي عامر فاستكثر منهم[4].

ورأينا كيف توسع خلفاء صلاح الدين من بني أيوب في شراء المماليك، حيث اعتمدوا عليهم في تثبيت حكمهم، وبالتالي تضخم نفوذ المماليك السياسي في جسم الدولة الأيوبية وخاصة في مصر التي أصبحت آهلة بالترك، ففي عهد نجم الدين أيوب كان منهم (أقمار كواكبها، وصدور مجالسها، وزعماء جيوشها، وعظماء أرضها)[5]، حتى ورث المماليك الأيوبيين في حكم البلاد التي كانت تحت أيديهم، وسار العثمانيون على نهج من سبقهم، فأنشأ السلطان العثماني أورخان بن عثمان (٧٢٤-٧٦٠ هـ / ١٣٢٤-١٣٥٩ م) الجيش الإنكشاري (أي الجيش الجديد)، وتألف هذا الجيش من أبناء الدول المفتوحة، يأخذهم

---

(١) المسعودي (علي بن الحسين، ت٣٤٦هـ/٩٥٦م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: قاسم الرفاعي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ج٤، ص٥٣.
- ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٨٥.

(٢) المسعودي: المصدر المتقدم، ج٤، ص٥٣-٥٤.
- ابن تعزي بردي: المصدر المتقدم، ج٢، ص٢٨٤.
- الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٩٦-١٩٧.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٤٠-٣٤٢.

(٤) ابن خلدون (عبد الرحمن: ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن والحواشي. خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٤، ص ١٨٧-١٨٨.

(٥) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج٤، ص٤٥٦.

العثمانيون وينشؤوهم تنشأة عسكرية في مدارس خاصة ثم ينخرطوا في سلك الجيش[١].

لا نريد الاستطراد في موضوع الرقيق العسكري، فقد نال من الدراسة والاهتمام الشيء الكثير، أما الرقيق المنزلي فالوضع بالنسبة له مغاير تماماً، فقليلة هي المصادر التي تحدثت عنهم، ولحسن الحظ أن وثائق الحرم القدسي قد تحدثت عنهم، وعكست صوراً جديدة لم تتوفر من قبل عن وضع الرقيق المنزلي في المجتمع المسلم، فمنها يستطيع الباحث أن يستقي معلومات جديدة عن الرقيق في القدس في العصور الوسطى، فيما يخص عرقهم ومصدرهم، ووضعهم الشرعي والقانوني والاجتماعي، ومن كان يملكهم، وأثمانهم وغير ذلك.

لقد كان الحكم المملوكي قائماً على الرقيق العسكري، فالمماليك جيء بهم من بلاد القفجاق والقرم والقوقاز... الخ، أما الرقيق المنزلي فإن المصدر الأساسي له هو إفريقية السوداء وعلى الأخص النوبة والحبشة[٢].

---

[1](Painter)Sidney: A History of the Middle Ages 284-1500 papermac 45, ondon-Meibourne Magmillan. 1965, p.54.

[٢] إن معظم العبيد الذين ورد ذكرهم في وثائق الحرم من هذا الأصل. انظر:

- الوثيقة رقم ٣١٦ المؤرخة في ١٤ صفر ٧٨٣هـ/ ١٠ نيسان ١٣٨١م. ورد فيها (العبد السحرتي الجنس) والسحرتي نسبة إلى سحرت، أحد الأجناس الموجودة في الحبشة. انظر،

Little: Six Fourteenth, p.319

- والوثيقة رقم ٢٩٨ المؤرخة في ٤ شوال ٧٩٥هـ / ١٣ آب ١٣٩٣م ورد فيها (العبد الرقيق النوبي الجنس).
- والوثيقة رقم ٥٧٤ "آ" المؤرخة في ٢٤ رمضان ٧٨٧هـ / آب ١٣٨٥م ورد فيها (الجارية النوبية الجنس).
- والوثيقة رقم ٣٨٢ المؤرخة في ١٧ رجب ٧٨٤ هـ/٢٦ أيلول ١٣٨٢م ورد فيها (الجارية التكرورية الجنس) والتكرورية مؤنث تكروري والجمع تكارتة، وهم من الأفارقة السودان سكان بعض أجزاء السنغال وبوندو.

انظر، العسلي، وثائق مقدسية، ج١، ٢٥٢، ج٢، ص١٥٢،١٤٩،١٤٧.

وتجب الإشارة إلى أن الرقيق المنزلي كان أسود البشرة، والأدلة على ذلك كثيرة، فبالإضافة إلى أصلهم الإفريقي، استخدمت الوثائق في وصفهم مصطلح العبد، وفي التاريخ الإسلامي استخدمت كلمة (عبد) للدلالة على الرقيق الأسود البشرة، في حين استخدم مصطلح مملوك للدلالة على الرقيق الأبيض البشرة[١] الذي كان يعمل بشكل رئيسي في الخدمة العسكرية (المماليك والصقالبة)، ولكن هناك في وثائق الحرم إشارة وحيدة واستثنائية تدل على وجود مملوك يعمل في الخدمة المنزلية، ففي الوثيقة رقم ٦٤٩ المؤرخة في ١١ ذي القعدة ٧٩٣هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٣٩١م ورد اسم (بلبان) على أنه مملوك يعمل في الخدمة المنزلية عند أيتام البدري بن مزهر[٢].

كما أننا يمكن أن نستخلص من هذا أيضاً أن تجارة الرقيق واستعبادهم كانت رائجة في مجتمع بيت المقدس آنذاك وهي ظاهرة لا تحمد.

أما بالنسبة لوضع هؤلاء الاجتماعي، وعلى حسب الإشارات التي وردت في الوثائق، فإن هؤلاء العبيد كانوا يعدون سلعاً لا تختلف عن غيرها من السلع والممتلكات إلا من حيث الوصف، - أي وصفهم أثناء البيع والشراء، وهو أمر مطلوب شرعاً لتوضيح السلعة - [٣]، ففي عقود البيع والشراء الخاصة بالعبيد يرد في وثائق الحرم أن فلاناً اشترى (جميع العبد)[٤] أو (جميع الجارية)[٥]، كما لو أنه استأجر (جميع الحمام)[٦]، أو اشترى (جميع الأرض)[٧]، أو أنه

---

[١] ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج١، ص١١.
- زيتون (عادل): تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ط٨، ٢٠٠١-٢٠٠٢، ص١.
- الدباغ: الموجز في تاريخ الدول الإسلامية، ج١، ص٣٧-٣٨.

[٢] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٢٥.

[٣] السيوطي: جواهر العقود، ص٤٩-٥٠.

[٤] انظر الوثيقة رقم ٣١٦، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٤٧.

[٥] انظر الوثيقة رقم ٥٧٤ "آ"، العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٥٢.

[٦] انظر الوثيقة رقم ٤٦، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٤٥.

[٧] انظر الوثيقة رقم ٣٦٧ "ب"، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٤٨.

أوقف (جميع الدار)[1]، وتشير الوثائق إلى أن ملكية العبد كانت كالمتاع، يمكن بيعه بشكل مباشر[2]، أو عن طريق وكلاء[3]، ويمكن أن تنتقل ملكية هذا العبد بالوراثة لأكثر من شخص، مثل أي ملكية أخرى، ولا يصح بيعه إلا بعد موافقة جميع مالكيه[4].

وتمتع الرقيق المنزلي بوضع قانوني وشرعي، وكانت المحاكم تعقد لأجلهم، ويحضر الشهود والقضاة ويُدلي كلٌ بحجته، ويمكن أن نسوق شاهداً على هذا: فالوثائق ٣١، ٣٢، ٦٥٠ تتعلق بأربعة من الرقيق وبمحاكم عقدت لأجلهم، فقد ادَّعى هؤلاء الأربعة وهم: الطواشي[5] عنبر ومبارك ومباركة وانشراح، أن سيدهم كان قد أعتقهم قبل وفاته، وعلى هذا طالبوا المحكمة بتحريرهم، وتم عقد جلسة عند القاضي الشرعي بالقدس ورد محضر هذه الجلسة في الوثيقة رقم ٣٢ المؤرخة في العشر الأخير من شهر صفر ٧٩٧هـ/١٦-٢٥ كانون الأول ١٣٩٤م، إلا أن أحد الموجودين وبعد مداولة القضية ادعى بأن سيدهم كان قد مات قبل أن يبلغ سن الرشد، وبذلك يكون العتق قد أنكر نفسه، فهو غير شرعي[6].

صحيح أن المحكمة لم تحكم لصالحهم، ولا نعلم مدى صحة هذا الادعاء ولا هذه الحجة، ولكن يمكن أن نستدل من هذا على أنه كانت تعقد لهم المحاكم

---

[1] انظر الوثيقة رقم ٨٣٣، العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٣٥.

[2] انظر الوثائق ٥٧٤ "آ"، ٥٧٤ "ب"، ٣١٦، العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٤٧، ١٥٢، ١٥٤.

[3] انظر الوثيقتين ٦٤٩، ٢٩٨، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٩،٢٥.

[4] راجع الوثيقتين المتقدمتين(٢٩٨،٦٤٩).

[5] الطواشي تعني الخصي. انظر، السبكي (عبد الوهاب بن علي ت ٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣٨.

[6] العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٢١.

وينظر في الدعاوى التي يقدمونها، وتصدر في حقهم الأحكام، وعلى الأرجح لو أنهم أثبتوا صحة ادِّعائهم لتم عتقهم[١].

ولكن بشكل عام يمكن القول: إن العبيد الذين كانوا يعيشون في القدس كانت فرصهم في العتق والتحرر من العبودية كبيرة، فمن بين ٢٣ عبداً ورد ذكرهم في وثائق حصر الممتلكات، لم يَبْقَ منهم في ظل العبودية حتى وفاة مالكيهم إلا ثمانية فقط[٢]، وهناك أكثر من إشارة إلى جواري يتم عتقهن وتزويجهن ومن ثم يتم توريثهن وتمليكهن[٣]، لا بل هناك عائلات كان فيها الأب والأم عبيداً، حرروُا وتزوجوا، وخَلَّفوا أسراً لها وضع قانوني لا يختلف شيئاً عن باقي الأسر المقدسية، فالوثيقة رقم ١٢٣ المؤرخة في ١٨ ذي الحجة ٧٩٥ هـ / ٢٥ تشرين الثاني ١٣٩٣ وهي وثيقة حصر موجودات لامرأة كانت عبدة وتم تحريرها، ومن بين ورثتها زوجها الذي يتضح أنه كان عبداً

---

[١] وهذه مقارنة بين الوضع القانوني لهؤلاء العبيد في المجتمع المسلم وبين الوضع القانوني للعبيد في المستعمرات الإنكليزية في أمريكا، ففي عام ١٦٣٨م وضعت مستعمرة كارولينا الإنكليزية في أمريكا أول قانون للعبيد جاء فيه: أن العبد لا نفس ولا روح، وليس له فطانة ولا ذكاء ولا إرادة، وأن الحياة لا تدب إلا في ذراعيه، وقد جعل القانون للسيد سلطة مطلقة على عبده الزنجي، فله أن يتصرف فيه بالبيع والإيجار والرهن والمقاصّة، وله أن يقامر عليه، ولا تثريب على السيد إذا قتل عبده، ويعدم العبد إذا ضرب سيده أو سيدته أو عصى لهما أمراً، ويعدم إذا قتل رجلاً أبيضاً ولو دفاعاً عن نفسه، ولا تُسمع حجته، ويكفي أن يكون زنجياً حتى يدان ويعدم، ولا يجوز للعبد أن يحمل سلاحاً، ويعدم إذا حمله، كما لا يجوز له أن يخرج من مزرعة سيده إلا بإذن كتابي يحمله بيده، ويعدم إذا خرج بدون هذا الإذن، ولكل أبيض يلقاه أن يعيده إلى سيده بعد أن يجلده عشرين جلدة، وليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن سيده وبمن يختارها له، ويملك السيد أولاده، وله أن يفرقهم عن أبويهم إذا شاء بيعهم أو بيع أبويهم، وللسيد أن يستمتع بزوجة رقيقه وبأية من زنجيات مزرعته، وفيما بعد اقتبست معظم المستعمرات الجنوبية هذا النظام وحذت حذوه. انظر، الترمانيني: الرق، ص١٦١-١٦٢.

[2] Lutfe: A Studi, p.307.

[٣] لقد تكررت هذه الحالة في عدد من الوثائق منها الوثائق ٦١٣، ٥٨٦، ٤٥٧، ٦٧٩. انظر، العسلي: المرجع المتقدم،ج٢، ص١٤٢، ١٥٨ وانظر .Little: A Catalogue, P. 122, 217-218.

وتم عتقه[١]، وتتكرر الحالة نفسها في الوثيقة رقم ٥٧ المؤرخة في ٢٧ شوال سنة ٧٩٣ هـ / ٢٧ أيلول ١٣٩١ م[٢].

ونستنتج من أسماء المالكين للرقيق المنزلي ومن مكانتهم الاجتماعية أن الرقيق المنزلي كان ظاهرة منتشرة في القدس، فهؤلاء المالكين لم يكونوا على ما يبدو من الطبقة الأرستقراطية، أو من الملاّكين الكبار، ففي إحدى الوثائق نجد أن رجلاً من عامة الناس هو الصدر الأجل علم الدين سليمان بن المرحوم شمس الدين جبرائيل المصري الحاضر بالقدس الشريف، كان يمتلك رقيقاً باعه للتاجر الحموي ناصر الدين[٣] – ذُكر هذا التاجر سابقاً –، وفي وثيقة أخرى نجد أن رجلاً من أهالي القدس ومن بني الحارث (الذين أسكنهم صلاح الدين قرب القلعة) يشتري عبداً من ورثة رجل تركي[٤]، وفي وثيقة أخرى كان هناك شيخ مُدَرِّس في الأقصى يشتري جارية[٥]، وفي وثيقة ثانية شيخ آخر يبيع جارية[٦].

أما عن أسعار العبيد في ذلك العصر فقد تراوحت بين ثلاثمائة درهم دمشقي ثمناً للعبد الرقيق النوبي الجنس المراهق المدعو رشيد[٧]، وفي وثيقة ثانية كان ثمن الجارية مباركة أيضاً ثلاثمائة درهم[٨]، وبين خمسمائة وخمسين درهماً ثمن جارية نوبية أخرى اسمها مباركة أيضاً[٩].

---

(1) Little: A Catalogue, p.72.

(2) Ibid, p.63.

(٣) الوثيقة ٣١٦، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٤٧.

(٤) الوثيقة ٢٩٨، العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٤٩.

(٥) الوثيقة ٥٧٤ "آ"، العسلي، المرجع المتقدم، ج٢، ص١٥٢.

(٦) الوثيقة ٥٧٤ "ب"، العسلي، المرجع المتقدم، ج٢، ص١٥٤.

(٧) الوثيقة ٢٩٨.

(٨) الوثيقة ٣٢، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٢١.

(٩) الوثيقتين ٥٧٤ "آ" و ٥٧٤ "ب".

الفصل الثالث: المرأة المقدسية

أولاً: مكانة المرأة في مجتمع بيت المقدس

ثانياً: الحقوق المدنية والشرعية التي تمتعت بها المرأة المقدسية.

ثالثاً: الزواج وحالاته.

رابعاً: النشاطات الاجتماعية للمرأة المقدسية.

تمهيد:

إن موضوع البحث في حياة النساء في العصور الوسطى من المواضيع الجديدة التي لم يُطرق بابها إلا منذ عهد قريب، وذلك عائد إلى أن مؤرخي العصور الوسطى (الأعمال الأدبية) كانوا يهتمون بشكل رئيس بالأحداث المهمة، وشخصيات تلك الأحداث، بغض النظر – في معظم الأحيان – عن حياة العامة، وبصورة أخص؛ المرأة، التي لم تكن ذات شأن في النزاعات والقضايا السياسية والعسكرية –محور اهتمام المؤرِّخين–، وإنما كان المنزل هو محيطها، ناهيك عن أن مؤرخي العصور الوسطى كانوا رجالاً.

إن وثائق حقبة البحث (بوصف الوثائق مصدر تاريخي مهم) – باستثناء وثائق الحرم القدسي الشريف – هي إلى حدٍ ما وثائق حكومية، تسجل أعمالاً رسمية، مثل معاهدات سياسية وتجارية مع قوى ودول خارجية، ومراسيماً للأقليات الدينية، ومراسيماً بشأن أمور داخلية كضرائب، وأبنية، وأوقاف .... الخ، أما وثائق الحرم، فقد تناولت أناساً عاديين، وسجلت إجراءات قانونية وتجارية فيما بينهم، وسجلت قيود زواج وطلاق وقصص و قضايا ..... الخ، حتى أنه عُثِرَ فيما بينها على وصفة طبية، وبالنسبة لموضوع بحثنا وهو المرأة المقدسية، فالوثائق تتيح لنا التعرف على أدوارهن، وعلى وضعهن الاجتماعي والاقتصادي، وعلاقتهن بالمجتمع، وحقوقهن وواجباتهن الشرعية، وصلاحياتهن، ونظرة المجتمع إليهن.

أولاً: مكانة المرأة في مجتمع بيت المقدس:

المرأة نصف المجتمع، ولم يقتصر دورها على التكاثر والإنجاب، فمنذ بدء الخليقة ويدها في يد الرجل تضرب معه في الآفاق شرقاً وغرباً بحثاً عن لقمة العيش، وفي التاريخ عرفناها أماً وملكة وفارسة ومحاربة ومعلمة...، ولكنها أجبرت في عصور الانحطاط على التماشي مع التقاليد العمياء، إلى أن حررها الإسلام وأعطاها مكانتها، وأشغلها دورها الذي خُلقت من أجله، ومن خلال الألقاب التي تناقلتها المصادر يمكن أن نتعرف بعض الشيء على ما كانت تتمتع به المرأة المقدسية بشكل خاص والمرأة المسلمة بشكل عام، فقد أُطلق على المرأة في عصر المماليك من أمهات وزوجات وبنات ألقاباً (من باب الفخر والتزكية والثناء والتعظيم)[1]، وكثيراً ما نسمعهم ينعتونها بـ: ست الخلق، ست العيال، ست الناس، ست الأجناس، ست القضاة، ست التجار، ست العلماء، ست العرب، ست الكل، ست الستات، ست الحكام، ست الضحى، أم الحُسن، أم البركات، أم الخيرات، عظمة الدين، الزهراء، تاج النساء، اللطيفة، الجميلة، ست الأهل، ست النظر، المصونة، الست المصونة، نور الله، سعود، ست اليُمن، الحاجة الجليلة... الخ[2]، وقد نُعتت المرأة في عقد نكاحها- حسب ما جاء في

---

[1] ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، ت ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م) : المدخل إلى الشرع الشريف، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج١، ص٢٣٨.

[2] ابن الحاج: المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٨.

- عاشور (سعيد عبد الفتاح): المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص١٣١.
- العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٥٦، ٢٣٥، ٢٥٥، ج٢، ص١١١، ١٢٠، ج٣، ٥٦.
- صالحية : ومن وثاق الحرم، ص١٠٤.
- أحمد (عبد الرزاق أحمد): المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٢.

إحدى الوثائق- بـــ((الســت المصــونة والــدره المكنونـــة، ذات الحجــاب المنيــع والســتر الرفيــع صــاحبة النســب العــالي المصــون الســت ....))[1]

وتدل وثائق الحرم القدسـي الشـريف أن المـرأة نالـت مكانتهـا فـي مجتمع بيت المقدس، فلم تنكر حقوقهـا، ولـم نلمـس فـي الوثـائق جهـل أواخر العصور الوسطى في معاملة النسـاء، وعنـدما نقـرأ وثـائق الإرث وحصر الممتلكات نجد أن معظمهـا ورّثـت النسـاء مـن أمهـات وبنـات وزوجات وأخوات[2]، ومن المظاهر التـي تُوَضّـح مكانـة المـرأة توصـية بعض الرجال بأن ترث نسائه كامل إرثه وإن لـم تكـن تسـتحقه بأكملـه[3]، هذا من باب تقديره وخوفه علـى مسـتقبلها، وفـي بعـض الحـالات كـان يقوم بعض الرجال الميسوري الحال بتجهيز العـروس بجهـاز قـد لا يقـدر عليه عامة المجتمع[4].

ونالت المرأة في مجتمع بيت المقدس من الثقة مـا دفـع بالرجـال إلـى الاعتماد عليهن وإسناد الوصـايا لهـن للتصـرف بمـالهم -كمـا سـيتبين لاحقاً-.

وحرص مجتمع بيت المقدس على صـون حقـوق المـرأة، فلـم تجـد غضاضة في المطالبة بحقها عن طريق رفع قضـيتها إلـى القضـاة، وفيمـا

---

[1] العسلي: وثائق مقدسية، ج٣، ص٥٦.

[2] للتأكد من ذلك انظر، العسلي : المرجع نفسه، ج١، ص٢٦٣، ٢٦٥، ج٢، ص٤٨.

- صالحية: من وثائق الحرم، ص٩٩، ١٠٥.

[3] انظر، الوثيقة رقم ٢٢٠ المؤرخة في ١٠ شعبان ٧٩٥ هـ/ ٢١ حزيران ١٣٩٩ م،حيث أقر أحمـد بن موسى البصراوي بأن زوجته خديجة تستحق كامل إرثه.

- صالحية: المرجع نفسه، ص٩٦- ١٠٠.

[4] انظر، الوثيقة رقم ٢٠٩ المؤرخة في ١ شوال ٧٨٨ هـ / ٢٦ تشرين الأول ١٣٨٦ م. حيث جهـز ناصر الدين الحموي ابنته فاطمة التي أصبحت زوجاً للشيخ محمد المعاني.

- العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٢٠.

هو آتٍ سنرى أن المرأة المقدسية باعت واشترت من مالها، ووكّلت ووُكلت، وعلّمت وعملت، ووصت ووُصيت، وهذا خير دليل على المكانة الجيدة التي تمتعت بها المرأة المقدسية في مجتمعها في ذلك العصر.

ويمكن تلخيص هذا بالقول بأن المرأة شاركت في الحياة العامة شأنها شأن الرجل، فأخذت موقعها الصحيح في مجتمعها، وشاركت فيه بفعالية عالية، فكانت تخرج إلى الأسواق لشراء مستلزماتها، حتى إنه لتجد في بعض الأيام المخصوصة في بعض الأسواق النساء أكثر من الرجال، فمن يمر بالسوق من الرجال لا يقدر على المشي فيه إلا بمشقة لزحمة النساء[1]، وكانت المرأة تذهب إلى الحمامات العامة لتستحم وتجتمع مع غيرها من النساء[2]، ناهيك عن المشاركات العلمية والثقافية وكل ذلك سيتم توضيحه، وتتضح المكانة أكثر عندما نتحدث عن حقوقها الشرعية والمدنية وعن نشاطاتها.

---

[1] ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٢٧٤، ج٢، ص٥٤.

[2] ابن الحاج: المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٢-١٧٣.

ثانياً: الحقوق المدنية والشرعية التي تمتعت بها المرأة المقدسية:

إن رقي المجتمعات يقاس بمدى اهتمامها بالمرأة، ومنحها حقوقها والوقوف عند واجباتها، إذ أن المجتمع الناجح لا يمكن له الاستمرار في نجاحه ما لم تساهم فيه المرأة وتقوم بدورها الذي شرعه الله لها، فالله عندما خلق البشرية خلق الجنسين، الذكر والأنثى، ولو أن البشرية كان بإمكانها الاستمرار بجنس واحد دون الآخر لما خلق الله جنسين، ولكن في الحقيقة لكلٍ دور لا يمكن للآخر القيام به، وإذا ما حاول أحد الجنسين القيام بمهمة الآخر في هذه الحياة فإنه بلاشك سيفشل ،لأنه مخالف للفطرة وللمهمة التي كُلِّفَ بها من قبل خالقه، فالمرأة شريكة الرجل في الحياة وساعده الأيمن في تحمل المصائب.

وعلى الرغم من القيود الاجتماعية التي كانت تقيد المرأة، فإن الوثائق تبين أن المرأة المقدسية في عصر المماليك تمتعت بوضع قانوني جيد، وأنه كان بإمكانها أن تقوم بإجراءات مستقلة في مجال الأعمال، وأنها كانت أحياناً تقوم بأعمال هي في العادة من أعمال الرجال، فالوثائق تضع بين أيدينا معلومات عن حقوق وأعمال تَمتَّعَتْ بها النساء وقمن بها،ولم تأت المصادر التقليدية على ذكرها أو الإشارة إليها.

بداية سنأتي على ذكر حقوق المرأة المالية، فمن الواضح أن بعض النساء قد تمتعت باستقلال اقتصادي، وكان لها كامل الحق في البيع والشراء(أي المتاجرة بصورة مصغرة)، فالوثيقة ٤٢ المؤرخة في ٢٧ رمضان ٧٥٦ هـ/ ١٥ تشرين الأول ١٣٥٥ م، قد سَجَّلَتْ شراء الحاجة زاهدة بنت إدريس لدكاكين من الشيخ عبد الله بن محمد [1]،

[1] Little: Acatalogue. P.P. 279-280

وفي الوثيقة رقم ٤٣ المؤرخة في ٤ رمضان ٧٨٥ هـ/ ٣١ تشرين الأول ١٣٨٣م اشترت خديجة المصرية من أخيها بيتاً في باب حطة، بمبلغ ٢٥٠ درهماً دمشقي[١]، وكان عند إحدى النساء واسمها (شيرين) مطلقة الشيخ برهان الدين الناصري من الإمكانية الاقتصادية ما سمح لها بشراء جارية بملغ ٤٨٠ درهم، وقد تَمَّ نعتُها بالحاجَّة أي أنها قامت بالحج إلى مَكَّة وكان هذا يتطلب منها أيضاً قدراً كبيراً من المال[٢]، وقد خَوَّلَتْ القدرة الشرعية والمادية التي تمتعت بها إحدى النساء من أن توقف عمارة مستجدة بحارة المغاربة على الفقراء والعجايز[٣]، وهناك العديد من الوثائق التي سَجَّلَتْ عمليات شراء قامت بها نساء مقدسيات[٤]، ويبدو أن بعض نساء القدس قد امتهنّ التجارة، فقد باعت الحاجة طيبة زوج أبي بكر المصري في الوثيقة ٣٥٢ المؤرخة في ١٥ صفر ٧٧٧ هـ/ ١٦ تموز ١٣٧٥ م داراً مجاورة لطاحون الباسطي للحاج محمد بن الحاج أحمد القاطن بالقدس وذلك لقاء بمبلغ وقدره ٤٥٠ درهماً[٥]، وباعت مريم بنت أبي بكر الرومية التركمانية في الوثيقة رقم ٦١٩ المؤرخة في ١٥ ذو القعدة ٧٨٠ هـ/ ٣ آذار ١٣٧٩م لمحمد بن أحمد الحاج داراً في قناطر الخضير في القدس بمبلغ ٨٢٠ درهم[٦]، وفي الوثيقة رقم ٣٢٣ المؤرخة في ١٢ شوال ٧٦٣

---

(1) Little: A Catalogue, P. 281.

(٢) الوثيقة ٣٨٢، المؤرخة ١٧ رجب ٧٨٤ هـ/ ٢٦ أيلول ١٣٨٢ م العسلي : وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥١.

(٣) الوثيقة ٨٣٣، المؤرخة ٢٥ ربيع الأول ٧٤٧ هـ/ ١٦ تموز ١٣٤٦ م العسلي : المرجع نفسه، ج١، ص٢٣٥- ٢٣٦.

(٤) للتعرف على بعض هذه الوثائق. انظر، Ibid, p.p. 281, 289, 293.

(5) Ibid،P. 286.

(6) Ibid، P. 293.

هـ/ ٤ آب ١٣٦٢م ظهر أن .... بنت عبد الله كانت تمتلك أرضاً زراعية، وتتولى عملية بيع غراس العنب والتين والتفاح فيها، فقد اشترى منها الحاج محمد بن محمد حسب ما جاء في الوثيقة هذه غراس بمبلغ ٣٠٨ دراهماً [١] . وغير هذه هناك العديد من الوثائق التي دَوَّنَتْ عمليَّات بَيْع قامت بها النساء المقدسيات[٢].

وكان بإمكان المرأة في بيت المقدس أن توكل أحد أقاربها، أو بعبارة أوضح تعينه وصياً على ممتلكاتها، وله حق التصرف نيابة عنها، فقد عينت عائشة بنت الحاج إسماعيل عمها الحاج أحمد بن عثمان وصياً على ممتلكاتها، حسب ما جاء في الوثيقة ٣٤٠ المدونة في ١٤ رمضان سنة ٧٧٧هـ/ ٦ شباط ١٣٧٦م[٣]، وعينت فاطمة بنت يلبغا أمها هرسا وصية على ممتلكاتها على ما جاء في الوثيقة ٦٣٣ المؤرخة في١٥ربيع الأول سنة ٧٩٥ هـ/٢٩ كانون الثاني١٣٩٣م[٤].

وإذا ثبت أن الموكل ليس موضع ثقة كان للمرأة كامل الحق في عزله لعدم كفاءته دون تردد أو حرج حتى ولو كان أباً أو أخاً، ففي الوثيقة رقم ٧١٠ المؤرخة في ٦ رمضان سنة ٧٩٥ هـ/ ٦ تموز ١٣٩٣م عزلت فاطمة بنت الشيخ برهان الدين البعلبكي أباها المذكور عن الوكالة (وأنه ليس بوكيل لها في أمر من الأمور .... وأنه كما وكلته فهو معزول ...)[٥].

---

(1)Little: A Catalogue, p.p. 283-284.

(٢) للتعرف على بعض هذه الوثائق. انظر، Ibid, P. P. 292-293

(3)Ibid, P. 314.

(4)Ibid, P. 314.

(٥) العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٦٠ .

وفي مثال آخر جاءت به الوثيقة رقم ٢٧٨ (لا تحمل هذه الوثيقة تاريخاً) نجد امرأة تتخذ خطوات لتصحيح إجحاف أدركت أنه يحل بها، وقد رفعت قضيتها إلى القاضي مدعية بأن أخاها قد أخل بشرط الوقف الذي أوقفه والدهما لمصلحة ذريّته، متسائلة هل يجوز هذا شرعاً، وطالبة من القاضي إنصافها[١].

ولكن الجديد في هذا المضمار أن المرأة نالت من الثقة ما جعل المجتمع يعتمد عليها في التوكيل والتوصية لتتولّى إدارة ممتلكات وعائلات، ولو أن المرأة المقدسية لم تُحسن هذه المهمة، ولم تكن أهلاً لهذه الثقة، لما تكررت في الوثائق مثل هذه الحالات، ففي الوثيقة ٨٤٩ المدونة بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ٧٩٦هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٣٩٤م عيّن الحاج علي بن بدر الدين الدمشقي الحاضر بالقدس، زوجته فرحية بنت شهاب الدين وصية على ممتلكاته[٢]، كذلك الأمر عيَّن التاجر الخوارزمي المقيم في القدس شرف الدين محمود زوجته سراملك وصية على ممتلكاته وعلى أولاده العشرة، وهي في الوقت نفسه كانت أُمّهم، هذا ما ذُكر في الوثيقة ٦١٣ المؤرخة في ١٩ ذي القعدة سنة ٧٩٦ هـ/١٥ أيلول ١٣٩٤ م[٣]، وتكرَّرت الحال في الوثيقة ٥٤٤ المؤرخة في ٣ ذي الحجة ٧٩٣ هـ/ ١١ تشرين الثاني ١٣٩١م حيث عين عز الدين أيبك المعروف بالأنباري زوجته بركة بنت الحاج عبد الله السيلاني وصية على ممتلكاته[٤].

ومن المشاهد التي حفظتها وثائق الحرم القدسي الشريف أنه: كان بإمكان النساء المقدسيات التخلص من أزواجهن عن طريق الخلع إذا ما

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢١٧- ٢١٨.

[2]Little: A Catalogue ‹P. P . 315-316

[٣] العسلي : المرجع المتقدم، ج٢، ص١٤٢.

[4]Ibid ‹P. 316

وجدت إحداهن أن الحياة معه قد استحالت، والأمثلة على هذه الحالة كثيرة، ففي الوثيقة رقم ٤٧ المؤرخة في ٦ ذي القعدة سنة ٧٧٠ هـ/ ١٢ تموز ١٣٦٩م جرى الزواج للمرة الثالثة بين زوجين كانا قد افترقا عن طريق الخلع مرتين، ودفع الزوج صداق زوجته ليصل إلى ٣٠٠ دينار [١]، وعلى وجه الوثيقة رقم ٤٤ المؤرخة في ١٨ صفر ٧٨٠ هـ/٦ حزيران ١٣٨٠ م جاء بأن الحاج يحيى بن خضر تزوج من زينب بنت خليل النابلسية، وجاء على ظهر الوثيقة ذاتها في تاريخ ٢٥ ربيع الأول ٧٩٥ هـ/ في ٢٨ أيار ١٣٨٣م (أي بعد ثلاث سنوات من الزواج) أن الزوجة زينب المذكورة تطلب من زوجها يحيى المذكور الخلع مقابل أن يسترد ما قدم لها من صداق، فأجابها بالقبول[٢]، وقد تكررت الحالة نفسها بعد ١٤ عاماً، وحفظت الوثيقة رقم ٣٠٢ هذه الحالة، فعلى وجه هذه الوثيقة جاء أنه بتاريخ ٢ رجب ٧٩٤ هـ/ ٢٥ أيار ١٣٩١ م دفع جمال الدين بن عبد الله بن منصور لخطيبته سعيدة بنت توما النصرانية ٤٠٠ درهم صداقها، في حين جاء على ظهر الوثيقة نفسها أنه بعد ما يقارب العام وبالتحديد في ٤ صفر ٧٩٥ هـ/ ٢٠ كانون الأول ١٣٩٢ م وافق الزوج على طلب سعيدة زوجته بالخلع مقابل ٤٠٠ درهم، وهو قيمة الصداق نفسه الذي كان قد قدمه لها[٣].

ولكن ماذا عن وضع المرأة بعد الطلاق، أو بعد وفاة زوجها ؟ هل حفظ المجتمع مالها من حقوق؟ أم هضم حقها وحق أسرتها ؟.

فوفقاً للشريعة الإسلامية يجب على الأزواج أو آباء الأسر أن يعيلوا أُسرهم، وهذا يفسر العدد الكبير للإقرارات التي وردت بين وثائق الحرم، التي أقرت فيها كثير من الزوجات بأن الزوج قد دفع

---

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٤-٢٥٦.

(2)Little : A Catalogue ،P. 302

(3)Ibid P. 303

مهرها كاملاً، وكانت الغاية من تلك الإقرارات هو عدم ملاحقة الزوج في المستقبل، بالإضافة إلى هذه الإقرارات التي أكدت التزام الرجل المقدسي بحق زوجته هناك شاهد؛ عاش في القدس في الحقبة الممتدة من ٨٨٦ -٨٨٩ هـ / ١٤٨١-١٤٨٤م، ثم من ٨٩٨ - ٩٢١ هـ/ ١٤٩٢ -١٥١٥م، وهو الأب سوريانو الذي أصبح رئيساً لطائفة الرهبان الفرنسيسكان في القدس، حيث يؤكد أن المرأة كانت تلقى كثيراً من التقدير والاحترام من الرجل، كما أنه كان على الرجل تقديم الأموال والنفقة لها نظير تكاليف الحياة من شراء ما يلزم من مستلزمات، وكذلك كان على الرجل أن يمنحها الكثير من النقود سنوياً لشراء ما يلزم من ملابس وأحذية، وكان هذا الاحترام الواضح للمرأة من الرجل لكل النساء المسلمات والمسيحيات واليهوديات، بحيث كانت الواحدة منهن تخرج من بيتها دون حارس ودون أن يتعرض لها أحد بكلمة سوء[1] .

أما في حالات الطلاق وكما هو واضح من الإقرارات الشرعية الكثيرة في الوثائق أن المرأة المقدسية حُفظت لها حقوقها الزوجية، ودُفعت لها، وقد قام على هذا الأمر قضاة وشهود، وقد تكرَّر ذلك في أكثر من مناسبة، ومن الأمثلة والشواهد الحية على ذلك ما نقلته وثائق الحرم، فقد جاء في الوثيقة ٦٥٣ المدونة بتاريخ ٥ ذي الحجة سنة ٧٩٥ هـ/ ١٢ تشرين الأول ١٣٩٣م، مطالبة امرأة مطلَّقة زوجها السابق بألف درهم (كسوة ومتعة الطلاق)[2]، ورُفعت القضية للقاضي

---

[1] Souriano: Treatise on the Holy Land, P. 205 .

[2] متعة الطلاق: جاء في قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ... وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة البقرة، الآية (٢٣٦). جاء في تفسير ابن كثير: امتاع المطلقة: يعني تعويضها عما فاتها بشيء تأخذه من زوجها حسب حاله، وتباينت أقوال المفسرين =

عيسى بن غانم الذي قضى لها بـــ ٣٠٠ درهم[١].

ولقد وقعت حادثة في عائلة الشيخ برهـان الـدين الناصـري،(الـذي استحوذ ذكره على عدد كبير مـن الوثـائق علـى اخـتلاف أنواعها مـن مراسيم، وإقـرارات، ووكـالات، وشـهادات، وسـندات شـراء، وضـبوط تركات ....الخ)، وكان هذا الرجـل أحـد رجـال الصـوفية فـي الخانقـاه الصلاحية، وعُـين أكثـر مـن مـرة قارئـاً للقـرآن فـي قبـة الصـخرة وغيرها[٢]، فمن خـلال الـوثيقتين: ٢٨٩ المدونـة بتـاريخ ٤ شـوال ٧٨٢ هـ/ ٢ كانون الثـاني ١٣٨١م[٣] و٤٥٨ المدونـة بتـاريخ ١٨ ربيـع الأول سنة ٧٨٣ هـ / ١٢ تموز ١٣٨١ م[٤]؛ يتبين لنـا أن هـذا الرجـل تـزوج، ثم طلَّق، سنتدارس هاتين الوثيقتين لنتوصـل مـن خلالهمـا إلـى صـورة واضحة عن معاملة الرجال المقادسة لمطلقاتهم؟

ففي الوثيقة ٢٨٩ أقـرَّت فاطمـة بنـت عبـد الله بـن فهـد الخليليـة الحاضرة بالقدس إقراراً شرعياً بأنَّها لا تسـتحقّ فـي ذِمّـة مُطلقهـا الشـيخ

=في متعة الطلاق، فبعضهم قال: أعلاها خادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة، وقال بعضهم أوسط ذلك: درع وخمار وملحفة وجلباب، ثم جاء في الآية رقم ٢٤١ مـن السـورة نفسـها أن الله سبحانه وتعالى جعل المتعة فريضـة حيـث قـال ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. انظر، ابن كثير (عماد الدين إسماعيل، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص٥١٠، ٥٢٨.

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٩-٢٠. Little : A Catalogue, P.268.
يختلف كل من العسلي وليتل في تحديد تاريخ الوثيقة، فيجعله العسلي في ١٥ ذي الحجة، في حين يجعله ليتل في ٥ ذي الحجة، وعلى حسب قراءة الباحث للوثيقة فإن التاريخ هو ٥ ذي الحجة انظر الوثيقة في الملحق رقم (٦).

[٢] من الوثائق التي تخص الناصري الوثائق ٢، ٣، ٤، ٧ "آ" وجه و٧ " ب"، ١٤ ظهر، ٢٦، ١٢، ١٣ "آ"، ١٣ "ب"، ١٠ "آ" وجه، ١٠ "ب" ظهر.
انظر، العسلي : المرجع المتقدم، ج١، ص١٩٥-٢١٤ .

[٣] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١١٥. lbid, P. 208

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١١٥. lbid, p. 215

برهان الدين الناصري، أحد الفقهاء الصوفية بالخانقاه الصلاحية بالقدس، حقاً ولا بقية من حق ولا صداق ولا بقية من صداق ولا كسوة ولا نفقة ولا متعة ولا شيئاً قلَّ ولا جلَّ من حقوق الزوجية، وتذكر أنها حامل منه، وشهد على ذلك أحمد الذكي وعبد الله بن سلمى، ودُوِّن على ظهر هذه الوثيقة من بعد البسملة (تسلمت فاطمة)، ويبدو أن هذه الوثيقة دونت أثناء وقوع الطلاق، وأن فاطمة هذه قد تسلمت مؤخرها كاملاً حتى أقرت هذا الإقرار.

وبعدما يقارب العام من تدوين هذه الوثيقة دُونت الوثيقة رقم ٤٥٨، وفيها يُقر عبد الرحمن بن عبد الله بن فهد الخليلي (أخو فاطمة مطلقة الشيخ برهان الناصري) أنه قبض وتسلم من برهان الدين الناصري (زوج أخته السالف) ٢٨ درهماً نفقة ولده الرضيع(حسب الوثيقة السابقة لم يكن هذا الطفل مولداً،بل كان جنيناً)، وضمن إيصال هذا المبلغ إلى أخته فاطمة مطلقة الشيخ برهان وأم الرضيع ابن الشيخ برهان، وشهد على ذلك عبد الله بن سلمى.

هذه بعض الوثائق التي تؤكد صون حقوق المرأة في حال وقوع الطلاق، ويمكن عدّها نموذجاً من نماذج معاملة المرأة المطلقة.

أما عن حقوق المرأة الأرملة؛ فقد تحدثت وثائق أخرى عن صون حقوق الأرملة في الحصول على مؤخر الصداق والحصول على النفقة والأموال لرعاية شؤون أولادها في حالة وفاة زوجها، ففي الوثيقة ٢٠٥ المدونة في العشر الأوسط من جمادى الآخر سنة ٧٨١ هـ/ ٢٤ أيلول – ٤ تشرين الأول ١٣٧٩م؛ أَقَّرَت فاطمة التي كانت زوجاً لموسى بن عبد الله الغلابيني – ويتبين من الوثيقة أنه قد توفي – إقراراً شرعياً أنها قبضت وتسلمت من شقيقها شمس الدين محمد، القيم على

تركة موسى المذكور من الدراهم الفضة ٣٦٠ درهم، وذلك صداق الزوجية ديناً على موسى المذكور التاجر[١].

ويتبين من تكرار ذكر ناصر الدين محمد الحموي أنه كان أحد التجار الأثرياء الذين عاشوا في القدس في أواخر القرن التاسع عشر الهجري / الخامس عشر الميلادي أنه كان حريصاً على توثيق معاملاته عند القاضي[٢]، فمن الوثائق التي كانت تخص هذا التاجر الحموي الوثيقة ٢٨٧ المدونة في ١٢ صفر ٧٨٧ هـ/ ٢٥ آذار ١٣٨٥ م وهي إقرار؛ أقرَّت به الست فاطمة بنت المرحوم فخر الدين بن زين الدين عمر الحموية الحاضرة بالقدس الشريف، زوج الصدر الأجل ناصر الدين محمد بن المرحوم علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد الحموي التاجر بالقدس الشريف؛ إقراراً شرعياً أنها قبضت وتسلمت من زوجها المذكور أعلاه من الذهب الهرجة[٣] المصري المسكوك أربعين مثقالاً [٤] وذلك مؤخر صداقها على زوجها، ولم يتأخر لها من ذلك شيء، ... وأقرت أيضاً أنها مواصلة بكسوتها ونفقتها من زوجها المسمى من تاريخ الزوجية بينهما وإلى يوم

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١١٣.

[٢] من الوثائق التي تخص هذا التاجر الحموي الوثائق ١٨٤، ١٩٩، ٢٠٩، ٢١١ "آ"، ٢١١ "ب"، ٢٨٧. انظر، العسلي:المرجع نفسه، ج٢، ص٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٠٩، ١١١، ١٢٠.

[٣] الهرجة: هو الذهب الإسلامي الخالص من الغش، وهو مستدير الشكل، على أحد وجهيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان، وتاريخ ضربه، واسم المدينة التي ضُرب بها، وهي إما القاهرة أو دمشق أو الاسكندرية، وكل سبعة مثاقيل منها زنتها عشرة دراهم، ويذكر المقريزي في حوادث سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، أن كل مثقال منها يساوي ٢٥٠ درهماً من الفلوس. انظر، المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ٣٠٤-٣٠٥.

[٤] المثقال: هو وزن الدينار الذهبي، وهو يعادل ٤.٢٣٣ غم. انظر، هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص١٠.

تاريخه[1]، ويفيد هذا الإقرار بأنه في حال وقوع الطلاق بين هذا التاجر الحموي وزوجته فاطمة أو الوفاة، فإن الزوجة كانت قد حصلت على كامل حقوقها الزوجية من زوجها.

وفي وثيقة أخرى لهذا التاجر الحموي دليل على صون حقوق الأرملة، فبعد وفاة هذا التاجر الحموي استمرت زوجته فاطمة تقبض من أمين الحكم [2] في القدس فرض (نفقة) أولادها مما خلفه ناصر الدين الحموي (زوجها)، ففي الوثيقة ١٨٤ المدونة في ٢ رمضان ٧٨٩ هـ / ١٦ أيلول ١٣٨٧م أقرت فاطمة هذه أرملة المرحوم ناصر الدين محمد الحموي التي كانت مقيمة بالقدس إقراراً شرعياً بأنها قبضت وتسلمت من أمين الحكم بالقدس الشريف ٣٧٥ درهماً (فرض أولادها من ناصر الدين محمد المذكور أعلاه، وهم: عمر، وأبي بكر، وسلمى، وسارة عن شهر رجب سنة تاريخه ١٣٥ درهماً، ثم مات أبو بكر وقرر الوصي على عمر وسلمى وسارة في مستهل شعبان سنة تاريخه في سلخ كل شهر ١٢٠ درهماً، قبضت ذلك قبضاً تاماً كاملاً

---

[1] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١١١. Little: A Catalogue, P. 207
يختلف كل من العسلي وليتل حول تاريخ الوثيقة، فيجعله العسلي في ١٢ صفر في حين يجعله ليتل في ٢٢ صفر، ويرجح الباحث من خلال قراءته أن التاريخ هو (ثاني عشر شهر صفر الأغر من شهور سنة سبع وثمانين وسبعمائة) انظر الملحق رقم (١١).

[2] أمين الحكم: المسؤول عن رعاية شؤون الأيتام في المحكمة، من اختصاصاته الإشراف على أموال الأيتام الذين تُوفي والدهم وترك لهم إرث وتركة، فعندئذ توضع أموالهم في صندوق خاص يسمى مودع الحكم (صندوق لحفظ مال مخصص لغرض معين) ويوضع هذا في عهدة قاضي القضاة لحفظ أموال اليتامى والغائبين، ويقوم أمين الحكم بصرف النفقة الشهرية، ثم يسلمهم تلك الأموال إذا بلغوا سن الرشد. انظر ،القلقشندي:صبح الأعشى، ج١١، ص٣٦٨.
- المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٦٤، حاشية رقم (٣).

وافياً عن مدة ثلاثة شهور آخرها سلخ رمضان سنة تاريخه)[1]، وكتب على ظهر الورقة (فرض زوجة الحموي)[2].

ولدينا أيضاً إقرارين من شيرين بنت عبد الله، أرملة المرحوم برهان الدين الناصري، تقر بهما أنها تسلمت من أمين الحكم في القدس فرض (نفقة) ولديها: محمد وعلي اللذين في حضانتها، الإقرار الأول تضمنته الوثيقة ١٨٣المؤرخة في ٤ رمضان سنة ٧٩٠ هـ/ ٦ أيلول ١٣٨٨ م وفيه أقرت أنها تسلمت ١٢٠ درهم فرض ولديها عن مدة شهرين آخرين هما سلخ رمضان المعظم من العام نفسه[3]، وكُتب على ظهر الورقة (اشهاد قبض شيرين زوجة الناصري قبض فرض مائة وعشرون درهماً). والإقرار الثاني تضمنته الوثيقة ١٩٢ المؤرخة في ٥ محرم سنة ٧٩٠ هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٣٨٨م وفيه أقرت أنها تسلمت ١٧٠ درهماً فرض ولديها عن مدة أربعة شهور آخرهم شهر صفر من العام نفسه[4]، وكُتب على ظهر الورقة (فرض أولاد الناصري).

ويمكن أن نضيف إلى هذه المشاهد التي تبين صون مجتمع بيت المقدس لحقوق المرأة وعائلتها، مظهراً من أهم مظاهر رقي الحضارة، وهو الأوقاف؛ وما كانت تُقَدِمّه من خدمات اجتماعية وثقافية وصحية لعامة المجتمع وللغرباء والحجاج والزوار، فانطلاقاً من رسالة الإسلام

---

[1] ورد ما قبضته عن ثلاثة أشهر هي رجب وشعبان ورمضان على الشكل التالي:

عن شهر رجب عندما كان ولدها أبو بكر حياً	١٢٥ درهماً
عن شهر شعبان	١٢٠ درهماً
عن شهر رمضان	١٢٠ درهماً
المجموع	٣٧٥ درهماً

[2] انظر العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٠٩ .

[3] العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٧.

[4] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٠٥.

في الحث على التكافل الاجتماعي أسهمت الأوقاف بتقديم خدمات اجتماعية سواء على صعيد مساعدة الفقراء والمساكين والأرامل مباشرة، أو من خلال ما قدمته الأوقاف الموجودة على المؤسسات الاجتماعية كالبيمارستانات والحمامات والأسبلة والخانات والأربطة وغيرها[1]، وأبرزت الوثائق والحجج الشرعية في طياتها اهتماماً بارزاً بالمرأة والصرف والتوسعة عليها، وظهر هذا جلياً في وثيقة وقفية الأمير سيف الدين تنكز[2]، وتصف هذه الوقفية العقارات التي أوقفها الأمير تنكز، وهي: المدرسة بأقسامها الثلاث، والمسجد، ورباط النساء، والحمامان القبلي والغربي، والموضئ، وحوض السبيل، بالإضافة إلى قرية عين قينة[3] (حالياً في قضاء رام الله).

وما يهمنا هنا (رباط النساء) المجارو للمدرسة (فقد وقفه الواقف المسمى، تقبلها الله منه، على اثني عشر امرأة مسلمات، دينات، خيرات، صالحات، عجائز، خاليات عن الأزواج، فقيرات، مقيمات في

---

[1] الحجي (حياة ناصر): السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص٨٣.

[2] سيف الدين تنكز بن عبد الله الناصري نائب السلطنة في الشام، وكان من أركان دولة الناصر محمد ابن قلاوون، الذي تولى السلطنة ثلاث مرات، وفي السلطنة الثالثة تولى الأمير تنكز نيابة الشام من سنة ٧١٢-٧٤٠ هـ/ ١٣١٢ – ١٣٣٩م وكان من كبار العمرانيين، وله مآثر عمرانية كثيرة في القدس منها: سوق القطانين وبوابته الشهيرة، والحمامات الكائنات فيه، والخان القائم في وسطه، ومن أعماله إعمار المسجد الأقصى وقناة السبيل التي تجر الماء إلى القدس والحرم الشريف من عين العروب، وبرك سليمان، وله تنتسب المدرسة التنكزية التي بالقدس، توفي في قلعة الإسكندرية سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. انظر،

– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٤٢.

– مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٣.

[3] عثر على هذه الوقفية مثبتة في السجل رقم ٩٢ المؤرخ سنة ١٠٢٠هـ من سجلات المحكمة الشرعية في القدس، وهي تشغل خمس صفحات من السجل (٤٢٦-٤٣٠)، ويبلغ عدد كلمات الوقفية حوالي ٤٧٠٠ كلمة. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١٠٥.

الرباط المذكور، تكون إحداهن شيخة لهن، وأخرى قيّمة للرباط المذكور وبوابة، وعلى الفقيرات الواردات إلى هذا الرباط، وعلى الشيخة المشار إليها أن تأم بهن في الصلوات الخمس، وفي صلوات التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة، وعلى القيمة البوابة فرش الرباط المذكور بالحصر والبسط وتنظيفه وكنسه وغسل طهارته وحفظ الرباط المذكور كما تقدم في حق بواب المدرسة المذكور وإيقاد مصابيحه وطفيها، وعليهن أجمعين أن يجتمعن في إحدى إيواني الرباط المشار إليه بعد صلاة الصبح في كل يوم، ويقرأن سورة الإخلاص، والمعوذتين، وفاتحة الكتاب العزيز، ثم يذكرن الله تعالى، ويصلين على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم، ثم تدعو شيختهن كدعاء المدرس المقدم وحكمهن في الغيبة كما تقدم في غيبة غيرهن)[١]، وأمرنا ناظر الوقف[٢]:

(بفرش رباط النساء المذكور بالحصر والبسط وتنويره)[٣] و(يصرف ناظر الوقف إلى شيخة رباط النساء في كل شهر من الشهور عشرين درهم فضة، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى القيمة البوابة بالرباط المذكور في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى كل

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١١٦.

[٢] ناظر الوقف: (المتولي)، يتولى الوظيفة الإدارية الأولى في الوقف، ويشرف عليه وعلى متطلباته، ووظيفة النظر على الأحباس والأوقاف تعادل في عصرنا الحالي وزارة الأوقاف، وموضوعها أن صاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس.... انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٧.

- البلقي (محمد قنديل): التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٣٤١.

[٣] العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص١١٦.

واحدة من الفقيرات العجايز العشرة في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم، وفي كل يوم من الأيام ثلث رطل من الخبز). [١]

لقد كان بإمكان النساء المقيمات في هذا الرباط استضافة بعض النساء الغريبات القادمات إلى مدينة القدس لمدة عشرة أيام، وأن يصرفن عليهن من مال الرباط، فلكل (واحدة من الفقيرات الواردات إلى الرباط المذكور مدة عشرة أيام من حين ورودها في كل يوم منها ربع درهم فضة، وثلث رطل من الخبز، ويقتصر في ذلك على عشر من الواردات إلى الرباط المذكور من غير زيادة عددهن، ويقدم الواردات الفقيرات الغريبات على الفقيرات من أهل القدس وكذلك في النساء المرتبات في الرباط المذكور)[٢].

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١١٨.

[٢] العسلي: المرجع نفسه، ج١، ص١١٨.

ثالثاً: الزواج وحالاته:

من الممكن حصر ما تم ملاحظته من خلال دراسة الإشارات التي وردت في وثائق الحرم القدسي الشريف بخصوص موضوع الزواج في ثلاث قضايا أو مواضيع، أولها: النسبة العالية من الزواج المختلط التي تعكس ما كان عليه المسلمون في القدس من مرونة اجتماعية شديدة وتآلف، وثانيها: ندرة تعدد الزوجات في ذلك المجتمع، وثالثها: تباين الصداق أو المهر والذي يدل على التفاوت الاقتصادي بين فئات المجتمع.

بالنسبة للقضية الأولى أو الموضوع الأول، فعلى ضوء الوثائق يمكن الحديث عن عقلية متفتحة ومرونة اجتماعية لا تحتم زواج الأقارب أو أبناء الفئة الواحدة، وإن كان هناك وثائق تخالف ذلك فإن نسبتها قليلة في العينة التي تقدمها وثائق الحرم القدسي الشريف، ولقد تم الحديث في مطلع البحث عن ظاهرة غريبة في القدس، وهي الصفة التعددية (العالمية) للسكان التي تُشاهد في الانتماءات الجغرافية المتنوعة للأشخاص الذين ورد ذكرهم في الوثائق، ويمكن أن نلاحظ حالات متكررة من الزواج من أصول واحدة، أي بين اللذين ينتسبون إلى بلد واحد، ولكن يمكن أن نفسر هذه الظاهرة تفسيراً آخر، وهو قدوم العائلة بأكملها إلى القدس، فينسب الزوج والزوجة إلى البلد القادمين منه، فيقال الدمشقي والدمشقية مثلاً، والمصري والمصرية، والحلبي والحلبية....الخ، إذ أنه لا يشترط أن يكونوا أقارب، ناهيك عن أن الوثائق تذكر أحياناً درجة القرابة بين الزوج والزوجة، ولكن هناك حالات عديدة من الزواج المختلط، وزواج الحر من أمة، وحتى زواج المسلم من مسيحية.

والأمثلة على حالات الزواج المختلط كثيرة فهي الحالة الأكثر شيوعاً، منها على سبيل المثال ما جاء الوثيقة رقم ٤٠٤ المدونة في ١٦ جمادى الثانية ٧٩٥ هـ/ ٢٩ نيسان ١٣٩٣ وفيها نقرأ أن الزوج محمد بن حسن الحلبي والزوجة فاطمة بنت يوسف الدمشقية[١]، وفي الوثيقة رقم ٤٠٧ المدونة بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ٧٩٦ هـ/ ٢٥ تشرين الأول ١٣٩٤م نجد أن الزوج مغربي والزوجة بعلبكية [٢]، والوثيقة ٤٣٢ المدونة بتاريخ ٧ ذي الحجة سنة ٤٩٥ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٣٩٣م فيها يظهر أن الزوج كركي (أي من الكرك) والزوجة دمشقية[٣]، والوثيقة رقم ٤٧٣ المدونة في ٣٠ رمضان سنة ٧٩٥ هـ / ٩ آب ١٣٩٣ م التي ورد فيها أن الزوج بغدادي والزوجة مصرية[٤]، ويظهر في الوثيقة رقم ١٦٠ المدونة في ٢٦ ذو القعدة ٧٩٥ هـ/ ٣ تشرين الأول ١٣٩٣م أن الزوجة خديجة دمشقية والزوج صالح موصلي[٥].

وتُبين الوثيقة رقم ٢٢٨ المدونة في ١٦ المحرم ٧٩٦ هـ/ ١١ تشرين الثاني ١٣٩٣م أن الزوج من أصول حلبية والزوجة من أصول دمشقية[٦]، وتُظهر الوثيقة رقم ٥٢٢ المدونة في ٣٠ رمضان ٧٩٥ هـ/ ٩ آب ١٣٩٣ م أن الزوج صالح مقدسي الأصل، والزوجة حليمة

---

(1)Little : A Catalogue . P.109.

(2)Ibid ،P.110.

(3)Ibid، P. 116.

(4)Ibid ،P. 126.

(5)Ibid، P. 81.

(6)Ibid ،P. 86.

مصرية الأصل [١]، والأمثلة على الزواج المختلط كثيرة يصعب حصرها[٢].

وهناك حالات ذكر فيها اسم الزوج بدون تحديد أصله أو انتمائه الجغرافي، في حين ذكر اسم الزوجة مع ذكر أصلها أو انتمائها الجغرافي، وهذا أقرب إلى الحكم بأن: الزوج مقدسي والزوجة غريبة، والأمثلة على ذلك عديدة، ففي الوثيقة رقم ٦٩٥ هـ المؤرخة في ١٧ شعبان ٧٠٥ هـ/ ٤ شباط ١٣٠٦ م يتم الاكتفاء بذكر اسم الزوج غانم بن عبد الله والذي كان يسكن بخط باب السلسلة بالقدس الشريف، في حين كان اسم الزوجة غلان بنت أحمد بنت عمر المصرية الحاضرة بالقدس الشريف [٣]، وفي الوثيقة ٣٠١ المدونة في ١٤ محرم ٧٩٧ هـ/ ٩ تشرين الثاني ١٣٩٤م كان نسب أو أصل الزوجة عجمياً في حين كان اسم الزوج بهرام بن عوض الصايغ، بدون رفع الأصل إلى مكان جغرافي ما [٤]،ويرد في الوثيقة ٢٠٠ المدونة في سلخ آخر ذي القعدة ٧٩٥ هـ/ ٧ تشرين الأول ١٣٩٣ م حصر إرث لحليمة الدمشقية زوجة عبد الله السقا بالقدس الشريف [٥]، والوثيقة رقم ٢٦٤ المؤرخة في ١٤ رمضان ٧٩٦ هـ/ ١٣ تموز ١٣٩٤ م وهي حصر إرث لإمرأة حلبية زوجة (علي السمان) في القدس الشريف[٦].

وورد في الوثائق حالات لزواج من أصول جغرافية واحدة، لكن لا يمكن أن تكون من أنساب واحدة، إذ لا يُشترط وجود صلة قرابة في

---

[1] Little: A Catalogue . P. 135

[٢] بعض الأمثلة على الزواج المختلط ترد في الوثائق : ٨٣، ١٧٠، ٢٤١، ٢٦٢، ٤٠٦، ٤٤٤.
انظر، Ibid، P. 65 - 119

[٣] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٤٨.

[٤] العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص٣٧.

[٥] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٧٨.

[6] Ibid ،P. 229

هذه الحالات، والتي كانت كثيرة، ومن الأمثلة عليها الوثيقة ٦٥٣ المدونة في ٥ ذي الحجة ٧٩٥ هـ/ ١٢ تشرين الأول ١٣٩٣م وهي دعوة من فاطمة الحلبية على مُطلِقها علي بن محمد الحلبي[١]، وفي الوثيقة رقم ٤٦١ المدونة في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٧٩٦ هـ/ ١٧ أيار ١٣٩٤ م يرجع أصل الزوجان إلى عينتاب، ومقيمين بالقدس في حارة المشارقة[٢]، وتبين الوثيقة ٤٥٦ المدونة في ١٤ رمضان ٧٩٥ هـ/ ٢٤ تموز ١٣٩٣م أن الزوجين من دمشق[٣]، ومن خلال الوثيقة رقم ٣٠٠ المؤرخة في ١ رمضان سنة ٧٩٧ هـ/ ٢٠ تموز ١٣٩٥ م يتبين أن الزوجين من بغداد[٤]، وهناك العديد من الأمثلة على هذه الحالة[٥].

أما فيما يتعلَّق بزواج الأقارب، فذكره قليل مقارنة بالزواج المختلط، أو بالزواج من أصول جغرافية واحدة، ومن الأمثلة عليه الوثيقة ٢٥٤ المؤرخة في ١٢ ذي الحجة سنة ٧٩٥ هـ/ ٢٩ تشرين الأول ١٣٩٣م، وفيها زوّج أحمد بن علي بن عمر الحلبي ابنته فاطمة لابن عمه محمد [٦]، والوثيقة رقم ٣٩٨ المؤرخة في ١٩ رمضان سنة ٧٩٦ هـ/ ١٨ تموز سنة ١٣٩٤م ونستنتج منها أن المتوفاة زهرة بنت

---

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٩.

(٢) العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص٤٤.

(3)Little: A Catalogue . P. 122.

(4)Ibid, P. 98.

(٥) ومن الأمثلة على الزواج من أصول إقليمية واحدة الوثائق: ١٨٤ من حماه، ٤٥١ من حلب، ٢١٧ من مصر .... الخ. انظر، العسلي :المرجع المتقدم، ج٢، ص١٠٩. وانظر أيضاً،

Ibid , P. 121، 85.

(6) Ibid, P. 91-92.

إبراهيم الحلبية كانت زوجاً لابن عمها الحاج أحمد بن أبي بكر الحلبي.[١]

وكدليل على تجاوز أهل ذلك المجتمع للفروق الاجتماعية، نذكر حالات الزواج بين الحر والعبدة (الأمة)؛ فقد ورد ذكر لحالات عديدة تزوّج فيها السيد أو المالك للجارية من جاريته بعد أن يقوم بعتقها، وكان يتم عادة توريثها، وفي بعض الأحيان تُسند إليها الوصية، ومن الأمثلة على مثل هذه الحالات الوثيقة ٦١٣ المدونة في ١٩ ذي القعدة سنة ٧٩٦ هـ/ ١٥ أيلول ١٣٩٤م، وفيها أسند التاجر الخوارزمي وصيته لامرأته وعتيقته سرملك، أم أولاده العشرة [٢]، وفي الوثيقة ٤٥٧ المؤرخة في ٤ رمضان سنة ٧٩٦هـ / ٣ تموز ١٣٩٤م أعتق متولي الليل بالقدس الشريف علاء الدين علي بن قايران جاريته طُغتاي بنت عبد الله، وتزوجها، وأوقف عليها داراً في خط أولاد الشرف في القدس[٣]، وفي الوثيقة رقم ٦٧٩ المدونة في ١٤ محرم ٧٩٤ هـ/ ١٠ كانون الأول ١٣٩١ م حصر موجودات لامرأة مريضة تُدعى نارنج عتيقة سيف الدين سلجوق، زوجة الشيخ نصر الدين خوجا، وكانت مقيمة في زاوية الشريف بحارة الأكراد في القدس[٤].

والأمثلة على هذه الحالات أيضاً عديدة، ناهيك عن حالات الزواج بين أبناء الفئة الواحدة، كزواج الرقيق، وكان الزواج بين الرقيق كما تبين يتم بعد عتقهم، ومن الأمثلة على ذلك الوثيقة ١٢٣ المدونة في ١٨ ذي الحجة سنة ٧٩٥ هـ/ ٢٥ تشرين الثاني ١٣٩٣ م، وهي وثيقة حصر موجودات للضعيفة هيفاء عتيقة الست فاطمة بنت

---

(1)Little: A Catalogue, P. 109.

(٢) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٤٢.

(3) Ibid ,P. 122.

(4)Ibid, P. 217-218 .

أرغون من حماه، وقد حددت من بين ورثتها زوجها تاييغا الذي كان معروفاً بأنه عتاقة سالم الأفكال[1]، ونستنتج من الوثيقة رقم ٥٧ المدونة في ٢٧ شوال سنة ٧٩٣ هـ/ ٢٧ أيلول ١٣٩١ م أن جورير بنت عبد الله، عتاقة فاطمة الدمشقية، هي زوجة فرج بن عبد الله، عتاقة مسعود ابن ابراهيم[2].

ووجدت حالات زواج المسلم من مسيحية، وذلك يدل على عدم وجود تعصب ديني، ففي الوثيقة رقم ٣٠٠ المؤرخة في ٢ رجب ٧٩٤ هـ/ ٢٥ أيار ١٣٩١م دفع جمال الدين لخطيبته سعيدة بنت توما النصرانية صداقها المقدر بـ ٤٠٠ درهم[3].

أما الموضوع الثاني وهو موضوع تعدد الزوجات، فعلى ما جاء في الوثائق لم تكن هذه الظاهرة شائعة في مجتمع بيت المقدس في عصر المماليك، ولعلها كانت غير مستحسنة في المجتمعات الراقية، فالأسرة المؤلفة من زوجة واحدة هي غالباً ما تكون أكثر تماسكاً واستقراراً من الأُسر التي تَتَعَدَّد فيها الزوجات، إذ أن العدل بين الزوجات عملية تكاد تكون مستحيلة، وغالباً ما تؤدي إلى التفرقة بين الأولاد، ومن جهة ثانية؛ إن عدد الأولاد في الأُسر المؤلفة من أكثر من زوجة سيكون بلاشك كثيراً، وهنا تأتي مشكلة الإعالة التي غالباً ما تكون صعبة، ولكن كان في حالات الحرب يُنظر إلى هذه الظاهرة نظرة استحسان، إذ أن عدد النساء الأرامل سيزداد بلا ريب في المجتمع، فمن باب الستر عليهن يصرف زوجات لبعض الرجال، ولكن الحديث الآن عن حقبة من حقب تاريخ القدس كانت مستقرة، قد خلت

---

(1)Little: A Catalogue, p.72.

(2)Ibid، p. 63.

(3)Ibid، p . 303.

من الحروب والثورات، وبالنسبة للمسيحيين لم يسمح لهم دينهم بتعدد الزوجات على عكس المسلمين، الذي لم يحرمهم دينهم هذه الممارسة.

وبالنسبة لوثائق الحرم، يكاد ذكر هذه الحالة أن يكون معدوماً، فقد جرى استعراض معظم الوثائق، دون العثور على ذكر لهذه الظاهرة إلا عند الشيخ برهان الدين الناصري، الذي كان له ثلاث زوجات هن: فاطمة[١] وشيرين [٢]وقرتمر[٣]، لا نعرف إذا ما كنّ ثلاثتهن على ذمته في آن واحد، حيث ورد في بعض الوثائق أنه طلّق زوجته فاطمة[٤].

أما بالنسبة للموضوع الثالث وهو تباين المهور والصداق، فإنه يرجع إلى التباين في الحالة الاقتصادية، ومن ثم المكانة الاجتماعية، وتراوح معدل الصداق أو المهر ما بين ٣٠٠ دينار مصري دفعه أحد الأمراء لزوجته؛ وثلاثة دنانير ذهبية دفعها لبان (أي يعمل بصنع اللّبن) لعروسه.

وكانت المهور تتفاوت بين أبناء الشرائح الاجتماعية، حتى في الشريحة الواحدة، إذ أن المهور تختلف بين حالة زواج وأخرى، إلا أنها بشكل عام كانت قريبة من بعضها بالنسبة لأبناء الشريحة الواحدة، فمن الأمثلة عن صداق الفئات الفقيرة ما دفعه النساج الصَّلخدي محمد بن علي، المقيم بالقدس، لخطيبته روحة بنت عبد الله، فقد ورد في الوثيقة ٦١٠ بتاريخ ٢ صفر ٧٩٣ هـ/ ٩ كانون الثاني ١٣٩١ م، أنه دفع

---

[١] فاطمة بنت عبد الله الخليلية، انظر: الوثيقتين ٤٥٨، ٢٨٩. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١١٥، ١١٦.

[٢] شيرين بنت عبد الله، انظر: الوثيقة ١٩٢. انظر، العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٥.
– الوثيقة ١٨٣، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٠٧.
– الوثيقة ٣٨٢، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٥٢.

[٣] قرتمر بنت عمر، انظر: الوثيقة ٦٩٩. Little: A Catalogue. P. 220

[٤] ورد ذلك في الوثيقتين ٢٨٩، ٤٥٨.

صداقها ستة دنانير ذهبية[١] أي ما يقدر بـ ١٢٠ درهماً، إذ إن الدينار كان يعادل وقتها ٢٠ درهماً[٢].

ودفع اللّبان إبراهيم بن علي بن إبراهيم الدمشقي المقيم بالقدس الشريف لمخطوبته زمرد بنت عبد الله ثلاثة دنانير ذهبية[٣]، أي بما يقدر بـ ٦٠ درهماً، في حين بلغ صداق خديجة بنت عمر الفلاح زوجة النساج البصرواي أحمد بن موسى المقيم بالقدس الشريف ٢٠٠ درهم فضة[٤].

أما بالنسبة لأبناء الفئة المتوسطة فقد تباينت المهور بينهم بشكل طفيف بين ٣٦٠ درهماً صداق الزوجة فاطمة بنت المرحوم علم الدين سليمان، التي كانت زوجاً لموسى بن عبد الله الغلاييني[٥]، ومبلغ ٤٥٠

---

(1) Little: A Catalogue, P. 305.

(٢) إن سعر الدينار بالدرهم لمن يثبت على حاله في عصر المماليك، بل كان يعلو تارةً وينخفض تارةً أخرى، بحسب ما تقتضيه الحالة. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٠٩.

إلا أن الدينار في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م- وهو عام قريب من عام تدوين الوثيقة المذكورة- كان يساوي عشرين درهماً، وهذا اعتماداً على ما أورده ابن الفرات في تاريخه أنه: تم (تعيين أربعة مقدمي ألوف.... نفقة كل أمير منهم ماية ألف درهم، وقيل خمسة ألاف دينار، وأمرهم أن يقيموا بمدينة غزة). انظر، ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م): تاريخ ابن الفرات، تحرير ونشر قسطنطين زريق، جامعة بيروت الأمريكية، (د. ت)، م٩، ج١، ص١٤٢.

وفي معظم الأحيان كان سعر الدينار عشرين درهماً. انظر، فهمي (سامح عبد الرحمن): القيم النقدية في الوثائق المملوكية، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٤٣-٢٤٨.

(٣) ورد ذلك في الوثيقة رقم ٦٤٦ المؤرخة في ١٢صفر ٧٩١هـ/١٠ شباط١٣٨٩م. انظر، Ibid, P. 305-306.

(٤) ورد ذلك في الوثيقة ٢٢٠ المؤرخة في ١٠ شعبان ٧٩٥ هـ/ ٢١ حزيران ١٣٩٣ م . انظر،
- صالحية: من وثائق الحرم، ص٩٩.

(٥) ورد ذلك في الوثيقة رقم ٢٠٥ المؤرخة في العشر الأوسط من جمادى الآخرة ٧٨١ هـ/ ٢٤ أيلول إلى ٢ تشرين الأول ١٣٧٩م.انظر،
- العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١١٣.

درهماً دمشقي دفعه الشيخ شرف الدين يعقوب بن الحاج يوسف المقيم بالقدس الشريف صداق أو مهر فاطمة[١].

وكان صداق الفئة الغنية مرتفعاً نوعاً ما، ففي الوثيقة ٤٧ المدونة في ٦ ذو القعدة ٧٧٠ هـ/ ١٢ حزيران ١٣٦٩م دفع الأمير أرمنجي أحد أفراد الجيوش المنصورة إلى عروسه، التي تزوجها للمرة الثالثة بعد أن طلقها خلعاً مرتين ١٠٠ دينار، ثم في ١٩ رمضان ٧٧٤ هـ/ ١٤ آذار سنة ١٣٧٣ زاد الصداق لها ٢٠٠ دينار فأصبح صداقها ٣٠٠ دينار[٢] أي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم تقريباً، وفي الوثيقة ٢٨٧ المؤرخة في ١٢ صفر سنة ٧٨٧ هـ/ ٢٥ آذار ١٣٨٥ م تسلمت فاطمة بنت المرحوم فخر الدين الحموية من زوجها ناصر الدين الحموي أحد التجار بالقدس مبلغ ٤٠ مثقال من الذهب الهرجة[٣] المصري المسكوك مؤخر الصداق فقط دون المقدم الذي يجب أن يكون دُفع مسبقاً[٤].

---

[١] ورد ذلك في الوثيقة ٣٢١.(تاريخ هذه الوثيقة غير واضح).انظر،

Little: A Catalogue, p. 304

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٥٤.

[٣] ذكرنا سابقاً أن المثقال هو وزن الدينار، والهرجة هي دنانير ذهبية، وبشكل عام كان سعر الهرجة حوالي ٣٠ درهم، ويورد المقريزي أنه في عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م– وهو عام قريب من عام تدوين الوثيقة– كان سعر الهرجة ٣٠ درهم. انظر، المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص٩٦٧.

ولمعرفة أسعار الهرجة بالدراهم ومتابعة تبدلاتها. انظر، النبراوي (رأفت محمد): النقود الإسلامية في مصر عصر دولة مماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م، ص٢٣٧ وما بعدها.

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١١١.

رابعاً: النشاطات الاجتماعية للمرأة المقدسية:

منح مجتمع بيت المقدس المرأة حرية في مختلف مجالات الحياة العملية والعلمية، وساهمت المرأة في هذه المجالات مساهمة فعالة، وشغلت فيها أدواراً جيدة، فعلى مستوى الحياة العملية، كان محيطها الاجتماعي قد توضح من خلال المهن والأعمال التي كانت تمارسها، فعلى ما جاء في الوثائق فإن المرأة المقدسية مارست المهن التالية:

١- مشط الخيوط وغزلها، فقد كان حوالي ثلث النساء العاملات اللواتي ورد ذكرهن في الوثائق يعملن في مشط الخيوط وغزلها (وهي مهنة منزلية) في حين كان الرجال يعملون في الحياكة[١].

٢- وقد عملت بعض النساء في بيع الثياب والأنسجة[٢].

٣- وقد ورد سابقاً قيام المرأة بعملية المتاجرة[٣].

٤- السقاية، فقد ورد ذكر لامرأتان مارستا مهنة السقاية داخل الحرم الشريف، وفي أغلب الظن عملن ذلك لخدمة النساء من الحجيج[٤].

٥- ومن الحرف والمهن التي مارستها المرأة مهنة " المغسلة"، أي غسل الأموات من النساء وتجهيزهن للدفن[٥].

٦- أيضاً قامت المرأة بمهنة الطب الشرعي للكشف عن النساء المتوفيات والمشكوك بطريقة وفاتهن[٦].

---

(1) Lutfi : A Study Al-Quds, p. 297.

(2) Ibid, p. 290.

(٣) انظر الصفحات (١٦٢،١٦٣،١٦٤) قيام المرأة بمهنة المتاجرة.

(٤) الوثيقتان: ٨٢ المؤرخة في ٢١ ذي الحجة ٧٩٣ هـ/ ١٩ تشرين الثاني ١٣٩١م، و٣٧٨ المؤرخة في ٢٢ ذي القعدة ٧٩٥ هـ/ ٢٩ أيلول ١٣٩٣ م. انظر،

- Little: A Catalogue , p .65, 102.

(٥) انظر الوثيقة رقم ٢٨٨ المؤرخة في ٥ رجب ٧٩٦ هـ/ ٦ أيار ١٣٩٤م. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٣٥.

(٦) انظر الوثيقة رقم ٢٨٨ المؤرخة في ٥ رجب ٧٩٦ هـ/ ٦ أيار ١٣٩٤م. انظر، العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٣٥.

٧- ومن الطبيعي –ونساء ذلك العصر كنّ يترددن على الحمامات– [١] أن يوجد هناك عاملات حمام يقمن بعمليات التنظيف وتزيين العرائس، وقد عرفت المرأة التي تقوم بهذه المهنة في المصادر التقليدية باسم الماشطة[٢]، في حين ورد ذكرها في الوثائق باسم البلانه[٣]، أي عاملة الحمام.

٨- وكانت ثاني أكبر مهنه من المهن التي مارستها النساء، مهنة الخدمة المنزلية، وهو عمل رئيس شغلته الإماء، ففي وثائق الإرث فقط ورد ذكر ١٨ أَمَة، ممن كن يُستخدمن في الخدمة المنزلية[٤].

٩- مارست المرأة أيضاً مهنة النظر على الوقف، أي القيام بمهمة (ناظر الوقف، متولي الوقف)، ففي الوثيقة رقم ٤٠ من أوقاف القدس بدفتر تحرير الطابو رقم ٥٢٢، تم ذكر وقف عائشة الرومية في عام٩١٣هـ/١٥١١م على خمسة قراء يقرؤون القرآن بالصخرة

---

[١] كان الحمام مركزاً من مراكز الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى، وكانت العروس تذهب إلى الحمام لتستحم وتزين نفسها، ثم لتعرض ملابسها وجهازها أمام الصديقات، وكانت النساء يستعملن الحمام كـ(صالون تجميل) وتذهب إليه المترفات منهن بصحبة خادمتين أو ثلاث يحملن حوائجها، والمرأة الحامل تذهب إليه لتلد بسهولة ومن ثم تأتي إليه في اليوم الأربعين بعد الولادة. وكان هناك قيود شديدة على تردد المرأة على الحمام. انظر،

- ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص١٧٢- ١٧٣.
- العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، ص ١٦٤.
- ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي، ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٣.

[٢] السيد علي (علي): المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥٠.

[٣] الوثيقة رقم ٦٢٧ المؤرخة في ٢٥ جمادة الثانية ٧٩٥ هـ/ ٨ أيار ١٣٩٣ م. انظر،

Little : A Catalogue، p. 182-183

[4] Lutfi : A Study Al-Quds, p. 307.

الشريفة كل يوم بعد العصر، وقد أوقفت عليهم ثلث الغراس بأرض الحكر وجميع الغراس بأرض العقة، وأسندت هذه الوثيقة مهمة النظر على الوقف للواقفة نفسها، وكان يحق لها أن تفوضه لمن تراه أهل لذلك(١)، واستمرت النساء يتولين هذه المهنة في العصر العثماني(٢)، وكانت مهنة النظر على الوقف مهنة صعبة إذ تتطلب من الناظر (رجلاً كان أم امرأة): رعاية الأوقاف، وإنمائها، وحسن استغلالها، وكان يشترط فيها أن تكون عارفة بصناعة الكتابة، وتنظيم الحسابات، وأن تتولى ضبط ما يتحصل من ريع الأوقاف، وكتابة قوائمها، وعمل حسابات الأوقاف متحصلاً ومتصرفاً، والتوقيع على الكشوف الخاصة بتلك الحسابات، أي اعتماد الحساب الختامي، وكان لا بد لها من أن تكون متصفة بالخير والديانة والعفة وتجنب الطمع والخيانة، ومن أهل الخير، ولها همة ونهضة، مثالها مثال أي ناظر للوقف(٣).

١٠-مارست المرأة أيضاً مهنة قراءة القرآن الكريم وإنشاد الأناشيد الدينية في الموالد وغيرها من المناسبات(٤).

---

(١) عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص٩٠.

- ابشرلي (محمد) والتميمي (محمد): أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين في ألوية غزة ، القدس، صفد، نابلس، عجلون، حسب الدفتر ٥٢٢ من دفاتر تحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية، استنبول، ١٩٨٢، ص٣٩.

(٢) ورد في الوثيقة رقم ٣٨ من السجل ٢٧٢الصفحة ٧٧ و٧٨ سنة ١٢٠٥٥هـ/١٧٩٠م أن صالحة بنت خليل كانت متولية شرعياً على وقف جدها فرزان الكائن في القدس الشريف. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٣، ص٥٤.

(٣) انظر الديباجات التي أوردها القلقشندي عن تولية نُظار الأوقاف في صبح الأعشى، ج١١، ص٤٧. انظر أيضاً، أمين (محمد محمد): الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٤) العسلي: المرجع المتقدم، ج٣، ص٥٣.

١١-وبلاشك مارست المرأة أيضاً مهنة القبالة[١].

١٢- وعملت بعض النساء بمهنة أو حرفة (الفرحيات)، فقد كان هناك نساء متخصصات لمناسبات الأفراح للقيام بالغناء والرقص والضرب على الدف والمزهر[٢]، والعزف (الجنكيات)، وكانت هذه المهنة تدر أموالاً وفيرة بالنسبة للمشهورات منهن، اللاتي كن يتخصصن بالأمراء والأغنياء، ولكن المجتمع لم يكن راضٍ عن هذه المهنة، ويعدها مهنة لا أخلاقية، لذلك فإننا نجد في الوثائق أن بعض الفرحيات كن يتخلين عن هذه المهنة ويَتُبن[٣].

ومن نشاطات المرأة الاجتماعية: المساهمة في الأعمال الخيرية، إذ ثبت قيام المرأة المقدسية بحبس الأملاك ووقفها على مصالح العامة، ومثال ذلك الوقف الذي حبسته فاطمة بنت محمد بن علي المغربية، إذ ورد في الوثيقة رقم ٨٣٣ المدونة بتاريخ ٢٥/ربيع الأول ٧٤٧ هـ/١٦ تموز ١٣٤٩م أن فاطمة هذه أوقفت دارها المستجدة في حارة المغاربة على الفقراء والعجايز[٤]، وبالإضافة إلى الوقف الذي حبسته عائشة الرومية (سالفت الذكر)؛ أيضاً حبست على ذريتها وعلى الفقراء

---

[١] العسلي : وثائق مقدسية، ج٣، ص٥٣.

[٢] الدف يكون في دائرة من الخشب تلصق عليها رق غزال ويجعل في الدائرة أو الإطار قطع معدينة تدعى صنوج، ويضرب على الرق وعليها أحياناً، والمزهر دف كبير تعلق على دائرته الخشبية حلقات من الحديد تهتز عند تحريكه، ويستعمل في حفلات الأعراس والحفلات الدينية، انظر، عرنيطة (يسرى جوهرية): الفنون الشعبية في فلسطين، عمان، ١٩٨٨م، ص ٤٧-٤٨.

[٣] انظر، الوثيقة رقم ٤٠، السجل ٣١ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، ص٣٨٣، عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م. العسلي: المرجع المتقدم، ج٣، ص٥٤-٥٥.

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص ٢٣٥-٢٣٦.

والمساكين في القدس بيت في محلة باب الحديد[1] في القدس الشريف في عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٥م[2].

وورد في المصادر التقليدية ذكرٌ لأعمال خيرية عديدة قامت بها بعض النساء المقدسيات أو ممن سكنّ القدس، ومثال ذلك المدرسة العثمانية التي تقع بجوار سور بيت المقدس، أوقفتها امرأة من أكابر الروم (تركية) اسمها أصفهان شاه خاتون ولُقبت بخانم، وكان ذلك عام ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م، وقد دفنت الواقفة بالتربة المجاورة لسور المسجد الأقصى الشريف [3]، والمدرسة الخاتونية بباب الحديد بالقدس الشريف، بنتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، في الخامس من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وسبعمائة، وأوقفت عليها المزرعة المعروفة بظهر الجمل، واشتهرت في عصر المماليك بباطن الجمل [4]، توفيت أغل خاتون ولم تنته عمارة المدرسة، فأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه في العشر الآخر من جمادى الآخرة سنة ٧٨٢ هـ / ٢٢-٣١ أيلول ١٣٨٠م ورصدت عليها الأوقاف[5]، والمدرسة الغادرية بالمسجد الأقصى عمرتها مصر خاتون زوجة ناصر الدين محمد بن دلغادر وكان بناؤها سنة ٨٣٦

---

[1] محلة باب الحديد تقع في خط وادي الطواحين، وهو الشارع الممتد من درج العين إلى باب العامود، وإلى الغرب من هذا الخط تقع حارة باب الحديد، وهذا الباب هو أحد أبواب الحرم الغربية الواقع شمال باب القطانين. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٣-٥٤. وانظر (الملحق رقم ٢٦).

[2] عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص ٨٢، ٩٠.

[3] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج ٢، ص٣٦.

[4] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٣٦.

- عبد الغني: المرجع المتقدم، ص١٠٠.

[5] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٣٦.

هـ/ ١٤٣٢م[١]، وكذلك المدرسة البارودية عمرتها وأوقفت عليها الأوقاف الست الحاجة سفري خاتون بنت شرف الدين أبي بكر بن محمود المعروف بالبارودي، وتاريخ وقفها ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م[٢].

وأما عن نشاطات المرأة المقدسية في المجال العلمي، فكما هو معروف أن دعوة الإسلام في طلب العلم لم تقتصر على الرجال دون النساء، بل كانت الدعوة إلى طلب العلم موجهة إلى النساء والرجال معاً، فقد صح أن النساء قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: (غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن)[٣].

ولقد كانت زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته مرجعاً لمسائل الدين والفقه، وكانت بيت كل واحدة منهن مدرسة، يجتمع فيها طلاب العلم والحديث فيأخذون عنهن أحكام الشريعة وغيرها من العلوم[٤].

وفي عصر المماليك كانت المرأة المسلمة قد ازداد إقبالها على مجالس العلم والدين، فكنَّ يجلسنَّ في مكان منفرد عند الرجال لسماع الدروس[٥]، وقد خصَّ بعض الفقهاء والوعاظ النساء دون الرجال بعلمهم، وحُجَّتُهُم في ذلك أن النساء لا يُعلِمهُّن أحدٌ من أزواجهن شيئاً، ولذلك يجب إعطائهن عناية خاصة حتى يعرفن أحكام الدين وما عليهن

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل ،ج٢، ص٤٠.

[٢] مجير الدين: المصدر نفسه ، ج٢، ص٤٣- ٤٤.

[٣] ابن حجر العسقلاني (الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج١، ص٢٦٠.

[٤] غنيمة (محمد عبد الرحيم) : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان، دار الطباعة المغربية، ١٩٥٣م، ص٣٠١.

[٥] ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٢١٩.

من حقوق، وإلى جانب هؤلاء الوعاظ من الرجال ظهر عدد كبير من الواعظات اللائي تخصصن في وعظ النساء وتعليمهن وتحفيظهن القرآن[١].

وبالنسبة لنشاط المرأة المقدسية في ميدان العلم، فلا يخفى علينا الازدهار العلمي والحضاري الذي عاشته القدس في عصر المماليك، ولقد تقدم ذكر ذلك، وكان للمرأة نصيب في المشاركة بهذه النهضة العلمية، وأثبتت النساء المقدسيات وجودهن على المستوى العلمي، وظهر منهن عالمات وحافظات ومدرسات، نلن من شتى صنوف العلم.

ولابد هنا من ذكر بعضهن على سبيل المثال: [٢]

- زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسية المعروفة ببنت الكمال (٦٤٦- ٧٤٠ هـ/ ١٢٤٨ – ١٣٣٩م) (كانت دينة وخيرة، روت الكثير وتزاحم عليها الطلبة وقرؤوا عليها الكتب الكبار ...)[٣]، وقيل عنها (مسندة الشام المرأة الصالحة العذراء، وتكاثر عليها، وتفردت وروت كتباً كباراً ..)[٤]
- أسماء بنت محمد بن الكمال بن عبد الرحيم المقدسية ابنة عم زينب (سالفة الذكر)، حفظت الكثير وحدثت الكثير، توفيت عام

---

[١] عاشور: المجتمع المصري، ص١٣٨.

[٢] قد تناولت بعض الدراسات الحديثة أعلام القدس من النساء والرجال: مثل:

– أعلام فلسطين لمحمد عمر حمادة، طبعة دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥ وما بعد.

– بلادنا فلسطين لمصطفى الدباغ، طبعة دار الهدى، كفر قرّع، ١٩٩١م.

[٣] ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد، ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سعيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، مطبعة المدني، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦م، ج٢، ص٢١٠.

[٤] ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٦، ص ١٢٦.

٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣م ودفنت بالقدس[١].

- أسماء بنت محمد القلقشندي المقدسية (٧٧٩- ٨٦٦ هـ/ ١٣٧٧- ١٤٦١م) محدثة أخذت عن علماء عصرها وحدّثت، ودُفنت بالقدس[٢].
- زينب بنت أحمد بن عمر المقدسية (٦٢٨ – ٧٢٢ هـ/ ١٢٣٠- ١٣٢٢ م)، ارتحل إليها الطلبة، وحدثت بمصر والمدينة المنورة والقدس، وكانت موصوفة بالعبادة والخير، توفيت ودفنت بالقدس.[٣]
- أسماء بنت خليل بن العلائي: (٧٢٥- ٧٩٥هـ/ ١٣٢٤- ١٣٩٢م) سمعت من والدها، وحدّثت الكثير من مسموعاتها، وهي زوجة العلامة اسماعيل القلقشندي[٤].
- زينب بنت محمد المقدسية (٦٦٥- ٧٤٦هـ/ ١٢٦٦- ١٣٤٥م) سمعت وحدثت[٥].
- آمنة بن العلامة تقي الدين اسماعيل القلقشندي، (ت٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦م) سمعت عن والدها وجدها لأمها، وحدثت بالقدس[٦].

---

[١] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٨٥.
- محمد عمر حماده: أعلام فلسطين، ج١، ص٣٢٩.

[٢] السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦م) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، (د. ت)، ج٧، ص١٢.
- محمد عمر حمادة: المرجع المتقدم، ج١، ص٣٢٨.

[٣] ابن حجر العسقلاني: المصدر المتقدم، ج٢، ص٢١٠.
- العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٦، ص٥٦.

[٤] ابن حجر العسقلاني: المصدر المتقدم، ج١، ص٣٨٤.
- مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص١٦٢.
- مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٩، ق٢، ص٣٤٠.
- محمد عمر حمادة: المرجع المتقدم، ج١، ص٣٢٧.

[٥] محمد عمر حمادة: المرجع المتقدم، ج٣، ص١٧٢.

[٦] السخاوي: المصدر المتقدم، ج١٢، ص٣.
- محمد عمر حمادة: المرجع المتقدم، ج٣، ص١٠.

وهناك عشرات الأسماء التي تضج بها كتب الأعلام، وكانت الغاية هنا فقط التبيان بأن المرأة في بيت المقدس كان لها حضورها في مجال العلم والتعليم، وأن هذه كانت من بين الأنشطة الاجتماعية التي مارستها المرأة المقدسية في عصر المماليك، إلا أن الوثائق ضعيفة في هذا الجانب، فهي لا تزودنا بأسماء نساء عالمات ومتعلمات مثل ما زودتنا بأسماء الرجال؛ كالعالم الصوفي برهان الدين الناصري والعالم سراج الدين، وإن كان هناك ضعف بالوثائق من هذه الناحية، إلا أنها تُبين لنا انتعاش الحركة العلمية والدينية (التصوف) بشكل عام، فقد كان هناك الكثير من الزوايا والخوانق والحركات الصوفية في القدس، هذا بدوره شَكَّل عامل جَذْبٍ للأتقياء والمتدينين وطلاب العلم، فالخانقاه الصلاحية يرد ذكرها في الوثائق في ثلاث وعشرين وثيقة على الأقل[١]، ولابد أن تكون المرأة المقدسية من رواد هذه المؤسسات العلمية؛ التي لم تكن مقصورة على الرجال، والدليل على ذلك أن بعض الربط كانت مخصصة للنساء، فوجد في مصر في عصر المماليك عدد من الربط، بنيت من أجل العناية بالنساء وإيوائهن، ففي منطقة القرافة الكبرى فقط وجد تجمع مؤلف من ستة ربط في مكان واحد، وهي: رباط بنت الخواص، ورباط الأشراف، ورباط الأندلس، ورباط ابن العكاري، ورباط الحجازية، ورباط الرياض، ويحدد المقريزي وظيفة هذه الربط بأنها: (عدة دور يقال للدار منها رباط على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبي صلى الله علية وسلم، يكون فيه العجائز والأرامل والعابدات)[٢].

---

[١] لمعرفة أرقام هذه الوثائق. انظر، Little: Catalogue , p.463

[٢] المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٤٥٤.

الفصل الرابع: الجوانب الاجتماعية في الحياة اليومية لسكان بيت المقدس

أولا: المؤسسات الاجتماعية:

١- الحمامات.

٢- الأسبلة وتوفير مياه الشرب.

٣- البيمارستانات.

ثانيا: الأوقاف.

ثالثا: عمران بيت المقدس.

رابعا: الأثاث والمفروشات.

أولاً: المؤسسات الاجتماعية:

كان مقدراً لمدينة القدس أن تتعافى في عصر المماليك تعافياً مدهشاً من الضربات التي لحقت بها أثناء الاحتلال الصليبي لها وبُعيده، فقد حل فيها الخراب والدمار آنذاك في عمرانها وأهلها، ولكنها أصبحت في عصر المماليك حاضرة فلسطين دينياً وثقافياً واجتماعياً وعمرانياً، وبرزت إلى حدٍ ما على أنها مركزاً للأنشطة الدينية والعلمية وللعبادة بصورة خاصة لا للأحداث السياسية، فعاشت عصرها الذهبي، وحظيت بمكانة سامية، وتوفرت فيها أجواء الحرية والتسامح والهدوء، ونشطت فيها الحركة التجارية، وازدهرت بها العلوم الإنسانية، وغدت القدس مركز إشعاع حضاري أمَّه القاصي والداني.

وهناك شواهد وأدلة كثيرة تؤكد فورة النشاط العمراني التي شهدتها المدينة في عصر المماليك، والتي لا تزال آثارها شاهدة على ذلك حتى الآن، ولقد امتازت القدس في هذا العصر بكثرة المؤسسات الاجتماعية، وبكثرة ما أوقف عليها من أوقاف، فإذا نظرنا إلى الحياة الاجتماعية في مدينة القدس من زاوية أخرى – غير زاوية النشاط الفردي – وجدنا جانبا مهماً من النشاط الاجتماعي يتركز في المؤسسات العديدة التي ذخرت بها، وهذه المؤسسات بعضها كان ذا صبغة اجتماعية بحتة – كالحمامات والأسبلة والبيمارستانات – ومنها ما كان ذا مسحة تجارية أو دينية أو ثقافية، ولكنه احتوى نشاطاً اجتماعياً – كالأسواق والفنادق والخانات والمساجد والمدارس.....و غيرها[1].

ولذلك ستقتصر الدراسة هذه على المؤسسات الاجتماعية ذات الصبغة الاجتماعية البحتة، أي الحمامات والأسبلة والبيمارستانات، لأن المؤسسات الأخرى مجالاتها دينية واقتصادية وتعليمية أكثر منها اجتماعية.

---

[1] عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ١٩٨٠م، ص١٠٨-١٠٩.

١- **الحمامات:**

لقد كانت الحمامات مركزاً من مراكز الحياة الاجتماعية النشطة، ففيها كان يجتمع الأصدقاء والأحباء، ويتبادلون الأخبار والقصص والفكاهات، وإليها يذهب العريس والعروس (كل على انفراد) قبل الزواج، ويذهب إليها المريض بعد شفاءه، والمرأة الحامل لتسهيل الولادة، بالإضافة إلى هذا هي منشأة حضارية، عرفها المسلمون منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، فقد بنيت الحمامات في المدن الإسلامية بعد الفتوح مباشرة، ومنها حمام عمرو في الفسطاط[١]، وحمامات ثلاثة في البصرة[٢]، وحمام عياض بن غنم في القدس[٣].

والحمام مؤسسة مدنية ارتبط وجودها في المدينة الإسلامية بحاجات وظيفية تعود إلى دعوة الإسلام للنظافة والتطهر، ومن المعروف أن سكان المدينة الإسلامية في العصور الوسطى لم يكن بمقدورهم بناء حمامات خاصة في بيوتهم بسبب التكلفة المرتفعة في إنشاء ذلك، بالإضافة إلى أن عملية توزيع المياه وإيصالها إلى البيوت لم تكن سهلة وميسورة، وعلى هذا فالحمامات في المدينة الإسلامية كانت تلبي حاجات العامة وغير العامة من سكانها[٤].

ويلاحظ أن القدس كانت قليلة الحمامات قياساً بمدن ذلك العصر الكبرى، ففي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي كان في دمشق خمس

---

[١] ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القسم الأول، ص ١٠٥.

[٢] البلاذري (أحمد بن يحيى، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، تح: طه عبد الرؤوف سعد وعمرو أحمد عطوة، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ٣٧٣.

[٣] مجير الدين: الأنس الجليل ج١، ص ٢٦١.

[٤] عثمان (محمد عبد الستار): المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٢٨، ١٩٨٨م، ص٢٤٦.

- زيود (محمد): التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم العربي والإسلامي، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠١م، ص٤٤٦.

وثمانون حماماً داخل السور واثنان وثلاثون حماماً خارجه(١)، وفي حلب ثمانين حماماً داخل السور وأربعٍ وتسعين في خارجه، وكان في فاس في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي مئة حمام، وفي استانبول في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ستين حماماً داخل السور وإحدى وخمسون حماماً خارجه(٢)، وأما في مدينة القدس والتي كانت أصغر حجماً من المدن المذكورة، فقد كان فيها في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ثلاثة عشر حماماً(٣)، غير أن قلة هذا العدد ترتابه بعض الشكوك.

وتعود قلة الحمامات في بيت المقدس إلى شح المياه فيها، ومن المعروف أن مدينة القدس كانت تعاني دوماً من نقص في المياه، إذ أن أهل المدينة كانوا يشربون من صهاريج وآبار كانت تستخدم لجمع ماء المطر(٤)، فعندما ساق الأمير تنكز الماء إلى القدس من عين العرّوب(٥) بنى فيها حمامين(٦)، كانت أحوج شيء؛ إليه إذ لم يكن بها حمامات مُرضية(٧)، ويمكن أن نعلل قلة الحمامات بالقدس مقارنة بتلك المدن، أن سكان مدينة القدس أقل عدداً من سكان

---

(١) كيال (منير): الحمامات الدمشقية، مطابع ابن خلدون، دمشق، ١٩٨٦م، ص٢٧.

(2) Encyclopedia of Islam New Ed (1971) Article"Hammam"p.139.

(٣) العسلي: من آثارنا، ص ١٦٤.

(٤) فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٣، ص١٠١٨.

(٥) جاء في معجم البلدان أن العرّوب: اسم قريتين بناحية القدس فيهما عينان عظيمتان وبركتان وبساتين. انظر، الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٢٦.

– وجاء في الموسوعة الفلسطينية أن ماء العرّوب جلبها إلى القدس في سنة ٥٨٩هـ/١٢٩٣م الملك العادل الأيوبي، وتبعد عين العرّوب قرابة ٢كم إلى جنوب القدس، وبنى العادل سقاية (أي حوضاً) لحفظ الماء في الجهة الجنوبية بالقرب من باب الموضأ المعروف بباب المطهرة، أحد أبواب الحرم الغربية، وهناك على مدخل السقاية القديم الذي لا يزال قائماً توجد فوقه كتابة تشير إلى عمل العادل هذا، وهذا يُسجل أول محاولة في التاريخ الإسلامي لتموين القدس بالماء من الخارج. انظر، الموسوعة الفلسطينية: إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق،ط١٩٨٤،١،ج٣، ص٥٣٥.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٢٢.

(٧) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص ٥٤٥.

تلك المدن الكبرى، ومواردها الاقتصادية قليلة إذا ما قورنت بموارد تلك المدن[١]

أما عن أهم حمامات بيت المقدس في عصر المماليك؛ فيأتي في مقدمتها: الحمامان اللذان بناهما الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، وأوقفهما في عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م على المدرسة (الخانقاه) التي أنشأها بباب السلسلة، وهما حمام الشفا الذي كان يقع في وسط سوق القطانين (على جانبه الجنوبي)، والثاني هو حمام العين الذي كان يقع في نهاية هذا السوق عند التقائه بطرق الواد.

ولقد ورد ذكر هذين الحمامين في وقفيته على مدرسته[٢]،كما أتى على ذكرهما كل من ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة حيث يقول أن :(تنكز عمّر في القدس رباطاً وحمامين وقياسر)[٣]، والنعيمي في تاريخ المدارس حيث يقول: (وعمّر "أي تنكز" القدس وساق إليه الماء وأدخله الحرم على باب المسجد الأقصى، وعمّر به حمامين وقيسارية ...)[٤]،والمقريزي في السلوك[٥]، وتذكر وقفية تنكز الحمامين باسم القبلي والغربي، فهي تحدد الاتجاه بالنسبة لسوق القطانين، فحمام الشفا يقع في قبلي السوق بينما يقع حمام العين في نهايته الغربية[٦].

---

(١) العسلي: من آثارنا، ص ١٧١.

(٢) وردت هذه الوقفية في السجل رقم ٩٢ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس الشريف، ص ٤٢٦ وما بعدها، وكذلك في دفتر الأراضي العثمانية رقم ٥٢٢ ص٢٣،للحصول على نص هذه الوثيقة انظر: العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٠٨-١٢١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٢٢.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٢٦.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٣٠٢.

(٦) العسلي: المرجع المتقدم، ص ١٧٦.

وتصف هذه الوثيقة بالتفصيل حمام الشفا، وهو الأكبر، ومعالم هذا الحمام التي وصفتها الوثيقة قد زالت أكثرها[١]، ولقد كان هذا الحمام مفخرة من المفاخر المعمارية. وكان يأتي بعد حمام الشفا حمام العين، وهو من أشهر حمامات القدس، وسمي بذلك لأنه كان يستمد ماءه من عين العروب، وكان حتى عام ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م يعمل ويستقبل الزبائن، وهو الحمام الوحيد الذي بقي يعمل إلى ذلك الحين[٢].

ومن الحمامات المشهورة في مدينة القدس الشريف حمام الأسباط ويسمى أيضاً حمام السيدة مريم، ويقع هذا الحمام في أول طريق برج اللقلق، وهو الطريق الذي كان يتجه شمالاً بمحاذاة السور من الداخل، أي أنه على يمين الداخل إلى باب الأسباط[٣]، ويبدو أن هذا الحمام سمي بهذا الاسم نسبة إلى بركة الأسباط التي يستمد مياهه منها، حيث ورد في الوثيقة رقم ٦٠٦ المؤرخة في ٦ ذي الحجة ٧٧٧هـ/٢٧ نيسان ١٣٧٦م اسم البركة بـ(بركة حمام الأسباط)[٤]، وروي أنه كان مبنياً منذ أيام سيدنا سليمان عليه السلام[٥]، وكان هذا الحمام موجوداً على وجه التأكيد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أيام المقدسي[٦]، وورد ذكره في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي على أنه من بين الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي على المدرسة الصلاحية[٧]، واستمر هذا الحمام يعمل حتى سبعينيات القرن الرابع

---

[١] العسلي: من آثارنا ، ص ١٧٧.

[٢] العسلي: المرجع نفسه، ص ١٩٠.

[٣] العسلي: المرجع المتقدم، ص ٢٠١، انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٨).

[4] Little: A Catalogue, P. 265-266.

[٥] مجير الدين: الأنس الجليل، ج١، ص ١٢٩، ١٣١.

[٦] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٣٣٥.

[٧] عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص٨٩.

عشر الهجري / العشرين الميلادي، وتوقف عن العمل بسبب قلة المقبلين عليه[1].

ومن حمامات القدس أيضاً حمام علاء الدين البصير في خط مرزبان[2]، هذا الخط شكل جزءاً من حارة الواد، وموضعه حسب تقدير أحد الباحثين في النهاية الغربية لخط مرزبان عند التقائه بطريق القرمي[3]، وكان بجواره بركة ماء تابعة له، والمعلومات المتوفرة عنه قليلة نوعاً ما ولكن حسب ما جاء في الوثائق، كان هذا الحمام من أوقاف الأمير علاء الدين البصير- الذي كان ناظراً للحرمين الشريفين أيام السلطان الظاهر بيبرس ثم في أيام السلطان المنصور قلاوون – التي أوقفها على الفقراء والمساكين الواردين على رباطهم[4].

ومن أهم حمامات القدس حمام البطرك أو البترك، في حارة النصارى، وكان وقفاً على الخانقاه الصلاحية التي بناها صلاح الدين الأيوبي[5]، ولا يعرف تاريخ بناء هذا الحمام، ولكنه قديم، وقد حددت وثيقة الوقف مكان الحمام من حدوده الأربع (الحد الأول وهو القبلي ينتهي إلى زقاق يسلك منه إلى الزردخانة[6]، وفيه يفتح باب الأقمين[7]، والحد الثاني وهو الشرقي ينتهي إلى

---

(1) العسلي: من آثارنا، ص ٢٠٥، حاشية رقم ٥٩.

(2) مجير الدين: الأنس الجليل ج٢، ص ٥٣.

(3) العسلي: المرجع المتقدم، ص ٢٠٩.

(4) عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص٧٥.

(5) مجير الدين: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٠، ٥٣، ٥٩.

(6) الزردخانة: كلمة فارسية تعني مصنع الأسلحة ويقال لها أحياناً (السلاح خاناه)، وأحياناً تُستخدم بيت الزرد، لما فيه من السيوف والقسي والنشاب والرماح والدروع... الخ. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١١.

– حسنين (عبد المنعم محمد): قاموس الفارسية، دار الكتاب اللبنانية، بيروت، ١٩٨٢م، ص٣٢٠.

(7) الأقمين أو الأقميم: الفرن الذي يسخن فيه ماء الحمام. انظر، الدسوقي (محمد علي): تهذيب ألفاظ العامية، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٣م، ج٢، ص٩٩.

دار تعرف قديماً بالاسبتار وحديثاً بالزردخانة، والحد الثالث وهو الشمالي ينتهي بالزردخانة، والحد الرابع وهو الغربي ينتهي إلى الشارع المسلوك المعروف بسوق الزيت، وفيه يفتح باب الحمام)[1].

وقد تولى أمر هذا الحمام شيخ الخانقاه الصلاحية، حسب ما ورد في الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق الحرم القدسي الشريف المدونة في تاريخ ١٩ محرم سنة ٧٤٧هـ / ١٢ أيار ١٣٤٦م، حيث كان يشرف عليه في هذا العام الشيخ العارف شرف الدين عيسى بن غانم[2]، وقد تم تأجير هذا الحمام – حسب الوثيقة – بثلاثة عشر من الدراهم الفضة النقرة[3] عن كل يوم، يدفع المستأجر منها عشرة دراهم آجار وثلاثة لا تدفع؛ وذلك مقابل اغتسال المتصوفة المقيمين في الخانقاه، وكان يستمد مياهه من بركة حمام البطرك[4]، التي لا تزال موجودة حتى اليوم في حارة النصارى[5].

ومن الوثائق التي توفرها سجلات المحاكم الشرعية بالقدس يتبين أن الحمام استمر يعمل حتى القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، ولا يعرف بالضبط متى توقف عن العمل بعد ذلك[6].

وهناك في الوثائق إشارات إلى حمام لم يُذكر في المصادر التقليدية، فقد دونّ في الوثيقة رقم ٧٧٣ "آ" المؤرخة في ٧٩٦ هـ/١٣٩٣–١٣٩٤م قائمة بالنفقات التي استهلكتها عمائر – ترميم أو إنشاء– الحمام المبارك في القدس

---

[1] وقفية صلاح الدين على الخانقاه الصلاحية في ٥ رمضان ٥٨٥ هـ . انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٩١–٩٢.

[2] آل غانم كانوا شيوخ الخانقاه الصالحية وقضاة الشافعية في القدس، وهذا هو جد القاضي المشهور شرف الدين عيسى. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص١٢٧.

[3] الدراهم الفضة النقرة: ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٠٩.

[4] العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٤٥.

[5] انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٨).

[6] العسلي: من آثارنا، ٢١٥–٢١٦.

والمتضمنة في وقف الخانقاه الصلاحية[1] ولا ندري أي حمام هو أو أين كان يقع.

أما عن أنظمة عمل وبناء هذه الحمامات، وعن نشاطها الاجتماعي، فلدينا وصفاً معاصراً لحمامات القدس قدمه لنا فليكس فابري، فقد جذبت الحمامات في فلسطين انتباهه وكتب عنها ما يلي: (عندما يدخل الزائر إلى الحمام سيجد أمام الغرفة الساخنة بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال، وفي هذا البناء عدد من الغرف الصغيرة، من دون فرش. لكن الأرض كانت مفروشة بالحصر وبسعف نخيل مضفورة، وكانت كل غرفة مغلقة بستارة فقط، وفي هذه الغرف يمكن للإنسان لمن لم يرغب أن يستحم وهو بدون ملابس، أو وهو لابس، وفي الغرفة نفسها قد جرى تعليق ثياب نظيفة، يتغطى بها الذين يودون التجوال في الحمام، والتغطية هي من السرة حتى الركب، عوضاً عن السراويل والأحزمة، وبذلك يتغطى الإنسان من الأمام والخلف، ويوجد وسط هذا الرواق هناك نافورة ماء، يسيل خلال عدة أنابيب صدوراً عن أعمدة رخامية وجميع الأرضيات والجدران مكسوة من الداخل والخارج في قلب الغرفة الحارة، بمختلف أنواع الرخام الأبيض المصقول، لذلك يتوجب على الذي يسير فوقه الحذر وأن يسير بانتباه، خشية الانزلاق، وذلك مثل الإنسان الذي يسير فوق جليد.

والغرفة الساخنة نفسها تشبه برج مربع، والقبة أو القنطرة التي تغطيها ليس لها سقف فوقها، بل لها فتحات كثيرة، كل واحدة بحجم رأس الإنسان، وهي مغلقة بزجاج النوافذ من مختلف الألوان، يدخل من خلالها ضوء باهت، ولكن فيه كفاية، ولا يوجد في الغرفة الساخنة أتون نار، ولا يشعر الإنسان بحرارة النار أو الدخان، بل يوجد في واحد من الأماكن موقد نار تحت البلاط، وبه يسخن رخام البلاط الأرضي، ويملأ الماء الذي يجري خلال أقنية محفورة في

[1] Little: A catalogue: p.352

الصخرة الغرفة كلها بالسخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة، وكما قلت الغرفة مربعة، وليس فيها إضاءة، إلا التي تأتي من الفتحات في القبة، ويوجد على الطرف الأول سخونة فائقة وماء ساخن، ويوجد على الطرف الآخر برودة وماء بارد، أما الطرف الثالث ففارغ وهاءئ، والطرف الرابع الباب، وفي الوسط حرارة مقبولة.

وصاحب الحمام نفسه لطيف جداً، ويقوم بتواضع وكرم بخدمة المستحمين، وغالباً ما يتولى دلكهم وتغسيلهم ودهنهم بـــ......، أو بدهون أخرى مناسبة، لأنهم يعالجون الضعفاء بأطرافهم في الحمام، وإذا كان إنسان يشعر بألم من أي سبب، يقوم الحمامي بتدليكه، ودهنه وبالضغط وبشد المكان الذي يشعر فيه بالوجع، وذلك حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الشيء، وبطريقة مماثلة، إذا كان هناك أي إنسان يعاني من آلام في أي من أطرافه، من ذلك على سبيل المثال في ذراعه أو ساقه، أو يده، أو قدمه، أو رقبته، فإنهم يتولون معالجة مثل هذه الأشياء، بطرائق رائعة مدهشة، وبذلك تزيل التقلص عن الأعضاء المتشنجة، وكذلك تزيل النقرش في الأقدام والأيدي، والحصا من المثانة والرمل، فهذا كله يعالج في الحمام بفن عظيم.

ومثل هذا إذا كان أي إنسان يشكو أو يعاني من ضيق في صدره، وقصر في تنفسه، تراهم يعملون بجد ونشاط لعلاجه وبراءته، ولا يفعلون هذا فقط بمجرد الجلوس إلى جانبه، بل إنهم يأخذون المريض ويجلسونه ثم يمددونه على البلاط في وسط الحمام، إما على ظهره، أو على وجهه، أو على جانبه، وذلك حسبما يتطلب الألم، ثم يجلس الحمامي فوقه، ويتولى معالجة موضع الألم، وبلطف يحرك الذراع المصاب نحو الأمام والخلف، ويضغطون على الرقبة إما بهذا الاتجاه أو ذاك.

وإنه لأمر يبعث على السرور، أن تجد أمراضاً كثيرة تجري معالجتها في الحمام، وهي أمراض كنا نُقدر أنها غير قابلة للمعالجة)[1].

وبعد هذا الاستعراض السريع لابد أن نذكر أن حمامات عصر المماليك كانت على نوعين: الحمامات الخاصة والحمامات العامة، أما الخاصة فهي تقتصر على السلاطين والقادة والأثرياء من السكان[2]، والحمامات العامة التي تم التحدث عنها، وفي القدس كانت هذه الأخيرة بعضها مخصص للذكور والإناث يرتادونها في أوقات مختلفة، كحمام العين، وبعضها كان يرتاده الرجال فقط كحمام الشفا[3]، شأنها شأن بقية الحمامات في غيرها من المدن [4].

كان الجهاز الإداري للحمام يتألف من: الحمامي الذي يُلقب بالمعلم، وهو الذي يستأجر الحمام ويشرف على العاملين فيه من الرجال، أما إذا كان الحمام للنساء فتتولى الإشراف عليه الناطورة، وهناك الصانع(ورد باسم البلان في الوثيقة رقم ٦٢٧)[5] الذي يقوم على خدمة الزبائن، والحارس؛ وكانت مهمته المحافظة على نقود الزبائن وحاجاتهم، ومراقبة مناشر الغسيل، وكان يُغرم بثمن الملابس إذا فُقدت، والمدولب؛ ومهمته الإشراف على الزبالين لإحضار التبن إلى الحمام، أما الزبال(الإقميمي)؛ فوظيفته إحضار التبن والزبل ووضعه

---

(١) فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٣، ص١٢٤٣-١٢٤٥

(٢) سعيد عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية، ص١١٨.

(٣) العسلي: من آثارنا، ص ١٧١.

(٤) فابري: المصدر المتقدم، ج ٤٣، ص ١٢٤٥

(5) Little: A Catalogue, P.P.182-183.

في موقد النار[١]، والمزين(الحلاق)، والحجام (الذي يفصد الدم) وقد حل محل هذين فيما بعد موظف يعرف بالمكيس أو الكياس[٢].

أما بالنسبة للإشراف على هذه الحمامات وعلى نظافتها وعنايتها، وحُسن تصرف العمال مع الزبائن، فقد أوكلت هذه المهمة إلى المحتسب الذي كان: (يأمرهم بغسل الحمام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر غير ماء الغسالة يفعلوا ذلك مراراً في اليوم، وأن يدلكوا البلاط بالأشياء الخشنة لئلا يتعلق بها السدر[٣] والخطمي[٤] فينزلق الناس عليها، ويغسلون كل يوم حوض النوبة من الأوساخ المتجمعة من المجاري والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر مرة لأنها إن تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها من الطعم والرائحة، ولا يسدوا الأنابيب بشعر المشاطة [٥] بل يسدوها بالخرق الطاهرة أو الليف الطاهر، ويستعمل فيها البخور في اليوم مرتين.

ولا يدع الأساكفة[٦] وأصحاب اللبد[٧] يغسلون شيئاً من اللبد ولا من الأديم[٨] في الحمام فإن الناس يتضررون برائحته، ولا ينبغي أن يدخل الحمام مجذوم

---

(١) يعقوب (محمد أحمد سليم):ناحية القدس في القرن العاشر الهجري، منشورات البنك الأهلي، عمان، ط١، ١٩٩٩م، ج٢، ص٤٥٦-٤٥٧.

(٢) الصابئ (أبي الحسن هلال بن الصابئ، ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م): رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤، ص ١٩.

(٣) السدر: شجر النبق المعروف. ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٣٥٤ (مادة سدر).

(٤) الخطمي: نوع من النبات كبير الحجم يُغسل به. انظر، ابن منظور: المصدر نفسه، ج١٢، ص١٨٨ (مادة الخطم).

(٥) ما يسقط من الشعر عند مشطه.

(٦) جمع إسكافي، مصلح الأحذية. انظر، ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢٣٣.

(٧) اللبد: الصوف المتلبد واللبد: نوع من بسط الصوف. انظر، ابن منظور: المصدر المتقدم، ج٣، ص٣٨٦ (مادة لبد).

(٨) الأديم: الجلد المدبوغ، وقيل الجلد الأحمر. انظر، ابن منظور: المصدر المتقدم، ج١٢، ص٨ (مادة أدم).

ولا أبرص، وينبغي أن يكون للحمامي مآزر يؤجرها للناس وأن تكون عريضة حتى تستر ما بين الركبة والسرة، ويأمر بفتح الحمام في السحر لحاجة الناس إليها للتطهر فيها قبل وقت الصلاة، ويلزم الوقاف حفظ أقمشة الناس فإن ضاع منها شيء لزمه ضمانة على الصحيح، ويتخذ بالحمام زيراً كبيراً برسم الماء الحلو، أو عذباً إن كان يشرب برسم شرب الناس لاسيما في زمن الحر، فإن ذلك من المصالح، وكذلك يكون عنده السدر والدلوك[١]، فقد يحتاج الإنسان له ولا يمكنه الخروج إلى ظاهر الحمام، ولو رتب سداراً[٢] دائماً على باب الحمام لبيع السدر وآلة الحمام كان ذلك حسناً.

ويلزم صاحب النوبة باستعمال الأمواس الجيدة الفولاذ حتى ينتفع الناس بها، وينبغي أن يكون المزين خفيفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة وتكون الأمواس قاطعة، ولا يستقبل الرأس ومنابت الشعر استقبالاً، ولا يأكل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكراث وغيره في يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فِيْهِ عند الحلاقة، ولا يحلق شعر صبي إلا بإذن وليّه ولا عبداً إلا بإذن سيده، ولا يحلق عذاراً[٣] أمرداً، ولا لحية مخنث.

ويلزم المحتسب أن يتفقد الحمام في كل وقت ويتبع ما ذكرناه، وإن رأى أحداً قد كشف عورته عزّره على كشفها لأن كشف العورة حرام، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناظرة والمنظُورَ إليه، والنساء أشد تهالكاً من الرجال، ولهن محدثات من المنكر...، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأوساط والأطراف، فقد أُحدثت الآن من الملابس مالا يخطر للشيطان من حساب)[٤].

---

[١] الدلوك: ما يتدلك به من طيب وغيره. انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص٣٢٧ (مادة دلك).

[٢] السدار: الرجل الذي يبيع ورق السدر.

[٣] عذار: هو جانب اللحية، فيقال عذّر الغلام، أي نبت شعر عِذاره أي خده، أي الشعر الذي يحاذي الأذن. انظر، ابن منظور: المصدر المتقدم، ج٤، ص٥٤٩-٥٥٥ (مادة عذر).

[٤] ابن الأخوة: معالم القربة، ص ٢٤٠-٢٤٤.

٢ – الأسبلة وتوفير مياه الشرب:

السبيل لغةً: الطريق وما وضح منه، وسبيل الله هو طريق الهدى الذي دعا إليه، فقد ورد في الآية الكريمة﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ﴾[١]، أيضاً في آية أخرى قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾[٢]، وهناك معنى مجازي للسبيل كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٣]، أي في الجهاد وكل ما أمر الله به من خير فهو في سبيل الله[٤].

أما السبيل بمعنى عين الماء؛ فهو تعبير استعمل في وقت متأخر ولم يرد في أصل اللغة، وقد بدأ استعماله في أواخر القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن الهجري / الثالث عشر والرابع عشر الميلادي (عصر المماليك)، وكانت تُستخدم في العصر الأيوبي وغيره كلمة (سقاية) أو (مسقاة) أو (صهريج)، وفي أصل اللغة هناك الفعل(أسبل)، فيقال: أسبل الإزار، أي أرخاه، ويقال أسبلت السماء، أي أمطرت[٥]، وأسبل الماء بمعنى صبه، أما استعمال كلمة سبيل لعين الماء إنما جرى على الألسن بناء على أن إقامة هذه المنشأة عملاً خيرياً جُعل في (سبيل الله)، وسبيل الله كلمة أطلقها المسلمون على أي عمل خيري يُقصد به وجه الله، ومن هذه الأعمال تيسير وصول الماء إلى الناس[٦]، والأسبلة هي من المنشآت الاجتماعية التي قُصد بها توفير مياه الشرب للمسافرين وعابري

---

[١] الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

[٢] الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

[٣] الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

[٤] ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٣١٩-٣٢٠ (مادة سبل).

[٥] ابن منظور: المصدر نفسه، ج١١، ص٢١٨ (مادة سبل).

[٦] العسلي: من آثارنا، ص ٢١٨.

السبيل وجموع الناس، سواء داخل المدن أو خارجها، وتوفير مياه الشرب لا يقل أجراً أو ثواباً عن إطعام المسكين وإيواء اليتيم ومداواة المريض.

وقد كان نقص مياه الشرب من أكبر المشاكل التي عانى منها سكان القدس على مر العصور، فقد عُرف عن المدينة قلة المياه فيها وعدم وجود أنهار بها، والأمطار كانت هي المصدر الرئيس الذي يزود القدس بالمياه بالإضافة إلى عيون الماء الكائنة في بركة سلوان، فالمقادسة منذ أقدم العصور كانوا يجمعون مياه الأمطار في برك وصهاريج وحياض وآبار[1]، والتي كثيراً ما نراها بالقدس، ولكن هذه المصادر لم تكن كافية، فكان يأتي على القدس سنين تنضب فيها المياه وتزداد الحاجة إليها، وقد وردت في المصادر إشارات كثيرة على ذلك، فيذكر المقريزي في حوادث سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٨م أنه حدث (في ذي الحجة أن نزحت بئر السقاية التي في القدس حتى اشتد عطش الناس بها، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة، فأعلم نائب القدس، فأحضر بنائين وكشف البناء فأفضى بهم في قناة إلى تحت الصخرة، فوجدوا هناك باباً مقنطراً قد سدّ، ففتحوه فخرج منه ماء كاد يغرقهم، فكتب بذلك إلى السلطان، وأنه لما نقص ماء السقاية، دخل الصناع فوجدوا سدّاً نقب فيه الحجارون قدر عشرين يوماً، ووُجد سقف مُقلفط فنُقب فيه قدر مائة وعشرين ذراعاً بالعمل[2]، فخرج الماء وملأ القناة)[3].

---

[1] القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٦٠.

- فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة ج ٤٢، ص١٠١٨.

[2] ذراع العمل: هو الذراع الذي تُقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها، طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٣.

[3] المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٠.

- ابن عبد الظاهر (محي الدين، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٧٩٦م، ص٢٨٨.

ولهذا السبب ولأمثاله اهتم السلاطين المماليك بقضية مياه الشرب لأهالي القدس، ومن صور ذلك: أنّ السلطات المملوكية كانت تلجأ إلى تنظيف الأقنية وترميم البرك وحفر الآبار وفتح أقنية جديدة، وقد ذُكر آنفاً ما حدث في عهد السلطان بيبرس، ومجدداً في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وفي أيام نيابة تنكز للشام (٧١٢-٧٤٠هـ/١٣١٢-١٣٣٩م) شعر أهل القدس بالحاجة إلى الماء، وقلّ بها بشكل شديد (حتى بلغ شرب الفرس الماء مرة واحدة نصف درهم فضة)[١]، فاهتم الأمير تنكز بالأمر وندب الأمير قطلوا بيك أحد أمراء الطبلخانة بدمشق وذلك سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، وكان هذا من أكبر مهندسي الري في أيامه، وبعد عام واحد من العمل نجح ببناء قناة جلب فيها الماء إلى مصنع[٢]، كان قد بناه (سعته نحو مائتي ذراع، وركب في الجبل مجاري نقب لها في الحجر حتى دخل الماء إلى القدس، فكان لها يوم مشهود)[٣]، وحملت هذه القناة اسم (قناة السبيل)، وفي عهد السلطان خشقدم تم ترميم هذه القناة عام ٨٦٥هـ /١٤٦١م، فقد ورد عند مجير الدين أنه (ومن حسناته - أي خشقدم- بالقدس الشريف عمارة قناة السبيل الواصلة إلى القدس الشريف من عين العروب وعمارة البركة الشرقية من بركتي المرجيع)[٤].

إلا أن العمل في قناة السبيل لم ينته في عهد السلطان خشقدم، ومات وهي محتاجة إلى إكمال العمارة، فلما ولي بعده الملك الظاهر بلباي عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، ثم الملك الظاهر تمربغا في العام نفسه، رسم كل منهما

---

[١] المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٨٩.

[٢] المصنع: حوض يجمع فيه ماء المطر. انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٢١٠ (مادة صنع)، الفيروز أبادي (محمد ابن يعقوب الشيرازي ت: ٨١٧هـ/١٤١٤م): القاموس المحيط، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن مرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٢، ص٩٩١، (مادة صنع).

[٣] المقريزي: المصدر المتقدم، ج٢، ق١، ص٣٠٢.
- مجبر الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٩٢.

[٤] مجير الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص٩٩.

بإكمال العمارة، (فلم تطل مدة واحد منهما، فكتب أهل بيت المقدس من المشايخ والقضاة والأعيان استدعاءً للسلطان الملك الأشرف "قايتباي يتضمن سؤال صدقاته في إكمال عمارته، فبرز مرسومه الشريف بذلك، فعمرت ووصل الماء إلى القدس، وأعيد الجواب للسلطان بذلك"[1].

ويرجح أن هذا كان سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م[2]، ففي هذه السنة (احتبس المطر ببيت القدس حتى دخل أكثر الشتاء وحصل للناس شدة من قلة الماء......وكانت قناة السبيل هناك محتاجة إلى عمارة)[3]، وقد أنجز العمل بعد سنة، فقد عثر على نقش بقي من نصه ما يلي:

- الحمد لله الذي أفاض النعمة و.....جميل توفيقه تجديد عمارة مجاري المياه الواصلة إلى البيت
- المقدس... مولانا سيدنا....... لك بايد سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قامع البغاة
- (......الملك) الأشرف أبو النصر قايتباي لا زالت دولته العزيزة تنصر الإسلام
- ....أضاف المثوبات صحائفه المكرمة مخلدة وذلك على يدي العبد الفقير إلى
- الله تعالى الأمير ناصر الدين محمد بن النشاشيبي......... بجميل أفضاله وبلغه من كل خير منتهى آماله بمباشرة الزيني قاسم كريم الشكر إليه (؟) أسبغ الله تعالى

---

[1] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٨٤.

[2] زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص٦٠٢.

[3] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٢٨٥.

- .... العشر الأول من جمادى الآخر عام أربعة وسبعين وثماني مائة الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[(١)]

وظلت قناة السبيل بحاجة إلى ترميم وإعادة إعمار، ومن عمليات الترميم ما جاء على ذكره مجير الدين سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣ م أنه تم ترميم قناة السبيل وبركة المرجيع في عهد الأمير اليحياوي (نائب القدس)، حيث رصد لها من الخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار نفقة، واستمر في عمارتها خمسة أشهر وخمسة عشر يوماً حتى تم تجهيزها في عشرين رجب من ذلك العام[(٢)].

إلا أنه من أعظم صور الاهتمام المملوكي والعمل على توفير مياه الشرب على الإطلاق "الأسبلة" التي سبق التعريف بها، ويأتي على رأسها سبيل قايتباي أجمل أسبلة القدس، لذلك كان موضع اهتمام علماء الآثار وفن البناء، ويقع السبيل في الساحة الكائنة بين باب السلسلة وباب القطانين، وعلى بعد خمسين متراً من جدار الحرم الغربي بين درج صحن الصخرة الغربي الأوسط والمدرسة العثمانية (دار الفتياني)، وهو يقوم على مسطبة مكشوفة وفيها محراب (في الزاوية الشمالية الغربية من المسطبة)[(٣)].

إن أول من أنشأ هذا السبيل هو السلطان الأشرف أينال (٨٥٧-٨٦٥هـ /١٤٣٥-١٤٦١م)، ثم هُدم وجدده السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٨٧هـ /١٤٨٢م، وعرف باسمه، وجدده فيما بعد السلطان العثماني عبد الحميد بن عبد المجيد سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م[(٤)].

---

(١) أورده كامل العسلي في: من آثارنا في بيت المقدس، ص ١٥٧، نقلاً عن فان برشم:
Berchem, max, van .Jerusalem uille, p.338.

(٢) مجير الدين: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٣) العسلي: المرجع المتقدم، ص ٢٤٨ انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٨).

(٤) العسلي: المرجع المتقدم، ص ٢٥٢.

أما آلية عمل هذا السبيل، فإنه يتألف من طابقين، الأول يتكون من بئر محفور بالأرض لجمع ماء المطر وتعلو البئر خرزة، أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض نحو متر واحد ويوجد به المزملة لتفريغ الماء بها، وأرضيته مفروشة بالبلاط، وكان المزملاتي يقوم برفع الماء من البئر وتسبيله بواسطة قنوات تحت البلاط إلى الفتحات المعدة لرفع الماء، إذ توجد فتحات بالقرب من كل نافذة، وكان الماء يرفع من هذه الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل مثبتة بقضبان النوافذ[(١)].

ومن أهم أسبلة القدس؛ سبيل باب الحبس أو سبيل علاء الدين البصير أو سبيل إبراهيم الرومي، وهي أسماء ثلاثة لسبيل واحد وقع في الشمال الشرقي من باب الناظر[(٢)]، وأيضاً هناك سبيل تربة بركة خان، والذي ما يزال ماثلاً حتى اليوم عند مدخل المكتبة الخالدية الكائنة بباب السلسلة على يمين الداخل من الباب المطل على الجانب الجنوبي من طريق باب السلسلة، ويرتفع حوض السبيل قرابة متر عن أرض الشارع، وهو بسيط جداً[(٣)]، وبالنسبة لتاريخ بناء هذا السبيل، فإن تربة بركة خان الذي نسب إليها هذا السبيل، أصبحت اليوم المكتبة الخالدية، وكانت تتألف من مسجد (أصبح المكتبة) ومن التربة (أصبحت حديقة المكتبة)، وتضم رفاة الأمير الخوارزمي حسام الدين بركة خان مقدم الخوارزمية الذين استنجد بهم الصالح نجم الدين أيوب لاسترداد بيت المقدس من الصليبيين[(٤)]، وتضم أيضاً رفاة ولديه بدر الدين محمد بك وحسام الدين كره

---

(١) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٣٠. جلال أسعد ناصر: عمائر السلطان قايتباي في بيت المقدس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٢٣ – ١٣٣.

(٢) العسلي: من آثارنا، ص ٢٣٨ – ٢٤١. انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٨).

(٣) العسلي: المرجع نفسه، ص ٢٤٨. انظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٨).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٣٦.

– المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٦.

بك[١] ومن خلال الوثيقة ٣٦ من وثائق الحرم المدونة ١٧ محرم ٧٩٧هـ/١٢ تشرين الثاني ١٣٩٤م، يتبين لنا أن الذي بنى التربة وأوقفها هو بدر الدين (البدري) بن حسام الدين المذكور، قد توفي هذا سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م ودفن بالتربة، وهذا ينفي احتمال فان برشم الذي ورد في (CIA Jerusalem Vill p.193) بأن تكون ابنة بركة خان – زوجة الظاهر بيبرس – هي التي أنشأت التربة.

وفي تاريخ تدوين الوثيقة كان الناظر على الوقف هو محمد بن نمر العلائي حفيد بدر الدين محمد بك، وتذكر الوثيقة أن هذا (عمّر بالوقف وصرف ....الخ)[٢]، وهنا تأتي الوثيقة لتؤكد ما جاء في النقش الذي ما زال موجوداً على نافذة التربة، ويُذكر في محتواه أعمال الترميم والتجديد التي قام بها محمد بن نمر العلائي سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م، أي قبل تاريخ الوثيقة بخمس سنوات، ومن بين أعمال التجديد كان بناء السبيل الذي ورد باسم (المسقّاة)[٣].

ومن الأسبلة أيضاً سبيل زاوية القرمي، وقد بنى هذه الزاوية الأمير ناصر الدين محمد بن علاء شاه أحد أمراء العشرة بغزة، وقد كان هذا مريداً للشيخ شمس الدين القرمي (٧٢٠-٧٨٨هـ/١٣٢٠-١٣٨٦)[٤]، وبنى بجوار الزاوية سبيلاً ما يزال ماثلاً قرب باب الزاوية التي تقع بحارة الواد[٥]، وهناك أيضاً

---

[١] العسلي: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، ص٧٣.

[٢] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٣٧-٢٣٨.

[٣] العسلي: من آثارنا، ص٢٤٦، وهذا نص النقش (أنشأ هذا الشباك والقبة بقية المرحوم الملك حسام الدين بركة خان والقنطرة وعلوها والبوابة المباركة والمسقاة والحوانيت وعلوهم وخمسة بيوت بدار الوقف الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن نمر العلائي لطف الله به في مستهل القعدة الحرام سنة اثنين وتسعين وسبعمائة).

[٤] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص١٢١.

[٥] العسلي: من آثارنا، ص٢٤٢.

سبيل المدرسة الطشتمرية وسبيل خان السلطان، وسبيل تنكز، وسبيل شعلان والذي يرجع بناؤه إلى أواخر العصر الأيوبي[1].

كانت الأسبلة في عصر المماليك تحتوي على طابقين، الأول عبارة عن بئر محفورة في الأرض لتخزين ماء الأمطار، تعلوها خرزة أي غطاء أو سقف من الرخام أو الحجر، أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض حوالي المتر، وتوجد به المزملة لتوزيع الماء على الراغبين فيه، ويقوم المزملاتي برفع الماء من البئر بواسطة قنوات تجري تحت البلاط المصنوع من الحجر الصلد، وينتهي الماء إلى فتحات معدة لرفع الماء، قطر نافذة كل فتحة منها حوالي ٢٠ سنتيمتراً، وكان الماء يرفع من هذه الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل مثبتة بقضبان النوافذ، أما طريقة تشغيل السبيل فكانت تتم بواسطة بكرة فوق البئر محمولة على خشبة مربوط فيها حبل، وكان بطرف الحبل سطل يرفع به المزملاتي الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاط المزملة، فيجري إلى النوافذ القائمة عند فتحات القنوات، وكان طالب الماء يصعد على سلالم موجودة أسفل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل على حاجته بالكوز[2].

كان يقام عند السبيل عادة حانوت يخصص لوضع الأواني المعدة لتسبيل الماء واستقراره به من الآبار والكيزان وغير ذلك، وكان يجلس في الحانوت (السقّا)[3] الذي يقوم على رفع الماء وتسبيله وخدمة قُصّاد السبيل إجمالاً، وكان يشترط في السقا – الذي كان يعينه ناظر وقف السبيل – أن يكون (حسن الخلق ذا قوة وأمانة وجودة) وتحدد وقفية السلطان فرج بن برقوق بدقة واجبات السقا الذي كان يجلس في حانوت السبيل عند فوهة الصهريج فتقول: أنه كان يتولى (نشل الماء من الصهريج ووضعه في الأواني لسقية الناس، وغسل الأواني

---

(١) العسلي: من آثارنا، ص٢٣٣–٢٤٦.

(٢) عاشور: بعض أضواء، ص ٣١.

(٣) ويدعى أيضاً المزملاتي

المذكورة وتنظيفها وصونها من الدبيب والهوام وخشاش الأرض بالتغطية وتنظيف المكان المذكور وكنسه ومسحه وإزالة أوساخه وملء الآنية والكيزان ووضعها بمواضعها المعمولة لها وإرصادها للشاربين وإعادة ملي ما يتفرغ منها وتسهيل الشرب على الناس، ويعاملهم بالرفق وحسن الخلق ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين)[١].

وكان للسبيل عادةً أوقات دوام محددة في الأيام العادية، وفي شهر رمضان، وتبين وقفية السلطان فرج بن برقوق أن أوقات العمل في السبيل – وهي في الغالب أوقات العمل الشائعة للسبل كلها – (كانت من وقت الضحى إلى الغروب في كل يوم، وفي رمضان من قبل الفطر إلى عشاء الآخرة، ومن قبل الفجر إلى الفجر بحيث يكون صدقة دائمة وحسنة مستمرة طوال النهار..........)[٢].

وحتى يؤدي السبيل خدماته على أكمل وجه، لم يهمل الواقفون أمر الأدوات المستخدمة فيه مثل الليف أو الكتان، والأدلية الجلد، وآنية الشرب، والطسون، والأسطال النحاس، والأباريق، والإسفنج والفوط للمسح ...الخ، وبلغ من اهتمام الواقفين بآلات السبيل أن خصصوا أماكن لحفظها وهو ما عرف باسم الحانوت[٣].

---

[١] نص حجة وقف الملك الناصر فرج بن برقوق ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، الواردة في مقال لأولرشن هارمان:

Haarmann (Ulrich) Momluke Eendowment Deeda As A source For the history of education in Late medieval Egypt (al – abhath vol. XXVIII 1980.p43-47)

[٢] العسلي: من آثارنا، ص ٢٢٠. Ibid .P47

[٣] أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ١٥٣

٣ – البيمارستانات:

البيمارستان، لفظ فارسي الأصل مركب من مقطعين، الأول (بيمار) ويعني المريض أو العليل، والثاني (ستان) ويعني داراً أو مكاناً أو موضعاً[١]، فيعني البيمارستان حينئذ دار المرضى، وفي الاصطلاح هو المكان الذي يعالج فيه المرضى بإشراف أطباء مختصين (أي المستشفى حالياً).

لقد أُنشأت البيمارستانات عند المسلمين منذ العصر الأموي، ويُعد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أول من بنى بيمارستاناً في الإسلام، وذلك عام ٨٨هـ/٧٠٧م[٢]، فهي من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية، وهي من أعظم المنشآت الاجتماعية، وأقام المسلمون المشافي الثابتة والمتحركة التي رافقت الجيوش[٣]، وتعاظم الاهتمام بالمشافي في عصر الحروب الصليبية وما بعده (الأيوبي والمملوكي)، ووصل إلى حد أن السلطان أثناء سفره يصطحب معه إلى حد ما مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأصحاب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك[٤].

ويرجع وجود البيمارستانان في القدس إلى العصر الفاطمي، فقد زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو القدس سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م، وذكر أن بالقدس بيمارستاناً، وصفه بأنه (مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف)[٥]، واستمر

---

[١] الدسوقي (ابراهيم): المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢م، ج١، ص٤٤٦.
ويقال له البيمرستان والمارستان، ويقال له بالتركية خسته خانه، أي محل المرضى، ويُطلق لفظ البيمارستان أيضاً على المحل المُعد لإقامة المجانين. انظر،
- المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧١٦، حاشية٦.

[٢] المقريزي: الخطط ، ج٢، ص٤٠٥.

[٣] زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص ١٠٦.

[٤] عيسى بك (أحمد): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨١م، ص٤-٥.

[٥] خسرو: سفر نامة، ص ٥٦.

هذا البيمارستان يقدم خدماته خلال عصر الاحتلال الصليبي للقدس، وقد استقبل ٧٥٠ جريحاً بعد معركة "تل الصافية" التي وقعت بين الفرنجة وصلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م[١].

وبعد أن حرر صلاح الدين بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م عقب معركة حطين، قام بمجموعة من الأعمال، منها أنه اتخذ الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار، جنوب كنيسة القيامة والناحية المجاورة لها، بيمارستاناً للمرضى، فأشغلت مساحة ١٧٠×١٥٠ ياردة[٢]، فاتخذ فيها بيوتاً فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها، وهيأ العقاقير والأدوية وأوقف عليها الأوقاف العديدة، وجعل النظر في هذه الأوقاف للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد وسمّاه البيمارستان الصلاحي[٣].

ومن أجل أن يستمر البيمارستان في أداء رسالته خصصت له الأوقاف المتنوعة، فقد أوقف صلاح الدين (كما جاء في وثيقة الوقفية) ١٠١ عقاراً هي: 39 بيتاً، وفرنان، وثلاثة أقبية، و٣٥ دكاناً، و١٦ مخزناً، ومعصرة، وصهريجاً، ومزرعة، وأرضاً زراعية،وحكر خان الزيت، وحكر قبان زيت[٤]، وعملت الإيرادات المستوفاة من هذه الأوقاف على تغطية نفقات البيمارستان الصلاحي.

---

(١) غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١٣٣، نقلاً عن. Home (edger): Medical Work Of The Knights Hospitallers Of The Jerusalem, 1940, P.P13-14.

(٢) اليارد واليرد: وحدة قياس طول أنكلو سكسونية، وتساوي ٠,٩١٤ من المتر. انظر، رمضان (حميد السيد): الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب والمسلمين، دار الملاح، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ص١١٧.

(٣) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٦١٢.

– غوانمة: المرجع المتقدم، ص١٣٤.

(٤) عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص٩٩.

_ أبشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص٤٥-٤٦.

واستمر هذا البيمارستان يعمل خلال عصر المماليك واستمرت الأوقاف تكتب له، وقد أوردت وثائق الحرم العديد من نصوص هذه الوقفيات (الآن سيقتصر الحديث على عمل البيمارستان وأهميته في الحياة الاجتماعية أما موضوع الأوقاف التي رُصدت عليه فسنتناولها بالتفصيل في الفقرة القادمة).

وأما عن مآل هذا البيمارستان فقد جاء في تاريخ البيمارستانات لأحمد عيسى (وقد كتب إلي الأستاذ العالم عادل جبر بك مدير المتحف الإسلامي ودار الكتب بالقدس الشريف عن هذا البيمارستان فقال: إن بالقدس حارة تسمى الدباغة، والمشهور المتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحي كان في هذه الجهة ثم أدركه الخراب كما أدرك غيره من الآثار، ثم حدثت زلزلة في سنة٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م فجعلته أثراً بعد عين، فعفيت آثاره واختلست أرضه، وتصرف فيه الحكام وغيرهم من الناس بالبيع والهبة، فوهب السلطان العثماني عبد الحميد قسماً من خراباته إلى الدولة الألمانية لمناسبة زيارة ولي عهدها إلى القدس الشريف سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م، فبنى فيه الألمان كنيسة افتتحها الإمبراطور غليوم الثاني سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، وقال إنهم عثروا في خراباته على حجارة مكتوبة ناطقة باسم صلاح الدين وخلفائه من بعده)[١].

ولكن هناك وثائق تُضعف القول بأن البناء تهدم عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م، فقد عُثر في سجلات المحاكم الشرعية على عدد من الوثائق تشير إلى أن هناك مؤسسة اسمها البيمارستان الصلاحي كانت تعمل في العصر العثماني[٢]، فيمكن أن يكون قد تهدم جزء كبير من البناء، حيث لم يبق منه إلا جزء بسيط وهو البارز اليوم[٣].

---

(١) عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص ٢٣٠-٢٣٣

(٢) فقد ورد في السجل ٥٣ ص٥٧٧ لعام ٩٧٨هـ مرسوم بترميم البيمارستان الصلاحي، وقد ورد في السجل ٢٦٩ ص١٤٧ لعام ١٢٠٣هـ مرسوم بتعيين جراح في البيمارستان الصلاحي. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٣، ص٨٧، ٨٩.

(٣) نجم: كنوز القدس، ص٩٤.

وتقدم الوثائق صورة واضحة عن مدى أهمية البيمارستان في الحياة الاجتماعية، وذلك من خلال الخدمات التي كان يقدمها لمختلف فئات الشعب، فاستُخدم البيمارستان في عصر المماليك (لمداواة مرضى المسلمين، الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين، ... على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض الأجسام قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حِفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب، والاشتغال فيه بعلم الطب، يدخلونه جموعاً ووحداناً، وشيوخاً وشباناً، وبلغاً وصبياناً، وحرماً وولداناً، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين بروئهم وشفائهم، ويصرف ما هو مُعد فيه للمداواة، ويُفرق للبعيد والقريب، والأهلِ والغريب، والقوي والضعيف، والدنيء والشريف، والعلي والحقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والمفاضل، والمشهور والحامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض)[1].

أي أن البيمارستان كان عبارة عن مستشفى عام لجميع الأمراض، وكان مقسماً إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وكان كل قسم مقسم إلى

---

[1] ورد هذا في الكتاب الأول من الوثيقة رقم ١٥، محفظة رقم ٢، المحفوظة بدار الوثائق بالقاهرة، هذا الكتاب المؤرخ في ١٢ صفر سنة ٦٨٥هـ (الموافق لـ٩ نيسان ١٢٨٦م)، يتضمن وقف السلطان المنصور قلاوون لبعض الأملاك على مصالح البيمارستان المنصوري، ويتضمن أيضاً شروط السلطان التي وضعها للعمل في هذا البيمارستان، وقد حقق هذه الوثيقة الدكتور محمد محمد أمين ونشرها في ملاحق الجزء الأول من كتاب تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، للمؤلف ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، جمهورية مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م، ج١، ص٣٥٨-٣٥٩، السطور ٢١٥-٢٢٦.

قاعات: قاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة (أمراض العيون)، وقاعة للتجبير، وكانت قاعة الأمراض الباطنية هي الأخرى مقسمة إلى أقسام صغيرة تبعاً لاختلاف الأمراض فمنها قسم للمحمومين (أي المصابين بالحمى)، وقسم للممرورين (وهم مرضى الجنون السبعي)، وقسم للمبرودين (أي المتخومين)، وقسم لمن به إسهال، ... وهكذا[1]، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان رئيس، فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين، ورئيس للكحالين،... الخ[2].

أما بالنسبة لنظام المعالجة، فقد كان هناك طريقتان، الأولى تشبه نظام العيادة الخارجية، فلم تقتصر الرعاية الصحية على المترددين على البيمارستان فقط، بل شملت المرضى في بيوتهم، فمن (كان مريضاً في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به)[3]، حيث كان الطبيب يجلس على دكة، ويكتب لمن يرد عليه من المرضى العلاج على أوراق، وبموجبها تمنحهم صيدلية البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها الطبيب، وكان المريض يتناول الدواء في منزله[4].

أما الطريقة الثانية فهي معالجة المرضى داخل البيمارستانات إذ يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان أطباء مختصون يتفاوت عددهم بحسب سعة القسم وعدد المرضى[5].

---

(1) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم بن يونس السعدي، ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة، ١٨٨٢م، ج١، ص٢٥٤، ٣١٠. ج٢، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(2) ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٥.

(3) انظر نص وثيقة وقف السلطان منصور قلاوون على البيمارستان المنصوري، تذكرة نبيه، ج١، ص٣٦٧، السطور ٢٩١-٢٩٣.

(4) عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص٣١.

(5) ابن أبي أصيبعة: المصدر المتقدم، ج٢، ص١٧٩.

أما بالنسبة لعمل الأطباء فقد كان موزع، فمنهم من يلازم البيمارستان ليلاً

نهاراً، ومنهم من يلازم البيمارستان يوماً واحداً في الأسبوع أو أكثر[١]، وكانوا يباشرون عملهم (مجتمعين أو متناوبين، باتفاق على التناوب أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم – أي أحوال المرضى –، وما يتجدد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شرائب وغذاء وغيره، في دستور ورق ليُصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان، مجتمعين أو متناوبين)[٢].

وعندما يدخل مريض إلى البيمارستان يقيد اسمه في القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى ويعالج مجاناً، وله سرير خاص به وأكواز، وأقداح لشربه، وبعد شفائه وهو في دور النقاهة يذهب إلى قاعة النقاهين[٣]، وعندما يتم تخريج المريض يقدم له مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل مباشرة فيؤثر ذلك على صحته[٤]، كما كان ينعم عليه بكسوة[٥].

والباحث في وثائق الحرم يعلم ما كان عليه الطب من تقدم في تلك العصور، فمن بين وثائق الحرم عثر على وصفة طبية لمن به سعال أو لمن لحقه إسهال، فما جاء فيها ما زال يستخدم حتى اليوم لمن أصابه مثل هذا المرض، وهذا

---

[١] عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص٣١-٣٢.

[٢] انظر نص وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري، تذكرة النبيه، ج١، ص٣٦٦، السطور ٢٧٨-٢٨٠.

[٣] السعيد (عبد الله عبد الرازق): المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، دار الضياء، عمان ١٩٨٧م، ص١٣٩.

– عاشور (سعيد عبد الفتاح) وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٢٨٧-٢٨٨.

[٤] حداد (سامي): المارستانات العربية، مجلة المقتطف، المجلد التاسع، الجزء الأول، ١٩٣٧م، ص١٠.

– عيسى: المرجع المتقدم، ص ٨٦.

[٥] وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون، تذكر النبيه، ج١، ص٣٦٧، السطر ٢٩٨.

نصها: (ينبغي لمن به سعال أن يأكل محاح البيض مع الثوم والسمن أو يأكل التين بالزيت فإنه ينقي الصدر وينضج الرطوبات ويجلو البلغم ويسخر الكلا، ولمن اعتراه إسهال تغوط يأخذ جزو من برد الحماض[١] ومن الصمغ العربي[٢] جزو ومن مسك جزو ومن الطباشير جزو وإن لم يكن يوجد طباشير فبدله طين أرمني محمص ويسقى منه مثقال ما طبخ فيه كمون أول أو ما نافع لهذا الإسهال)[٣].

والمرضى الذين يموتون في البيمارستانات كانوا يجهزون ويدفنون على حساب البيمارستان[٤]، (فكان على الناظر أن يصرف ما تدعوا الحاجة إليه فيمن يموت بالبيمارستان، من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف له ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه، وحنوطه[٥]، وأجرة غاسله، وحافر قبره، ومواراته في قبره على السنة النبوية، وحتى لو مات في بيته)[٦]، ولقد أوقفت لهذه الغاية عدة أوقافاً، فقد جاء في الوثيقة ٣٦ من وثائق الحرم أنّ حسام الدين بركة خان قد أوقف مسجد وتربة وقرية على مداواة المرضى وتجهيز الموتى بالقدس[٧].

---

[١] الحُمَّاض: نبات جبلي، يأكله الناس، وهو من عشب الربيع زهره أحمر وورقه أخضر وهو بقولي، انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص١٣٩- ١٤٠ (مادة حمض).

[٢] الصمغ العربي: هو صمغ الطلح، والطلح شجر عظيم له شوك أحجن ينبت في بطون الأودية. انظر، ابن منظور: المصدر نفسه، ج٢، ص٥٣٢. ج٨، ص٤٤١ (مادة طلح ومادة صمغ).

[٣] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٧٩.

[٤] الخطيب: الطب عند العرب، ص ٢٣٧.

- عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص ٨٦.

[٥] الحنوط: ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم.انظر، ابن منظور: المصدر المتقدم، ج٧، ص٢٧٨ (مادة حنط).

[٦] وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون، تذكرة النبيه، ج١، ص٣٦٧، السطور ٢٨٩-٢٩٢.

[٧] العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٣٧.

وللبيمارستانات أهمية في النهوض بعلم الطب، ذلك أن خدمات البيمارستان لم تقتصر على معالجة المرضى، بل أدت دوراً تعليمياً، فقد كانت أشبه بكليات الطب الحديثة، فقد نصت الوثائق الخاصة بالبيمارستانات على تعيين أشخاص للاشتغال بعلم الطب، يكون من أطباء البيمارستان، ويخصص له مكان لإلقاء المحاضرات ودروس الطب على طلبته[1].

وفي الغالب كان يلحق بالبيمارستان ملاحق متعددة الأغراض منها المخزن الذي كان يخصص لخزن الآنية والأثاث وما يحتاجه المرضى في تدبير أمورهم، وكذلك الحمام وهو قسمان واحد للرجال والآخر للنساء، والمطبخ الذي يعد فيه طعام المرضى، ويكون تحت إشراف الأطباء، وكذلك البستان والمكتبة وهي في العادة متخصصة في الطب لمساعدة الأطباء في أداء عملهم[2].

وقد وجد في البيمارستانات قسم للصيدلة يتعلم فيه الطلاب كيفية تحضير العقاقير وطحنها، وعمل المعاجين والمراهم وغيرها[3]، ونصت الوثائق على أن يرتب فيها (أي في الصيدلة) رجلين يشترط فيهما الأمانة والديانة، يتولى أحدهما حفظ الأدوية والعقاقير، ويكون مسؤولاً عن صرف الأدوية حسب أوامر الأطباء، فيسلمها للرجل الثاني لتوزيعها على المرضى، وعليه أن يتأكد

---

[1] وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون، السطور ٢٨٤-٢٨٦.

- النويري (أحمد بن عبد الوهاب،ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: السيد الباز العريني، مراجعة عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٣١، ص١٠٨.

[2] الديوه جي (سعيد): الموجز في الطب الإسلامي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م ص٦٥-٦٧.

[3] العسلي: معاهد العلم، ص ٢٩٥.

- غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٣٢.

أن كل مريض تناول الدواء الموصوف له، أيضاً يجب عليه الإشراف على المطبخ وتوصيل الطعام إلى المرضى كلٌ حسب ما وُصف له[1].

وكان في كل بيمارستان مجموعة من الوظائف، هي حسب الترتيب الهرمي:

أ. **ناظر البيمارستان:**

وظيفته إدارة البيمارستان والإشراف عليه، وتقديم ميزانية الواردات والمصروفات للسلطان أو المسؤول الذي يبت فيما يرى في صالح البيمارستانات وراحة المرضى، ومن واجباته تقدير أرزاق الأطباء والمستخدمين ورواتبهم والنظر في حاجات البيمارستان من أدوية ومعدات وأطباء وموظفين مثل الكُتاب، والخزنة، والمشرفين على الأعمال، والطباخين، والخدم، والفراشين... الخ، ومن مهامه أن يراقب إصلاح وترميم أبنية ومنشآت البيمارستان[2]، وما تحتاجه من أثاث كأسِرّة، وملاحق، ومخدات، وزيت وقود، وأدوية، وأطعمة، ومعدات، ولوازم تكفين من يموت في البيمارستان طبقاً للشريعة الإسلامية، ومن مهامه الصرف على صانعي الأدوية والفراشين رجالاً ونساءً والقومة والخزان في المخازن، والمباشرين، وعلى من يقوم بإطعام المرضى، وينصب من الأطباء على مختلف اختصاصاتهم بحسب ما تقتضيه حاجة المرضى، وهو مخير في تقدير الرواتب لهم، ويشترط أن يكون الناظر

---

(1) نص وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون، تذكرة النبيه، ج١، ص٢٦٤-٢٦٥، السطور ٢٦٨-٢٧٣.

(2) إن الصفة المشتركة في وثائق الوقف في عصر المماليك أنها تنص على البدء بالصرف من ريع الأوقاف على عمارة الأعيان الموقوفة، وذلك لتلافي العيوب الاقتصادية للأوقاف، فأوقاف الأيوبيين تطرق الفساد إليها بسبب تحكير الأوقاف وعدم عمارتها. انظر،

- أمين (محمد محمد): تاريخ الأوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٦٣.

مسلماً (فلا يولى الناظر يهودياً أو نصرانياً)، ظاهر الأمانة، عارفاً بأنواع الكتابة، كافياً فيما يتولاه، موثوقاً بدينه ودرايته وخبرته[1].

ونظراً لأهمية منصب نظارة البيمارستان كان يتولاها أحد الأمراء أو أحد الأشراف، ويتصف هؤلاء بالقدرة والكفاءة العالية[2].

ب. رئيس الأطباء (الساعور):

وهو الذي يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطبيب وغير ذلك[3]، وطبعاً يجب عليه أن يكون حاذقاً في الطب، ماهراً فيه، متقدماً على غيره في هذا، والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضرر، والمعرفة بالأمراض والعلل وطرق العلاج وما يجري مجرى ذلك [4]، وكان هناك مساعدين له مثل رئيس الكحالين وهو الذي يحكم على طائفة الكحالين ويأذن لهم بالتحكيل[5]، ورئيس الجراحين الذي يحكم على طائفة الجراحين ويأذن لهم بالجراحة وبالتجبير[6].

ج. أطباء البيمارستانات:

على حسب ما جاء في الوثائق كان الأطباء على عدة فئات، منها: (الطبائعيون) وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية، و(جرائحيون) وهم

---

[1] وردت هذه الصفات أو المهام في وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون، تذكرة النبيه، ج١، ص٣٦١ وما بعدها، السطر ٢٣٨ وما تلاه إلى الآخر الوثيقة.

- الخطيب: الطب عند العرب، ص٢٢٠.

- السعيد: المستشفيات الإسلامية، ص١٦١.

[2] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٩-٤٠.

[3] القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٠٠-٢٢٨، ج٥، ص٤٣٨-٤٣٩.

- وقد ورد في الصفحة ١٩ من السجل ٤٥ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس لعام ٩٧١هـ إجازة ممارسة مهنة الطب من رئيس طائفة الأطباء. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٣، ص٥١.

[4] القلقشندي: المصدر المتقدم، ج١١، ص٣٧١ -٣٧٢.

[5] القلقشندي: المصدر المتقدم، ج٥، ص٤٣٨، ٤٣٩.

[6] القلقشندي: المصدر المتقدم، ج٥، ص٤٣٨، ٤٣٩.

الذين يقومون بالعمليات الجراحية، و(الكحالون) وهم المختصون بمعالجة أمراض العين، و(المجبرين) أي أطباء جبر العظام[١].

د. رئيس الصيادلة:

لقد كان يلحق بالمشفى صيدلية تسمى شرابخاناه[٢]، وكان لكل صيدلية رئيس متسلم لحواصلها، وله مكانة عالية ولديه غلمان برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار[٣].

كان يتم فيها تحضير الأدوية والمعاجين والمراهم...[٤]، ويكون ذلك تحت إشراف طبيب عام بالعقاقير، فهو يقدر ما وصفه الطبيب المعالج من كل نوع ويعهد به إلى الذين يعملون تحت إشرافه، وما يحتاج منها إلى طبخ فيعد في مطبخ ملحق بالصيدلية[٥].

ه. الإستادار:

هو المسؤول عن إعداد الطعام والشراب داخل البيمارستان، وعليه التقيد بتعليمات الطبيب لمعرفة قوانين طبخ الطعام للمرضى ومعرفة كيفية صرفه وتناوله من قبل المريض، ومالا يصرف إلا بأمر الطبيب، وما لا يسلم إليه إلى المحتاج إليه[٦].

---

[١] وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون، تذكرة النبيه، ج١، ص٣٦٥، السطر ٢٧٦.

- النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٠٧.

[٢] أي مخزن الشراب، ويشرف عليها (مهثار) يعرف بمهتار الشراب. انظر،

- القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٤٦، ج٤، ص٩.

[٣] الشراب دار هم الغلمان الذين يعملون تحت إمرة المهتار، وهم المسؤولون عن الشراب خانة. انظر،

- القلقشندي: المصدر المتقدم، ج٤، ص٩.

[٤] النويري: المصدر المتقدم، ج٣١، ص١٠٧-١٠٨.

[٥] الديوه جي: الموجز في الطب، ص٦٥.

[٦] القلقشدي: المصدر المتقدم، ج١١، ص١٦٧-١٦٨.

و. قارئ البيمارستان:

نجد هذه الوظيفة قد ذكرت في الوثيقة رقم ٦٧ من سجل ١٩٦ ص ١٧٧ سنة ١١٠٠هـ وفيها يتم تعيين الشيخ علي والشيخ عبد الرحيم أبناء عمر العلمي في وظيفة قارئ للقرآن بالبيمارستان الصلاحي بالقدس[١]، وهذا العمل نوع من أنواع العلاج النفسي.

ز. الحسبة على البيمارستان:

كان على المحتسب مراقبة البيمارستانات والأطباء، وكان ذلك من أهم واجباته، وله الحق في امتحان الأطباء[٢].

دور البيمارستانات في الحياة الاجتماعية:

تمثلت الخدمات الاجتماعية التي قدمتها البيمارستانات في عدة نواحٍ، أهمها مجانية العلاج خصوصاً للفقراء والضعفاء، إلى جانب ذلك كانت البيمارستانات بمثابة مأوى للأيتام وللنساء العاجزات وذوي العاهات والمجانين، ومارست البيمارستانات دوراً مهماً أثناء انتشار الأوبئة وحصول الكوارث، فقد كانت تزدحم بالمرضى والمصابين في مثل هذه الأوقات[٣]، وكانت تقدم مبلغاً من المال إضافة إلى كسوة لكل مريض بعد شفاءه وخروجه من المشفى، وذلك كي لا يضطر للعمل بعد خروجه مباشرة، مما قد يؤثر على وضعه الصحي[٤].

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج٣، ص٩٠.

[٢] خصص ابن بسام المحتسب الأجزاء من الثالث والأربعون وحتى السادس والأربعون على الحسبة على الأطباء والكحالين والجرائحيين والمجبرين. انظر، ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تح: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص١٠٨-١٢٣.

- خصص ابن الأخوة الفصل الخامس والأربعين من معالم القربة في أحكام الحسبة في الحسبة على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين، ص٢٥٣-٢٥٩.

[٣] ابن قاضي شهبة (تقي الدين الأسدي ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م): تاريخ ابن قاضي شهبة، عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧م، ج٣، ص ٨١.

[٤] حداد: البيمارستانات، ص ٤١.

وكانت البيمارستانات أيضاً تقوم بتجهيز الموتى ودفنهم، - كما ذُكر سابقاً-، ناهيك عن أن البيمارستانات كانت أشبه ما تكون بكليات الطب الحديثة فقد ساهمت في انتشار العلوم الطبية[1].

---

[1] عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص ٤ -٣، ٣٢ - ٤٣.

ثانياً: الأوقاف:

تقدم الذكر في مطلع هذا الفصل أن مدينة القدس الشريف تركز نشاطها الاجتماعي ليس فقط في النشاط الفردي؛ وإنما في العديد من المؤسسات والمنشآت التي ذخرت بها المدينة، فكان بعضها ذا صبغة تجارية أو دينية أو ثقافية مع صبغة اجتماعية، ولكن بعضها كان ذا صبغة اجتماعية بحتة.

واستطاعت المؤسسات الاجتماعية البقاء والاستمرار طويلاً دون أن تتوقف عن أداء رسالتها عقب وفاة مؤسسيها، هذا على عكس ما يمكن ملاحظته خارج ظل الحضارة الإسلامية وفي العديد من بلاد العالم، حيث تتوقف المؤسسات الخيرية عن أداء رسالتها بعد مدة من الزمن بسبب وفاة مؤسسيها ونضب مواردها وعدم توفر الإمكانات المادية التي تمكنها من الاستمرار في أداء عملها، مما يضطرهم إلى طلب مساعدة الخيّرين بين حين وآخر، حتى تتوقف تماماً عن العمل، هذا ما لا نراه في الحضارة الإسلامية، ذلك أن مؤسس المنشأة – حاكماً أو ثرياً من الخيِّرين – كان يوقف على منشآته غالباً وقفاً يدر عليها موارد ثابتة يضمن لها البقاء ويكفل لها الاستمرار في أداء رسالتها، دون حاجة إلى طلب المعونة بين حين وآخر، أو دون التهديد بالإفلاس والتوقف.

ولم تقتصر هذه الأوقاف على الأراضي الزراعية، وإنما شملت الدور والقصور والأسواق والحوانيت والحمامات والأفران والمصانع والمعامل.... وغيرها مما يمكن أن يدر مورداً أو دخلاً منتظماً تستعين به المؤسسة[(١)].

والوقف في اللغة يعني الحبس والمنع، وهو مصدر الفعل وقف يقف، فيقال وقف الأرض على المساكين، وقفاً: أي حبسها[(٢)]، والحبس يعني المنع، والحبيس من الخيل: الموقوف في سبيل الله، وتحبيس الشيء؛ أن يُبقي أصله،

---

(١) عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، ص ١٠٩.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص٣٥٩ (مادة وقف).

ويجعل ثمره في سبيل الله[1]، والتحبيس يدل هنا على التأبيد، والتأبيد يعني التخليد[2]، ومن هنا وقف فلان وقفه أرضاً مؤبداً إذ جعلها حبيسة لا تُباع ولا تورث.

أما الوقف في الاصطلاح، فقد اختلف الفقهاء في تعريفه تبعاً لاختلاف مذاهبهم من عدة نواحٍ، إلا أنها تتفق في المضمون، والاختلاف عائد إلى زيادة شرط أو قيد في تعريف دون آخر، وأهم هذه التعاريف:

تعريف الحنفية: (حبس العين على ملك الواقف والتصرف بالمنفعة)[3].

في حين عرفه المالكية بأنه: (إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازماً بقاؤه في ملك مُعطيه ولو تقديراً)[4].

أما الشافعية فقد عرفوه بأنه: (حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته، وتصرف منافعه إلى أبد تقرباً إلى الله تعالى)[5].

وبالنسبة للحنابلة فقد عرفوه على أنه (تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة)[6].

وعلى الرغم من تعدد التعاريف، إلا أنها تؤكد على أن قوام الوقف هو منع التصرف في رقبة العين التي يدوم الانتفاع بها، فلا يجوز بعد وقفها وجعلها في حكم ملك الله عز وجل أن تباع، أو ترهن، أو توهب، أما منفعتها فتصرف على

---

(1) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج١، ص٧٣٨ (مادة حبس).

(2) ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٣٩٠ (مادة أبد).

- الفيروز أبادي: المصدر المتقدم، ج١، ص٦٨ (مادة أبد).

(3) ابن عابدين (محمد أمين بن عمر، ت ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦م) حاشية رد المختار، مطبعة الحلبي، سورية، ط٢، ١٩٦٦م، ج٤، ٣٣٧.

(4) الحطاب (محمد بن عبد الرحمن المغربي، ت ٩٥٤هـ/١٥٤٧م) مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل، وبهامشه التاج والإكليل لمختصر الجليل، (لأبي عبد الله محمد العبدري)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، م ج٦، ص١٨.

(5) الشربيني (محمد الخطيب، ت ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م): المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، مطبعة الاستقامة، بيروت، ١٩٥٥م، ج٢، ص ٣٧٦.

(6) ابن قدامة (موفق الدين عبد الله بن أحمد، ت ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٧م) المغني، تح: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة، مصر، ١٤٠٦ هـ، ج ٥، ص ١٨٥.

وجه أو أكثر من وجوه الخيرات والمنافع العامة طبقاً للشروط التي يحددها الواقف نفسه، وبالجملة إنّ الوقف هو تلك الأراضي والمنشآت التي يخصصها المسلمون ليصرف من ريعها، أو ريعها كاملاً، على قضايا إنسانية للمجاهدين والفقراء أو اليتامى أو لبناء المساجد والحصون والمدارس والبيمارستانات .... أو لغيرها من المنافع العامة[١].

أما عن مشروعية الوقف وحكمه، فقد اتفقت آراء العلماء على أن الوقف جائز ومشروعيته ثابتة بالقرآن والسنة وعمل الصحابة والإجماع.

أ – القرآن:

لم يرد في القرآن نص صريح ينص على الوقف، ولكن هناك آيات عديدة تحث على فعل الخير والبر، فقد رأى أئمة الدين في قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٢]، ما شجعهم على القول بمشروعية الوقف، فيروى أنه لما سمع أبو طلحة[٣]بهذه الآية، وقف بستانه في المدينة المسمى (بيرحاء)[٤] الذي كان أحب أمواله إليه على وجه

---

[١] غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٠٧.

[٢] الآية ٩٢ من سورة آل عمران.

[٣] أبو طلحة: زيد بن سهل بن الأسود البخاري الأنصاري، صحابي من الشجعان الرُماة المعدودين في الجاهلية والإسلام، شهد العقبة وبدراً وأحد، توفي بالمدينة سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، وقيل: ركب البحر غازياً فمات فيه. انظر، الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م): سير أعلام النبلاء، تح: محمد تميم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، إشراف: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ج٣، ص١٨٩-١٩٤.
– الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٥٨-٥٩.

[٤] بيرحاء: قيل: هي أرض لأبي طلحة، وقيل: موضع بقرب مسجد المدينة يعرف بقصر بني جديلة، وكان مالاً لأبي طلحة بن سهل، تصدق به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم. انظر، الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٦٢٢.

البر ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل بعد ان استشار النبي(ص) في ذلك، فقال له رسول الله (ص): (ذلك مال رابح) وأمره النبي (ص) أن يجعله في أقاربه[1].

ب – السنة النبوية:

جاء عند الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[2]، وقال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (فيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه)[3]، وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب أرضاً بخيبر، فأتى النبي (ص) يستأمره فيها، فقال له النبي (ص): (إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها) قال فتصدق بها عمر على ألا تُباع ولا توهب ولا تورث، قال: فتصدق بها عمر في الفقراء، وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل والضعيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقاً غير متمول فيه[4].

ويرى الإمام النووي في هذا الحديث دليل على صحة أصل الوقف وأنه مخالف لشوائب الجاهلية[5].

---

[1] البخاري: الجامع الصحيح، ص ٤٩٣.

[2] الترمذي: الجامع الصحيح، ج٣، ٤٢٦.

[3] النووي (يحيى بن شرف النووي، ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م): صحيح مسلم بشرح الإمام النووي المسمى المنهاج شرح الجامع الصحيح، تح: مصطفى البنا، دار العلوم الإنسانية، دمشق، حلبوني، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٣، ١٦٨٨.

[4] الترمذي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٤٢٦.

– البخاري: المصدر المتقدم، ص٤٥٩-٤٦٠.

[5] النووي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ١٦٨٩.

ج – عمل الصحابة:

يقول جابر رضي الله عنه[1]:(ما أعلم أحداً كان له من مال من المهاجرين والأنصار، إلا حبس مالاً من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى أبداً، ولا توهب ولا تورث)[2].

د – الإجماع:

يقول الترمذي معلقاً على حديث ابن عمر السالف في وقف عمر بن الخطاب للأرض التي أصابها بخيبر (والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم، لا نعلم بين المتقدمين منهم في ذلك اختلافاً في إجازة وقف الأرضين وغير ذلك)[3].

وللوقف نوعان:

أ. **الوقف الذري (الأهلي):** وهو الوقف الذي يختص بالأهل والذرية، أي أن يوقف الشخص أملاكه على ذريته وأهله[4].

ب. **الوقف الخيري:** وهو الوقف الذي يجعله صاحبه على جهات الخير والبر المتنوعة[5] من بناء المساجد والمدارس والخوانق ومساعدة الفقراء والأرامل، واليتامى.....

---

(1) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي، صحابي من المكثرين في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، غزا تسع عشرة غزوة، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يُؤخذ عنه العلم، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٤٥٠ حديثاً. انظر، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص١٨٩-١٩٤.

- الزركلي: الأعلام، ج٢، ص١٠٤.

(2) ابن قدامة: المغني، ج٨، ص ١٨٥.

(3) الترمذي: سنن الترمذي، ج٣، ص ٤٢٦.

(4) ابراهيم (عبد الغفار): أحكام الميراث والوصية والوقف في الفقه الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ص٢٢٦.

(5) ابراهيم: المرجع نفسه، ص ٢٢٧.

والمعروف أن الأوقاف بمعناها الدقيق شرعت في الإسلام ليكون ريعها (صدقة جارية) ومن هذا المنطلق فإنها نهضت برسالة ضخمة في رعاية المؤسسات الاجتماعية والخيرية، الأمر الذي أدى إلى عدم وجود سياسة محددة ثابتة للدولة في العصور الوسطى فيما يتعلق بالمسائل والأمور المرتبطة بالرعاية الاجتماعية – أو ما نطلق عليه اليوم اسم الضمان الاجتماعي – وإنما تركت هذه الأمور كلها لأحكام الشريعة الإسلامية، وما نصت عليه من فرض الزكاة على القادرين من جهة، والراغبين في فعل الخير، وعمل الحسنات وتقديم الصدقات من جهة أخرى، ومن هنا برزت أهمية الوقف في توفير الرعاية الاجتماعية للطبقات الفقيرة والضعيفة[١].

لقد ازدهرت الأوقاف بشكل ملفت للنظر في عصر المماليك، إذ رافق قيام هذه الدولة تطورات عديدة، وانعكست آثارها على نظام الوقف، إذ أخذ شكلاً غير الذي كان عليه من قبل لنجد إلى حد ما أنّ كل شخص يملك أرضاً أو عقاراً أو مالاً كان يتطلع لوقفه لسبب أو لآخر، إما وقفاً ذرياً أو وقفاً خيرياً، إذ أن الظروف أو طبيعة ذلك العصر تحتم عليه هذا الاتجاه[٢].

ووجد في عصر المماليك تنظيماً جديداً للأوقاف وضعه السلطان الظاهر بيبرس، اختلف بمقتضاه لأول مرة مدلول لفظ الأحباس عن مدلول لفظ الأوقاف في مصطلح الدواوين[٣]، وبناءً عليه فقد نظمت الأوقاف وتوزعت على ثلاثة أنواع:

أ. **النوع الأول:** يُعرف بالأحباس، وفيها اقتصر النظر في هذا الديوان على الرزق، وهي عبارة عن أراضي زراعية يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس[٤]،

---

[١] عاشور: الحياة الاجتماعية، ص ١٠٩.

[٢] أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٧٠.

[٣] أمين: المرجع نفسه، ص١.

[٤] أمين: المرجع نفسه، ص١٠٨-١٠٩.

وقد وقفت هذه الأحباس على المنشآت الدينية كالمساجد والمدارس والربط، وأشرف على أحباسها ناظر الأحباس[١]، وعادةً كان يفوض النظر عليه إلى داودار السلطان[٢].

ب. **النوع الثاني:** عُرف بالأوقاف الحكمية أو الخيرية العامة: وهي مخصصة للإنفاق على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وكذلك الحرمين الشريفين في القدس والخليل، وعلى جهات البر والصدقات، وفداء الأسرى. وكانت هذه الأوقاف يترأسها قاضي القضاة الشافعي[٣].

ج. **النوع الثالث:** عُرف باسم الأوقاف الأهلية (الذرية): وهو الذي يوقف في أول الأمر على نفس الواقف ثمّ على أولاده، ثم على أحفاده، فأقاربه، ثم على جهات بر لا تنقطع كالفقراء والمساكين[٤]، ولهذه الأوقاف ناظر خاص، في الغالب يكون هو الواقف نفسه في أيام حياته ومن بعده الأرشد فالأرشد من أولاده، أو لمن يوصي له بذلك[٥].

لقد كثرت الأوقاف في عصر المماليك بشكل جذب انتباه المؤرخ ابن خلدون، فحاول هذا أن يعطي تفسيراً يعلل انتشار هذه الظاهرة بقوله: (إن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له من الرق، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء

---

[١] ناظر الأحباس: الناظر في أرزاق الجوامع والمساجد والأربطة والزوايا والمدارس من الأراضي المفردة لذلك. انظر، دهمان: معجم الألفاظ، ص١٥٢.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٩.
- المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٩٥.
- أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص١١١.

[٣] المقريزي: المصدر المتقدم، ج٢، ص٢٩٥-٢٩٦.
- أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص١١٣.

[٤] الزحيلي (وهبة): الوصايا والوقف، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٨م، ص١٦٠-١٦١.

[٥] المقريزي: المصدر المتقدم، ج٢، ص٢٩٥-٢٩٦.
- أمين: المرجع المتقدم، ص١١٦.

المدارس، والزوايا، والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاً لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طلب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها)[1].

وهناك مجموعة من العوامل والأسباب التي أدت إلى انتشار الوقف بشكل كبير في عصر المماليك:

١. الأسباب الدينية:

إذ شهد عصر المماليك نشاطاً دينياً يسترعي الانتباه، فقد أصبحت السلطنة المملوكية معقل اللاجئين المسلمين من شرق وغرب العالم الإسلامي، بعد أن حملت لواء الحضارة الإسلامية آنذاك، وأصبحت مكاناً مرموقاً في العالم الإسلامي بوصفهم حماة الإسلام الذين تصدوا للمغول والصليبيين، ولصبغ حكمهم بصبغة دينية، أظهروا اهتماماً بالأماكن المقدسة سواءً في الحجاز أو في القدس، وذلك بعد أن ازدهرت الحركة الصوفية، فانقطع العديد من المتصوفة للعبادة على الأرض التي باركها الله حول المسجد الأقصى[2].

٢. الأسباب السياسية:

ولتعزيز العلاقة بين الحاكم والمحكوم – إذ كانوا بصورة ذلك العصر مغتصبين للحكم وغير شرعيين –[3]، استخدموا نظام الوقف لتدعيم حكمهم، والتودد للسكان، وذلك لأن نظام الوقف يؤمن العديد من الخدمات العامة للمجتمع، كما يؤمن لهم الرخاء.

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٤٩.

[2] عاشور: بعض أضواء، ج ١، ص ١٠٢.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢.

- قاسم: دراسات في تاريخ مصر، ص ١١.

٣. الأسباب الاقتصادية:

وتتمثل في الازدهار الاقتصادي الذي شهدته البلاد أيام حكمهم، كما وضحنا ذلك في الفصل الأول.

لقد كان للأوقاف أثراً واضحاً على معظم نواحي الحياة، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، وما يهمنا هو أثر الوقف على الحياة الاجتماعية، فقد أسهمت الموارد الآتية من الأوقاف بنصيب كبير في الحياة اليومية للسكان، فانطلاقاً من رسالة الإسلام في الحض على التكافل الاجتماعي، أسهمت الأوقاف بتقديم خدمات اجتماعية مختلفة سواء على صعيد مساعدة الفقراء، والأرامل، والمساكين مباشرة أو من خلال ما قدمته الأوقاف المرصودة على المؤسسات الاجتماعية كالبيمارستانات والحمامات والأسبلة وغيرها[١]، وقد أبرزت الوثائق والحجج الشرعية في طياتها اهتماماً بارزاً بالفقراء والمساكين والأرامل في الصرف والتوسعة عليهم في المناسبات المختلفة وظهر ذلك جلياً من خلال توفير الطعام والكساء والعلاج، والمأوى والمساعدات المالية[٢].

فلدينا العديد من الوثائق وأهمها وثائق الحرم:

- فقد جاء في إحداها أن جمال بن عبد الله من أهل القدس أوقف داره الكائنة في القدس على الخانقاه الصلاحية يصرف من ريعها على الفقراء والمقيمين بها والواردين إليها وقفاً صحيحاً مؤبداً على ألا تباع أو توهب أو ترهن[٣].
- وجاء في وثيقة وقف أخرى أنه تم وقف عشرة حوانيت في سوق الليل في القدس الشريف معقودة بالحجر والجير، وارتفاعها ستة أذرع بالعمل

---

[١] الحجي (حياة ناصر): السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٩٨٣م، ص ٨٣.

[٢] أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ١٤٣.

[٣] الوثيقة رقم ٥٤ من وثائق الحرم، نقلاً عن غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٠٨.

ومعها بئر ماء عمقها أربعون ذراعاً، على السقاية بالقدس ولمنفعة المسلمين[١].

- وقد أوقف رجل فقير لا يملك سوى كمية من البرغل وطراحة بوجه قدسي، وبساط، وعسلية بها قمح، وكوز من شحم مذاب، على مصالح المسلمين[٢].
- وفي الوثيقة ٤٣ المؤرخة في ٤ رمضان ٧٨٥هـ/٣١ تشرين الأول ١٣٨٣م[٣]، تم وقف خان العناية[٤] الكائن بباب حطة[٥] على المدرسة الصلاحية بالقدس[٦].
- وقد أوقف الشيخ منجك قرية شرفات[٧] في عام ٧٩٤هـ/١٤٨٩م من بعد نسله على الفقراء والمساكين في القدس الشريف[٨].
- وقد أوقفت الحاجة عائشة الرومية وزوجها محمد في عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م بيت في محلة باب الحديد في القدس الشريف على نفسيهما ثم بعد ذلك على جهات عديدة (وقفها على الفقراء والمساكين بالقدس الشريف)[٩].

---

[١] الوثيقة رقم ٧٧ من وثائق الحرم، نقلاً عن غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٠٩.

[٢] غوانمة: المرجع نفسه، ص ١٠٩.

[3] Little . A Catalogue : p. 281.

[٤] لم يجد الباحث ذِكراً لهذا الخان إلا في هذه الوثيقة وفي وثيقة وقف صلاح الدين الأيوبي على مدرسته، وتذكر أن الخان يقع في باب حطة. انظر، عبد الغني: الأوقاف على القس، ص٨٩.

[٥] أحد أبواب الحرم القدسي الشمالية. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٩.

[٦] المدرسة الصلاحية: وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة٥٨٨هـ/١١٩٢م، وتقع بباب الأسباط في زاوية الحرم الشمالية الشرقية.انظر، مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٤١.

[٧] قرية شرفات: تبعد عن القدس ٥ كم وعن بيت صفافا ١ كم. انظر، شراب: معجم بلدان فلسطين، ص٤٦٧.

[٨] عبد الغني (مصطفى): المرجع المتقدم، ص٨٩.

[٩] عبد الغني: المرجع المتقدم، ص ٨٢، ٩٠.

- كما جاء في إحدى الوقفيات أن يكون كامل وقفها للفقــراء الأحمديـــة[1] بالقدس الشريف[2].
- وقد جاء في وقفية السلطان الملك الناصر فرج الله أن يكون نصف أموال الوقف وقفاً على فقراء الحرمين الشريفين[3].
- وقد خصص شهاب الدين أحمد بن محمود العدوي جزءاً من وقفه ثمـــن قمصان ويجهز ذلك لفقراء الحرمين الشريفين كل سنة[4].
- وفي الوثيقة رقم ٢٢ من وثائق الحرم المؤرخة في ذي القعدة ٧٠٧هـــ/ نيسان ١٣٠٨م، جاء على أن قرية القصور من أعمال القدس هي وقـــف يصرف ريعها على جامكية[5] المؤذن، والخطيب فـــي الحـــرم القدســـي

---

[1] الأحمدية: إحدى الطرق الصوفية، وتعرف بالطريقة البدوية نسبة إلى مؤسسها السيد أحمد بن علي بن ابراهيم الحسيني الشهير بالبدوي، توفي عام ٦٧٥هـــ/١٢٧٦م، عاش في مدينة طنطا في مصر حيث اشتهر كثيراً. انظر، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن، ت ٩١١هـــ/١٥٠٥م): حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٤٢٨.

ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٤٥-٣٤٦.

[2] أبشرلي (محمد) والتميمي (محمد داود): أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين في ألوية غزة، القدس الشريف، صفد، نابلس، عجلون، حسب الدفتر رقم ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول ١٩٨٢م، ص ١٤٣.

[3] صالحية (محمد عيسى): سجل أراضي ألوية صفد ونابلس وغزة وقضاء الرملة، حسب الدفتر رقم ٣١٢، تاريخه ٩٦٤هـــ/١٥٥٦م، سجلات أراضي فلسطين العثمانية، أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول، عمان، ١٩٩٩م، ص٢٦٢.

[4] صالحية: المرجع نفسه، ص ١١٨.

[5] جامكية: كلمة فارسية من جامة، بمعنى اللباس، والجامكية معناها الاصطلاحي: الجراية الشهرية أو الراتب المربوط لشهر أو أكثر، تُعطى من غلة الوقف، وكانت نفقات المماليك جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٣.

- سليمان (أحمد السعيد): تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ص٥٩.

وعلى مصالح السقاية في القدس[١].

- وقد أوقف المرحوم عبد الباسط في عــام ٨٣٤ هـــ/ ١٤٣٠م قريــة صورباهر[٢] التابعة للقدس على عشرة أيتام من أيتام المسلمين، يصرف لكل يتيم منهم في الشهر خمسة عشر درهماً نقرة أو مــا يعادلهــا مــن النقود، ويصرف لمؤدبهم في الخانقاه الباسطية[٣] في القدس في كل شهر خمسون درهماً مقابل تعليمهم القرآن والخط العربي، ويصرف لهــؤلاء الأيتام العشرة في كل عيد ثلاثين درهماً، وما يبقى بعد ذلك يصرف على الخانقاه المذكورة وعلى الفقراء والمساكين مــن المســلمين مــن ذوي الحاجات والفاقة[٤].
- وكدليل على مساهمة الأوقاف في تأمين الطعام للجياع والفقراء؛ نورد ما جاء في الوثيقة رقم ١٣ "آ" المؤرخة في مســتهل شــهر صــفر ســنة ٧٧٧هــ/تموز ١٣٧٥م حيث يطلب المملوك إبراهيم الناصري صــدقة من مرتب الرباط المنصوري[٥] ويرفع هذا الطلــب إلــى أميــر غيــر معروف، فجاء الرد على ظهر الوثيقة نفسها مؤكداً أن لكــل فــرد فــي المدينة المقدسة حقاً في الحصول على حد الكفاية الذي يضمن له الحيــاة

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٤١.

[٢] قرية صورباهر: تقع على ظاهر القدس إلى الجنوب وتبعد عنها ٤ كم. انظر، أبو حمود (قسطندي نقولا): معجم المواقع الجغرافية في فلسطين، جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٨٤، ص ١٢٥.

[٣] الخانقاه الباسطية: تقع بباب شرف الأنبياء شمالي الحرم، وهي قريبة من باب العتم، وتنسب إلى واقفها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي، توفي سنة ٨٥٤هــ/١٤٥٠م. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٩.

- عبد المهدي: المدارس في بيت المقدس، ج٢، ص١١٢.

[٤] عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص ٩٢.

[٥] الرباط المنصوري: يقع عند باب الناظر أحد أبواب الحرم الغربية، بناه السلطان منصور قلاوون، سنة ٦٨١هــ/ ١٢٨٨م. انظر، مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص٤٣.

في المجتمع، فقد أمر هذا الأمير بأن يُعطى السائل (المملوك إبراهيم) في كل يوم أربعة أرغفة، مؤكداً أن هـذه الصـدقة خرجـت مـن ديـوان الوقف[1].

- وقد أدت الأوقاف دوراً عظيماً في تأمين المأوى والسكن للغرباء وطلبة العلم والفقراء، فقد جاء على وجه الوثيقة رقم ١٠ "آ" من وثائق الحـرم (لم يظهر التاريخ عليها) طلب من المملوك إبراهيم الناصري كـان قـد رفعه إلى القاضي يطلب فيه أن يُسكنه في إحدى الدور الموقوفة وكـان الطلب على الشكل الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم.

يقبل الأرض وينهى عن المملوك من حملة كتاب الله تعالى

ومن أهل العلم الشريف وسؤال الملوك من صدقات

مولانا القاضي أيده الله تعالى بعز الطاعة

أن يكون للملوك منزلاً بمدرسة مولانا القاضي أعزه الله تعالى

من جملة السادة الفقهاء أسوة من نزل بها ويغتنم مولانا

القاضي الدعاء من المملوك ومن عايلته في الأماكن المشرفة

بالقدس الشريف والله تعالى أن يؤيده بمنه وكرمه

أنهى المملوك ذلك بالحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد

إن شاء الله تعالى

حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل[2].

---

[1] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢١٠ – ٢١١.

[2] العسلي: المرجع نفسه، ج١، ص ٢١٣.

وبعد عرض هذا الطلب على القاضي في القدس، كان جواب القاضـــي قـــد ورد على ظهر الوثيقة نفسها (الوثيقة ١٠ "ب") المؤرخة لعشر بقين من صفر سنة ٧٧٠هـ/٤ تشرين الأول ١٣٦٨م، على الشكل التالي:

الحمد لله

إن لم يكن قد استكمل بالرباط المبني لساكنيه

بالقدس الشريف عشرون فقيهاً فيستقر

بالرباط المذكور وإن كان قد استكمل

فيها شرط الواقف فمن توفي منهم أو توجه

للسكن بغير القدس الشريف فيستقر عوضه

ويعين له سكن بالرباط المذكور[١].

- وكان بإمكان الأسر الفقيرة والضعيفة أن تسـكن فـي أحـد المنشـآت الاجتماعية أو الدينية، ففي الوثيقة رقم ٥٢٧ المؤرخة في ١٧ ذي القعدة ٧٩٥هـ/٢٤ أيلول ١٣٣٩م، تم حصر موجودات امرأة مريضة مرض الموت وكانت تقطن في رباط الطواشي في باب حطة[٢]، وفي الوثيقـة رقم ٤٤٨ المؤرخة في ٢٤ ربيع الأول ٧٩٦هـ/٢٧ كـانون الثـاني ١٤٩٣م، تم حصر تركة الشيخ عمر[٣] وحسب هذه الوثيقة فإنـه كـان يقطن في رباط علاء الدين البصير[٤]، وفي الوثيقة رقم ٤٣٨ المؤرخـة في ١٣ جمادى الثانية ٧٩٥هـ/٢٦ نيسان ١٣٩٣م، تم حصر موجودات

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢١٤.

[2] Little: A Catalogue, P. 137.

[3] Ibid: P. 120.

[٤] رباط علاء الدين البصير: يقع بباب الناظر، أنشأه الأمير علاء الدين البصير ناظر الحرمين أيام الظاهر بيبرس إلى أيام المنصور قلاوون، وكان أعمى، توفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، ودفن في رباطه. انظر، مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٧٠.

فراس بن عبد الله عتاقة قرقط المغربي الذي كان يسكن في زاوية الشيخ إبراهيم في حارة المرداوية[١]، وفيما يخص المسيحيين فقد وفرت أديرتهم سكناً لفقرائهم، ففي الوثيقة رقم ٤٧٤ المؤرخة في ٢٩ ذي الحجة ٧٩٣هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٣٩١م، تم حصر تركة يعقوب بن يوسف بن مسعود المتوفى في (دير نعلة) في حي النصارى في القدس[٢]، والوثيقة رقم ٥٠٣ المؤرخة في ٤ ذي القعدة ٧٩٥هـ/١١ أيلول ١٣٩٣م، كانت تخص مسيحي متوفى في دير العامود[٣].

- وهناك بيوت أوقفت ليسكنها الفقراء والعجايز والمحتاجين.... الخ، ففي الوثيقة رقم ٨٣٣ المؤرخة في ٢٥ ربيع الأول ٧٤٧هـ/١٦ حزيران ١٣٤٦م، أوقفت فاطمة المغربية عمارتها المستجدة بالقبو الروماني في حارة المغاربة بالقدس على من يسكنها من العجايز والفقراء المغاربة[٤]، وفي الوثيقة رقم ٥٠٤ المؤرخة في ١٧ ذي الحجة ٧٩٣هـ/١٥ تشرين الأول ١٣٩١م، تم حصر تركة مخلوف بن رضوان الذي كان يقيم مع زوجته في دار وقف الدوادارية في خط وادي الطواحين[٥]، وفي الوثيقة رقم ٤٣٣ المؤرخة في ١٣ محرم ٧٩٦هـ/١٨ تشرين الثاني ١٣٩٣م، تم حصر تركة محمد بن سليمان الذي كان يسكن مع زوجته في دار وقف العميان[٦]، والوثيقة رقم ٤٨٤ المؤرخة في ٤ ربيع الثاني ٧٩٤هـ/٢٩ شباط ١٣٩٢م، تم حصر تركة حسن بن عبد الله الذي كان يسكن في دار وقف المرحوم محمد بن جوزية في حارة المشارقة[٧].

---

(1) Little: A Catalogue: P. 117.
(2) Ibid, P. 126.
(3) Ibid: P. 131.

(٤) العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٢٣٥-٢٣٦.

(5) Ibid: P. 131.
(6) Ibid, P. 116.
(7) Ibid: P. 128-129.

- وتأكيداً على أن الأوقاف كان لها الدور الأول في دعم الفقـراء وتـأمين حياتهم نجد أن أحد أبناء القدس ويدعى يعقوب، بعد أن عانى من الفقر، التجأ إلى الأوقاف ليُصرف عليه حيث رفع طلباً تضمنته الوثيقـة رقـم ٢٣٢ (لم يظهر التاريخ على الوثيقة) إلى قاضي القدس شارحاً له سـوء وضعه، وأنه في عائلة كبيرة، وعنده أولاد، وقد أصبح في فاقة ويطلـب منه أن يأمر له بصرف صدقة كمساعدة من أي جهة، فجاء في الوثيقـة ما يلي[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوك يعقوب

يقبل الأرض وينهى أن المملوك رجل فقير وذو

عايلة كثيرة وبقا غريب ووحداني ولم بقا له

في الحي ملجأ إلا الله عز وجل والمملوك داعي شاكر من صدقات

مولانا القاضي فسح الله في مدته والمملوك لم يزل داعي

لسيدي آناء الليل والنهار ولم جا المخدوم إلى هذه البلدة

إلا بنيتي وبنية هذه العيال الذي بقت في رقبتي

والمملوك يود أن يكون الليل والنهار في خدمة سيدي

ألا يعرف المخدوم أني مالي عين وقد أصبحت في دين

اليوم على فاقة ولم يكن معي شيء لأرهنه ولا أبيعه أنفقه

على عيالي في هذا اليوم شهد الله العظيم وقد صدق المخدوم

في هذا اليوم صدقات سيعين في شيء يستعين به على عياله

---

[١] يلاحظ في الوثيقة الركاكة في اللغة وهذا يدل على أن الشخص من عامة المجتمع وغير متعلم.

والصدقات أو من أي جهة كانت ويكون ذلك صدقة

عن سيدي وعن أسلافه الطاهرة واغتنام أجر المملوك

ودعاي عايلته.... والحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

وسلم[١].

- ومن جهة ثانية نجد أن الأوقاف اعتنت بالناحية الصحية لدى السكان لتأمين الدواء والطبابة، وغير ذلك، فالبيمارستان الصلاحي الذي سبق الحديث عنه وإن كان مؤسسة حكومية تُدار من قبل الدولة، إلا أنه ما كان ليكتب له البقاء والاستمرار في رسالته الصحية والتعليمية والاجتماعية لولا الأوقاف التي رصدت عليه، فالسلطان صلاح الدين الأيوبي أوقف بمفرده ١٠١ عقار، تصرف الإيرادات المستوفاة من هذه العقارات على البيمارستان وما يحتاجه من نفقات، وقد حُددت هذه العقارات في نص وقفيته، وهي: ٣٩ بيتاً، وفرنان، وثلاثة أقبية، و٣٥ دكاناً، و١٦ مخزناً، ومعصرة، وصهريجاً، ومزرعة، وأرضاً زراعية، وحكر خان الزيت، وحكر قبان زيت[٢].
- والأوقاف على البيمارستان لم تتوقف فقد استمر عامة الشعب في عصر المماليك برصد الأوقاف عليه، ففي الوثيقة رقم ٣٦ من وثائق الحرم المؤرخة في ١٧ محرم ٧٩٧هـ / ١٢ تشرين الثاني ١٣٩٤م، جاء أن

---

[١] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢١٥-٢١٦.

[٢] العسلي: المرجع نفسه، ج١، ص٨١.

عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص٩٩.

- صالحية (محمد عيسى): سجل أراضي لواء القدس حسب الدفتر ٣٤٢ تاريخه ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول، عمان، ٢٠٠٢م، ص٧٩.
- أبشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص ٤٥ – ٤٦

البدري بن حسام الدين بركة خان قد أوقف مسجد وتربة في القدس وقرية دير الغصون[1]، على مداواة المرضى وتجهيز الموتى بالقدس[2]، وجاء في وثيقة أخرى أن النساء أوقفت بستاناً في حارة بني زيد في القدس على نفسها وعلى أختها مدى حياتهما، ومن بعدهما على بيمارستان صلاح الدين، وعينت قاضي القدس ناظراً على الوقف[3]، كما أوقف الشيخ مجد الدين عبد الملك بن أبي بكر الموصلي سنة ٨٣١ هـ/١٤٢٧م، قرية نعلين[4]، وقرية جبعا البطيخ[5]، وغراس التين والمشمش القائم بأرض الصلاحية بالقدس الشريف، وخُصِّصَ الثلثان من هذا الوقف على ذريته، ومن بعد انقراض ذريته تقسم حصتهم إلى أربعة أقسام يذهب قسم منها ثمن خبز للفقراء والضعفاء في الرباط المنصوري في القدس، وقسم آخر يصرف على الضعفاء في البيمارستان الصلاحي[6].

- وفي الوثيقة رقم ٢٠ المؤرخة في ٥ صفر ٧٦٨هـ/١١ تشرين الأول ١٣٦٦م، من وثائق الحرم القدسي الشريف أوقف جعفر بن محمد بن أبي بكر السفار من القدس الشريف داراً في خط باب العمود[7] في القدس، وبعد أن حدد جهاته الأربع أوقف هذه الدار على نفسه مدة حياته ثم من

---

[1] قرية دير الغصون: تقع في الجهة الشمالية من طولكرم. انظر، شراب: معم بلدان فلسطين، ص ٣٩٤.

[2] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٣٧.

[3] العسلي: مقدمة في تاريخ الطب، ص ١٤٤.

[4] قرية نعلين: تقع شرقي الرملة. انظر، شراب: المرجع المتقدم، ص ٧١٤.

[5] قرية جبعا البطيخ: تقع في الشمال الشرقي من القدس. انظر، شراب: المرجع المتقدم، ص ٢٤٧.

[6] عبد الغني: الأوقاف على القدس، ص ٨٧.
- أبشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص ٣٣.

[7] باب العمود أو العامود: أحد أبواب مدينة القدس الرئيسية ويقع شمالي المدينة. انظر مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٦. وانظر الخرائط في الملاحق (الملحق رقم ٢٦).

بعده (على مصالح البيمارستان الصلاحي بالقدس الشريف، يسلك بـذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً، وحبساً دائماً مخلداً لا يباع ولا يوهب ولا يملك بوجه من وجوه التمليكات أبداً ما دامت الأرض والسماوات)[1].

- ومن الأوقاف المهمة أيضاً (دار الوكالة) والتي أوقفت على مصالح المسجد الأقصى حيث أنها كانت تؤجر بمبلغ ٤٠٠ دينار سنوياً تورد إلى ناظر الحرمين الشريفين[2].
- بالإضافة إلى هذا فقد حظيت القدس باهتمام واضح من قبل السلاطين المماليك، وقد حفظت لنا وثائق الحرم مجموعة من المراسيم الصادرة عن السلاطين المماليك، أوقفوا فيها الأوقاف، ورصدوا الأموال للقدس ولرعاية منشآتها الدينية والاجتماعية والحضارية.

ففي عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م، أصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسوماً جاء ذكره في الوثيقة ٣٤ من وثائق الحرم أمر فيه بأن تظل أراضي قرية العوجا وقفاً على القدس والحرم القدسي[3]، وفي عام ٧٠١ هـ/ ١٣٠٢م، أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمراً سلطانياً تضمنته الوثيقة ٨ من وثائق الحرم وفيه أوصى بأوقاف الحرمين الشريفين (القدس والخليل)[4]، وفي عام ٧٦٦ هـ /١٣٦٥أصدر السلطان الأشرف شعبان بن حسين مرسوماً جاء في الوثيقة ٦ من وثائق الحرم يقض به بإبطال إقطاع قرية مجدل فضيل[5]،

---

[1] صالحية: من وثائق الحرم، ص ٤٩ - ٥٠.

[2] مجير الدين: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٢.

[3] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١٧٧-١٨٠.

[4] العسلي: المرجع نفسه، ج١، ص١٨١.

[5] حسب الوثيقة ٣١١ المؤرخة في ٢٥ صفر ٧٤٥هـ/١٣٤٤م من وثائق الحرم، فإن هذه القرية كانت جارية في وقف سيف الدين بكتمر الجوكندار الذي كان كافل المملكة سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م وكان من رجال دولة الناصر محمد بن قلاوون وهو الذي أشرف على ترميم وتجديد قلعة القدس. انظر،
- العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص١٨٧.
- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص٥٤٤.

وتخصص عائداتها لدفع رواتب خدم الحرم الشريف في القدس[١]، وللملك الظاهر جقمق مرسومين جاء الأول في الوثيقة رقم ٣٠٨ من وثائق الحرم في عام ٨٤٤ هـ/١٤٤١م، ويقضي باستمرار وقف المسجد الأقصى وتعين وكلاء له[٢]، والثاني جاء في الوثيقة رقم ٣٠٤ من وثائق الحرم لعام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، أيضاً يتعلق بأوقاف المسجد الأقصى[٣]، وقد أصدر الملك سيف الدين أينال مرسوماً جاء في الوثيقة رقم ٣٠٩ لعام ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م، أمر بأن الدخل المتحصل من بيع الحاجات في دار الوكالة يعود إلى وقف المسجد الأقصى[٤]، وقد أمر السلطان خشقدم في مرسومه المتضمن في الوثيقة رقم ١ لعام ٨٦٦ هـ/١٤٦٢م، أن المتحصل من جوالي قرية طيبة لسم يصرف على مصالح الصخرة الشريفة[٥].

وجاء في المصادر أن السلطان الظاهر بيبرس عندما زار القدس ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢ م، كشف أحوال البلد وما يحتاج إليه المسجد الأقصى من العمارة ثم نظر في الأوقاف وكتب بحمايتها، ورتب خمسة آلاف درهم تصرف سنوياً برسم مصالح المسجد الأقصى وأمر ببناء خان خارج القدس[٦]، وفي عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، وقف عدة قرى بأعمال الشام والقدس يصرف ريعها في ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة، وبنى فيها خاناً وفرناً وطاحوناً[٧]، وفي عام ٨١٢ هـ/١٤٠٩م زار السلطان فرج بن برقوق بيت المقدس وتصدق بخمسة آلاف دينار ذهباً، وبعشرين ألف درهم فضة[٨].

---

(١) العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص١٨٣.

(2) Little: ACatalogue , P. 34 – 35.
(3) Ibid: P. 34.
(4)Ibid: P. 35.

(٥) العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص ١٨٩.
(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٤٩١.
(٧) المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص ٥٢١.
(٨) المقريزي: المصدر المتقدم، ج٤، ق١، ص١٠٨.
– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٥١.

ولابد من الإشارة إلى أنه كانت هناك أوقاف خاصة بطائفة المغاربة الـذين كثر وجودهم في القدس لأسباب عديدة - ذُكرت سالفاً بعضها - وقد أقام هؤلاء في جبل الطور في حي خاص سمي حي المغاربـة، وكـان متـولي زعامـة المغاربة شيخ يعينه الوالي كما كانت لهم زاوية تعرف باسمهم وشـيخ يسـمى شيخ المغاربة[١].

ومن أوقاف المغاربة نذكر وقفية العالم أبي مدين التي حـررت فـي عـام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، وفي حجة الوقف تم حبس قرية عين كارم من قرى القدس وحبس إيوان وبيتين وساحة ومرتفق خاص ومخزن وقبو في الخط الموجـود بالقدس والذي يعرف بقنطرة أم البنات في باب السلسلة على المغاربة المقيمين بالقدس الشريف أو القادمين إليها، وينتفع المغاربة من ذلك بالسـكن والإيجـار وسائر الانتفاعات والمقاسمة والمزارعة[٢].

وفي حجة وقف أخرى للشيخ عمر المجرد المصمودي المغربـي المـالكي حررت في ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م، يحبس فيها ثلاثة دور تقع بحارة المغاربـة مع زاوية أنشأها هو بأعلى حارة المغاربة من جهة الغرب تشتمل على عشـر حجرات مع مرافقها داخلاً فيها وخارجاً عنها أوقفها على المحتاجين المغاربـة المقيمين بالقدس أو العابرين[٣].

وفي الوثيقة رقم ٨٣٢ من وثائق الحرم أوقفت فاطمة بنت محمد المغربيـة عمارتها المستجدة بحارة المغاربة على من يسـكنها (أي مـن يسـكن حـارة المغاربة) من الفقراء والعجائز المغاربة، فإذا انقرضوا يجري ذلك مجرى وقف حارة المغاربة[٤].

---

[١] المدني (زياد): مدينة القدس وجوارها، بنك الأعمال، الأردن، عمان، ١٩٩٧م، ص ٢١٦.

[٢] التازي: أوقاف المغاربة، ص ١٤ - ١٦.

[٣] التازي: المرجع نفسه، ص ١٩ - ٢١.

[٤] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

ويطول الحديث عن الأوقاف وأثرها على المجتمع ونكتفي بهذا، ولكن لابد من الإشارة إلى أثرها في النواحي الثقافية والاقتصادية والدينية، فمن الناحية الثقافية قامت الأوقاف بدور بارز في الحياة العلمية في عصر المماليك، فقد استغلت إيرادات الأوقاف التي أوقفت على المؤسسات التعليمية في بناءها وتمويلها، وكان لها الأثر الجلي في إدامة هذه المؤسسات ونهوضها برسالتها من خلال ما وفرته من مسكن ومأكل ومشرب ورواتب ومتطلبات النهوض بالأعباء التعليمية والتدريسية، وكان هذا لكل الطلبة المقادسة والقادمين من شتى أرجاء دار الإسلام، ويكفي هنا أن نشير – على سبيل المثال – إلى وقفية تنكز، فمن بين ما ورد فيها المدرسة التي كانت تضم أقسام رئيسية ثلاثة: مدرسة ودار حديث ورباط للصوفية[1].

وكان للأوقاف أثرها الواضح في العناية بالمنشآت الدينية، فالمسجد الأقصى – على سبيل المثال – أوقفت عليه أوقاف كثيرة مكنته من أداء رسالته الدينية والثقافية والاجتماعية، بل مكنته من أن يصبح جامعة من كبريات الجامعات الإسلامية، وهناك عدد كبير من العقارات في القدس وقفها أشخاص من عامة المجتمع على الحرم، وكان كثير من الوافدين الذين وقفوا أوقافاً ذرية يشترطون أن يؤول ريع الأوقاف بعد انقراض الذرية إلى المسجد الأقصى والعاملين به[2]، ناهيك عن الأوقاف التي خصصت باسم المسجد الأقصى والحرم، فنظام الأوقاف كان يعد العمود الفقري للمؤسسات الدينية والتعليمية.

ومن الناحية الاقتصادية أسهمت الأوقاف بفعالية من الحد من نسبة البطالة في الأماكن التي انتشرت فيها الأوقاف، فأوجدت الأوقاف عدداً من الوظائف الجديدة مثل: ناظر الوقف (المتولي)، ونائب الناظر، والمباشر، والكاتب،

---

[1] انظر: وقفية الأمير تنكز، العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٠٦ وما بعدها

– العسلي: معاهد العلم، ص ١١٨–١٣٣.

[2] أبشرلي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص٤٢، ٤٧.

والجابي، والشاهد، .....الخ، ويلاحظ أن بعض المؤسسات الموقوفة كانت تعين أكثر من حاجتها لتوفير فرص العمل، فعلى سبيل المثال في المدرسة الطازية[1]، بلغ عدد الموظفين ستة وثلاثين موظفاً في حين أن عدد الطلاب لم يتجاوز الستة والعشرين طالباً[2]، بالإضافة إلى أن الأوقاف دعمت الأسواق، فقد كان هناك عدد من الأسواق الموقوفة[3] والتي تؤمن السلع اليومية للمواطن فضلاً عن دعم الفقراء مادياً.

---

[1] المدرسة الطازية: تقع في خط داود بالقرب من باب السلسلة. انظر،

- مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٥.

[2] العسلي: القدس في التاريخ، ص ٢٤٩.

[3] غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٨١ – ٨٢.

ثالثاً ــ عمران بيت المقدس:

في سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٤م توجه رحالة إيطاليين في رحلة حج إلى بيت المقدس وتركوا لنا وصفاً لما شاهدوه، فقاله أحدهم واسمه غوتشي (Gucci) إن القدس (موزعة بين سهل ومنحدر، وإن أجزاء منها مسورة وأخرى غير مسورة، وفي المدينة القديمة التي شهدت صلب المسيح "عليه السلام" ترى الأسوار في كثير من المواضع في مستوى الأرض، أو فوق مستوى الأرض إذا كانت سميكة جداً وضخمة الحجارة، وتقوم مدينة اليوم حيث كانت المدينة القديمة وتمتد إلى خارجها.... تعج بالناس والمنازل، وتقع في بلد طيب شديد الخصب وفير الخيرات، هو بلد معتدل الحرارة)[1].

ويذكر مؤرخ القدس مجير الدين على لسان المسافرين: (لم يكن في جميع المملكة أتقن عمارة ولا أحسن رؤية من بناء بيت المقدس)[٢]، وتقترب منها في الجمال وإحكام البناء مدينتي الخليل ونابلس[٣]، لا بل إنها فاقت مدن إيطاليا في التنظيم والروعة عندما قال عنها سيغولي (Sigoli) مرافق غوتشي: (فيها شوارع جميلة لأصحاب الحرف، وهم يحافظون على دكاكينهم نظيفة جداً يطيب النظر إليها، والشوارع كلها أو في معظمها مسقوفة أو مقببة، ذات نوافذ تنفذ الضوء بحيث تبقى الشوارع جافة حين تمطر السماء، وفي المدينة سوق عظيمة للخبز ولكل أنواع اللحوم أكثر كثيراً مما عندنا)[٤].

بناءً عليه يمكن وصف مدينة القدس في عصر المماليك على أنها كانت مدينة حضارية ومزدهرة تمتع أهلها ببيئة اتسمت بعمران جميل، ونظافة وأسواق وخانات ومساجد وسبل ومشافي، كما أنها تألفت من عدد من الأحياء (الحارات)، عُرف كل منها باسم الطائفة الاجتماعية التي سكنته، وكان بعضها

---

(1) Frescobaldi , Gucci Sigoli , Visit To The Holy land ,P. 127.

(٢) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٥.

(٣) مجير الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٦.

(4) Ibid : P. 180.

مساوياً في الحجم لقرية صغيرة، وكانت الأحياء مناطق متجاورة صغيرة تقع داخل وحدة المدينة الكبرى، وغالباً ما كان الحي عبارة عن وحدة اجتماعية متجانسة ومترابطة بإحكام، تبحث عن الراحة والحماية والأمن لأعضائها، وقد قامت تضامنات بعض الأحياء على أساس المطابقة الدينية[١]، وأحياناً على أساس المطابقة الجغرافية أو القبلية، فقد كان للمغاربة حي خاص بهم، وكذلك لبني الحارث، وبني زيد، وبني مرة وغيرهم، ولكن كان لهذه القواعد شواذ، فلم يقتصر هذا الحي أو ذاك على فئة معينة كما ظن بعض المؤرخين، بل كان هناك تداخل وتمازج بين فئات المجتمع، ففي الوثيقة رقم ٣٣٧ المؤرخة في ٦ رجب ٧٩٦هـ/٧ أيار ١٣٩٤م نجد إشارة إلى وجود مسجد في حارة اليهود[٢]، وفي حادثة أخرى في الوثيقة رقم ٣٣٥ المؤرخة عام ٧٩٥ هـ/١٣٩٢م، رفع شيخ حي المغاربة قضية تخص الجالية اليهودية إلى والي دمشق عندما أرادت سلطات القدس مصادرة ممتلكات يهودي كان قد توفي[٣]، على هذا يمكن أن نرجع تبعية اليهودي لشيخ المغاربة، أي أنه كان يسكن حي المغاربة، ولعله يهودي مغربي، وفي الوثيقة رقم ٤٦٠ المؤرخة في ٧٩٣هـ/١٣٩١م، حصر ممتلكات لامرأة دمشقية توفيت في دار كانت تسكنها في حي المغاربة[٤]، وفي الوثيقة رقم ١٥ المؤرخة في عام ٧٤٣هـ/١٣٤٣م

---

[١] لابيدوس (إيرامافين): مدن الشام في عصر المماليك، تر: سهيل زكار، دار إحسان، دمشق، ١٩٨٥م، ص ١٤٢ – ١٤٣.

[2] Little : A Catalogue , P. 99.

- Little (Donald P.):Haram Documents Related to the Jews Of Late Fourteenth Century Jerusalem Journal Of Semitic Studies XXX , 2 (Autumn1985) P.P. 231 – 232.

[٣] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٧٠.

– صالحية من وثائق الحرم، ص ٩٠.

[٤] العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص ٤٦.

اشترى رجل مسيحي من شيخ مسلم داراً في حي النصارى كان يسكنها الشيخ المسلم(١).

أما عن حارات القدس فكان على رأسها حارة المغاربة(٢)، وكانت بجوار سور المسجد الأقصى(٣)، من جهة الغرب ونسبتها إلى المغاربة لكونها موقوفة عليهم وسكنهم بها(٤)، وحارة الشرف(٥)، وهي بجوار حارة المغاربة من جهة الغرب ونسبتها لرجل من أكابر البلد اسمه شرف الدين موسى، وله ذرية معروفون يقال لهم بنو شرف، ويذكر مجير الدين أن هذه الحارة كانت تعرف قديماً باسم حارة الأكراد(٦)، ولكن هناك وثائق تضعف هذا القول، فهناك وثيقتين دونتا في عام (٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م)، واحدة كتب عليها أن الحادث وقع في حارة الأكراد، والأخرى دون عليها أن مكان وقوع الحادث هو حارة الشرف(٧)، فهل هما حارتان مختلفتان أم أن الحارة أطلق عليها في الوقت نفسه الاسمين ؟ وما يرجح الاحتمال الثاني هو ما ورد في وثيقة أخرى هي الوثيقة ٦٧٩ المدونة في ٧٩٤ هـ، ١٣٩١ التي ذكر فيها أن مكان وقوع الحادث هو في زاوية الشريف في حارة الأكراد(٨).

---

(1) Little : A Catalogue , P.277.

(٢) ورد ذكرها في حوالي ٦٥ وثيقة منها: ١٢٦، ١٣٢، ١٤٣، ١٥٤، ٣٨٦، ٣٩٢. انظر، Ibid P.P.P. 73 , 75 , 77 , 104 , 105 …

(٣) إن الأقصى اسم لجميع ما دار عليه السور (أي كل الحرم). انظر،

– مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٤.

– ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص ٥٤٣.

(٤) مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥١ – ٥٢.

(٥) ورد ذكرها في الوثيقة ٢١٦. Ibid : P. 172.

(٦) مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

(٧) الوثيقة ٥٥٨، حارة الأكراد Ibid , P. 143.

والوثيقة ٢١٦، حارة الشرف Ibid : P. 172.

(8) Ibid : P. 217 - 218.

وفي وثائق أخرى جاء ذكر حارة أولاد الشرف[١]، ولا ذكر لهذه الحـــارة عند مجير الدين، فربما هي نفسها حارة الشرف، وهناك حـــارة العلـــم وهـــي بجوار حارة الشرف من الشمال؛ وهي نسبة لرجل كان اسمه علم الدين سليمان وكان يعرف بابن المهذب، وكانت وفاته سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، ومن ذريتـــه ولده عمر الذي كان ناظراً للحرمين الشريفين[٢]، وضمنها حارة الحيـــادرة[٣]، وسميت بذلك نسبة لزاوية الحيادرة[٤]، وحارة الصلتين تقع بجوار حارة الشرف من جهة القبلة (الجنوب) إلى الغرب[٥]، وحارة اليهود[٦] تقـــع بجـــوار حـــارة الصلتين من جهة الغرب[٧]، وضمنها حارة الريشـــة[٨] وحـــارة صـــهيون[٩] الجوانية وهي غرب حارة اليهود[١٠]، وحارة الضوية وهـــي بجـــوار حـــارة صهيون من الشمال[١١]، وحارة بني الحارث[١٢] وهـــي خـــارج البلـــد عنـــد القلعة[١٣]، فعندما جلب صلاح الدين بني الحارث بعد تحرير القدس أسكنهم عند القلعة وعُرف الحي باسمهم[١٤].

---

[١] ورد ذكرها في الوثائق: ٩٠، ٥٠٠، ٥٧٦، انظر: Little: A Catalogue, P.P. 68, 146, 265.

[٢] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٢.

[٣] ورد ذكرها في الوثائق: ١٦٣، ٧٢٩، ١٩٦. انظر: Ibid : P. 82 , 157 , 228.

[٤] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

[٥] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

[٦] ورد ذكرها في الوثائق: ٣٣٧، ٤١٣، ٧٠٥، ١٩٧. انظر: Ibid: P. 99, 110-111, 154, 172

[٧] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

[٨] ورد ذكرها في الوثائق: ٣٩٠، ٦٥٦، انظر: Ibid , P. 105 , 150.

[٩] ورد ذكرها في الوثائق: ١٦٧، ٢٥٧، ٣٦٧، انظر: Ibid : P. 83 , 93 , 101.

[١٠] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

[١١] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

[١٢] ورد ذكرها في الوثائق: ١٢٤، ٣٩٥، انظر: Ibid: P. 72 , 106.

[١٣] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٢.

[١٤] العارف: المفصل ص ٢٨٥. البرغوثي وطوطح: تاريخ فلسطين، ص ١٨١.

وحارة حمام علاء الدين وحارة ابن الشنتير وحارة مرزبان[١] وحارة الحصرية، هذه الحارات الأربع وقعت في خط مرزبان، أما عن موقع هذا الخط فيذكر مجير الدين أنه مقسم إلى أقسام، فمن سويقة باب القطانين (والتي تقع غرب سور المسجد عند باب القطانين)، إلى آخر العقبة يعرف بعقبة القطانين (هذه العقبة تعرف اليوم باسم عقبة الخالدية)[٢]، ومن رأس العقبة هذه إلى خان الجبيلي يعرف بحارة حمام علاء الدين، ويليه من جهة الغرب شارع يعرف بحارة الشيخ محمد القرمي[٣]، ويليه من جهة الشمال شارع يعرف بحارة الحصرية، ويليه من الشرق شارع يعرف بحارة ابن الشنتير لسكنه بها، وهذا كله يدور في عموم خط مرزبان[٤].

ويلي حارة مرزبان من جهة الغرب خط المربعة وسوق القماش، ويليه سوق الخضر، ويليه سوق العطارين، ويليه غرباً خط الدركاه وبه البيمارستان الصلاحي وكنيسة القيامة، ويليه حارة النصارى[٥] من جهة الغرب ممتدة قبلة بشام من باب الخليل إلى باب السرب، وضمن حارة النصارى حارة الرحبة، وتلي حارة النصارى من جهة الغرب حارة الجوالقة، وهي خارج المدينة[٦].

ويأتي بعد خط مرزبان من حيث الأهمية والاتساع؛ خط وادي الطواحين الممتد من باب العمود (أحد أبواب القدس الواقع في الشمال الغربي من المدينة) إلى درج العين ومن أهم حاراته:

حارة باب القطانين، ووقعت عند أحد أبواب المسجد الأقصى الغربية وتنسب إليه وهو باب القطانين، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى سوق القطن الذي

---

(١) ورد ذكرها في الوثائق: ٩٣، ١٢١، انظر: Little: A Catalogue, P. P. 69 , 71.

(٢) العسلي: من آثارنا، ص ٩٠، ١٢٦، ٢٠٩.

(٣) ما تزال هذه الحارة موجودة اليوم وطريق القرمي أيضاً، العسلي: المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٤) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٣.

(٥) ورد ذكرها في الوثائق: ٤٧٤، ٤٨٦، ١٥، انظر: Ibid , P. 126, 223, 277.

(٦) مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٣.

بجانبه، وإلى الشمال من باب القطانين وحارة القطانين تقع حارة باب الحديد، التي نسبت إلى باب الحديد أحد أبواب المسجد الغربية وهي بجانبه، وإلى الشمال منها حارة باب الناظر والتي تنسب لباب الناظر وهو أيضاً أحد أبواب المسجد الغربية[1]، كل هذه الحارات تقع غربي السور الغربي للمسجد الأقصى.

ومن حارات هذا الخط حارة الغوانمة، وتقع هذه الحارة شرق وادي الطواحين وشمال غربي سور المسجد الأقصى[2]، وسميت هذه الحارة بهذا الاسم نسبة لسكانها من بني غانم شيوخ الخانقاه الصلاحية والمسجد الأقصى[3]، وهناك يوجد باب الغوانمة أحد أبواب المسجد الأقصى في الزاوية الشمالية الغربية لسور الحرم[4]، وحارة بني مرة[5] تقع شمال غرب سوق الفخر[6]، ويليها من جهة الغرب حارة الزراعنة، وحارة الملاط وهي بظاهر البلد بلصق حارة النصارى من جهة الغرب، وحارة باب العامود وهي انتهاء خط وادي الطواحين وهي آخر المدينة من جهة الشمالي الغربي، وضمنها حارة بني سعد[7]، وحارة القصيلة[8]، وتقع هذه الأخيرة شرق وادي الطواحين ويقع شمالها حارة عقبة الشيوخ ويليها من الشمال حارة بني زيد[9]، وضمنها زقاق يعرف بالسعدين (طريق السعدية) وحارة باب القصيلة من الشرق، ويليها من القبلة حارة شرف الأنبياء وتعرف الآن (في عصر مجير الدين) بحارة

---

(1) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٤.

(2) مجير الدين: المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٤.

(3) غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٢٨.

(4) مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٣٠.

(5) ورد ذكرها في الوثائق: ٥٧، ٨٥٣، ٦٠٨، انظر: Little: A Catalogue, P. P. 63, 295, 300.

(6) مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٤.

(7) ورد ذكرها في الوثيقة: ٦٣٨، ٢٠٤، انظر: Little: A Catalogue: P. 150, 203.

(8) ورد ذكرها في الوثيقة: ٣٣٨، انظر: Ibid: P. 104.

(9) ورد ذكرها في الوثائق: ٧٤٢، ٢٢٥، انظر: Ibid: P. 180, 184.

الدويدارية[١]، ومن الحارات الكبار حارة باب حطة[٢]، وهي شمال المسجد الأقصى، ويليها من الشمال حارة المشارقة[٣] سميت بهذا الاسم نسبة إلى النصارى المشرقيين القادمين من منطقة شرقي الأردن[٤]، وتنتهي إلى سور المدينة الشمالي، وحارة الغورية من باب الأسباط وتنتهي إلى سور المدينة الشمالي وإلى حوش هناك يعرف بالصامت[٥]، وبما أننا لا نزال في خط وادي الطواحين لا بد من أن نشير إلى أن الوثائق ذكرت حارة (وادي الطواحين) ولا ندري أي جزء كانت تشكل هذه الحارة من هذا الخط[٦].

كما هو معروف فإن أكبر مصدر عن طبوغرافية القدس في عصر المماليك هو كتاب مجير الدين (الأنس الجليل)، ولكن الوثائق تذكر لنا عدد من الحارات لا ذكر لها عند مجير الدين، وهي: حارة بني عمير[٧]، وحارة أولاد الشام[٨]، وحارة بني سعيد[٩] (ربما نفسها حارة بني سعد)، وحارة الباشكردية[١٠]، وحارة الجيابة وهي في منطقة باب حطة[١١]، وحارة جوار عبد

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٤.

[٢] ورد ذكرها في الوثيقة: ٩٧، انظر: Little : A Catalogue: P. 297.

[٣] ورد ذكرها في الوثائق: ٨٤، ١٠٧، ١٣٥، ١٥٣، انظر: Ibid, P. P. 65–66 ,70 , 76-78

[٤] ينقل القفطي في أخبار العلماء، ص ٣٧٩، عن الزوزني قوله (والنصارى الشرقيون في القدس أصلهم من البلقاء وعمان عرفوا بالشرقيين لأنهم من شرقي القدس، ولما استوطن بيت المقدس منهم من استوطنه سكنوا بمحلة هي شرقي القدس تدعى بمحلة المشارقة) إلا أن ليتل يذكر أن سكانها من أصل عراقي وفارسي. انظر، Ibid : P. 6.

[٥] مجير الدين: المصدر المتقدم، ج٢، ص ٥٤. Ibid : P. 9 - 10.

[٦] ورد ذكرها في الوثيقة: ١٤٥، انظر: Ibid : P. 77.

[٧] ورد ذكرها في الوثائق ٤٥٠، ٦٢١، انظر: Ibid: P. P. 121 , 293.

[٨] ورد ذكرها في الوثيقة: ٢٤٩، انظر: Ibid : P. 90.

[٩] ورد ذكرها في الوثيقة: ٣٢٣، انظر: Ibid : P. 284.

[١٠] ورد ذكرها في الوثيقة: ٧٧٦ "آ"، انظر: Ibid : P. 624.

[١١] ورد ذكرها في الوثيقة ٦٢٤، انظر: Ibid : P. 148.

الكريم الشوبكي[١]، وحارة أولاد الدواق[٢]، وحارة الخوالدة[٣]، وحارة الخوالدة الشرقية، ومن المحتمل أنها تقع على طول خط باب السلسلة (باتجاه الشـــرق)، حيث تواصل امتلاك عائلة الخوالدة للملكيات على طــول الخــط[٤] ، وحـــارة الحرفيين[٥]، وحارة المسلخ العتيق[٦]، وحارة المتصوفة[٧]، وحارة القيسارية[٨]، وحارة السودان[٩]، وربما تكون هذه الحارة عند عقبة السودان التي تقع جنوب عقبة الظاهرية وهذه الأخيرة تقع غرب حارة الغوانمة[١٠]، وحـــارة طاحونـــة الهوى[١١]، وحارة طور عفية[١٢]، وحارة الماردية[١٣].

إن وجود هذه الأحياء في القدس عائد للطبيعة الخاصة لتاريخ سكنى مدينة القدس بعد تحريرها من الفرنجة، وهذه الأحياء قد أتى سكانها من قرى مختلفة، كما جاء آخرون من بعض الجماعات القبلية العربية وغير العربية من تركمان وأكراد، وقد استمرت العلاقات بين سكان القدس من ذوي الأصول القبلية مـــن

---

(١) ورد ذكرها في الوثيقة١٢٣، انظر: Little : A Catalogue: P. 72.

(٢) ورد ذكرها في الوثيقة: ٢٣٣، انظر: Ibid: P. 173.

(٣) ورد ذكرها في الوثيقة: ٢٨٥، وهذه الوثيقة تخص امرأةً من بني خالد، وهذا يدل على أن الحارة سميت بذلك نسبةً لسكانها من بني خالد، انظر: Ibid : P. 96.

ومن الوثائق التي وردت ذكر هذه الحارة فيها الوثائق ٤٢٧، ٥٩٤، انظر: Ibid: P.114,147-148.

(٤) ورد ذكرها في الوثائق ٢٢٧، ٢٦١، انظر: Ibid : P. 86 , 94.

وانظر أيضاً حاشية ص ٨٦ من الكتاب نفسه.

(٥) ورد ذكرها في الوثيقة: ٥١٤، انظر: Ibid: P 133 – 134.

(٦) ورد ذكرها في الوثيقة: ٥٦٣، انظر: Ibid : P. 144.

(٧) ورد ذكرها في الوثيقة: ٥٦٩، انظر: Ibid : P. 145.

(٨) ورد ذكرها في الوثيقة: ٤٩٩، انظر: Ibid : P. 299.

(٩) ورد ذكرها في الوثيقة: ٥٦٨، انظر: Ibid : P. 178.

(١٠) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٤.

(١١) ورد ذكرها في الوثيقة: ٤٠٩، انظر: Ibid: P. 110.

(١٢) ورد ذكرها في الوثيقة: ١٦٤، انظر: Ibid : P. 82.

(١٣) ورد ذكرها في الوثائق ٢٣٠، ٣٩٧، ٤٣٨، ٧٥٥، انظر: Ibid: P. 86, 106, 117, 164.

عن مواقع هذه الحارات بالتفصيل انظر الخريطة في الملحق رقم (٢٦).

قبائلها، ففي عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م، عندما أعدم حاكم القدس عدداً من بني زيد هاجم أقاربهم مدينة القدس وأطلقوا سراح السجناء[١].

ونأتي الآن على وصف حارات بيت المقدس، فقد كانت جميعها ضيقة ومتعرجة، وبعضها يتطرق إليه بواسطة درج بسبب طبوغرافية الأرض الجبلية، وبلطت شوارعها بالحجارة[٢]، وكانت طرق القدس في معظمها ضيقة وملتوية وعرة المسالك[٣]، وبعض الطرق الفرعية عبارة عن أزقة مظلمة، ولم تكن طرق القدس جيدة التبليط والتمهيد، أما الطرق الرئيسية فيتداخل بعضها ببعض على شكل زوايا قائمة وكانت بعضها ذات نشاط وحركة تجارية[٤]، وكانت الشوارع الرئيسية مغطاة بسقوف حجرية معقودة وتحت هذه السقوف كانت تصطف حوانيت التجار على الجانبين ومطابخ الطباخين[٥]، هذا الطابع الفريد يمكن مشاهدة بقاياه في شوارع القدس القديمة وأزقتها، وكان لهذه الدروب والحارات حراس خاصون، يقومون على حراستها وحمايتها من اللصوص، وينبهون السكان ليلاً إذا شب حريق لديهم وهم نيام ويقدمون لهم المساعدة اللازمة[٦].

وأحاط بهذه الأحياء سور مرتفع قوي وقلعة حصينة في الجهة الغربية قرب باب الخليل، ووقع الحرم الشريف في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، وشغل مساحة كبيرة تبلغ ١٤٣٠٠٠ متراً مسطحاً أو ما يعادل ١٣٦ دونماً، وتشكل الأسوار الجنوبية والشرقية للحرم جزءاً من سور المدينة الكبير، أما

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٢٤.

[٢] خسرو: سفر نامة، ص٥٤.

- القزويني: آثار البلاد، ص ١٦٠.

[٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص٥٤٤.

[٤] صبري (بهجت حسين): لواء القدس ١٨٤٠-١٨٧٣م، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المجلد الأول، ص٢٥، نقلاً عن سجلات المحكمة الشرعية بالقدس.

[٥] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٢، ص١٠١٨.

[٦] غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص١٢٨.

أطوال أضلاعه فالشرقي يبلغ ٤٧٤ متراً والجنوبي ٢٨٣ متراً، والغربي ٤٩٠ متراً، والشمالي ٣٢١ متراً، ويحف بالحرم من الجهتين الشمالية والغربية الأبنية والأروقة التي أنشأت في العصرين الأيوبي والمملوكي، أما الجهتين الشرقية والجنوبية فهي مطلة على الخلاء، وأبواب الحرم هي من الشمال: باب الأسباط، باب حطة، باب العتم، باب الغوانمة في الزاوية الشمالية الغربية، ومن الجهة الغربية باب الناظر، باب الحديد، باب القطانين، باب المطهرة، باب السلسلة، باب السكينة، باب المغاربة، في حين لا يوجد أبواب من الناحيتين الشمالية والجنوبية[١].

هذه كانت الملامح العامة لخطط بيت المقدس في عصر المماليك، أما المنازل فقد حظيت بعناية أفراد المجتمع، إذ اهتموا اهتماماً كبيراً ببناء منازلهم، لا لتكون مجرد مأوى لأصحابها، بل لتوفر لهم سبل الراحة والرفاهية، ومن الطبيعي أن تتفاوت تلك المنازل تفاوتاً يتناسب مع مكانة أبناء المدينة من حيث وضعهم الاجتماعي وحالتهم الاقتصادية[٢]، هذا ما أدى إلى اختلاف أحياء القدس في مستواها لاختلاف ساكنيها، فلقد كانت هناك أحياء راقية يسكنها علية القوم من كبار التجار وأرباب الوظائف الدينية وغيرهم، مثل حارة السعدية وهي إحدى أرقى حارات القدس السكنية، وتقع هذه بين باب الساهرة والعمود بالقرب من الحرم القدسي الشريف، وحارة الخوالدة بباب حطة[٣].

ولقد تقدم ذكر ما قاله الرحالة أن القدس كانت (تعج بالناس والمنازل)[٤]، وأنها (كانت تتألف من بيوت جميلة جداً)[٥]، وقال عنها القزويني (ولا ترى

---

[١] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٧-٣٠.
- غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١٢٧.
[٢] علي: تاريخ القدس، ص٢٧٤.
[٣] غوشة (محمد هاشم): حارة السعدية في القدس، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٩٩.
(4) Frescobaldi, Gucci And Sigoli, P. 127.
(5) Ibid, p. 180.

أحسن من بنيانها ولا أنظف)[1]، أما عن المواد المستخدمة في البناء، فمن الطبيعي أن يكون للبيئة تأثيرها في مباني المدينة من ناحية المواد المستخدمة، فقد كان في مقدمتها الحجارة أي حجارة الكلس، فقد وصف مجير الدين بناء بيت المقدس بأنه (غاية في الإحكام والإتقان، جميعه بالأحجار البيض النحت، وسقفه معقود وليس في بناءه ولا في سقفه خشب.... بناؤها متقن لكونها في الجبل والحجارة فيها كثيرة متيسرة)[2]، ويذكر فيلكس فابري أن (ببوت بيت المقدس مبنية بالحجارة.... وقد رأيت فيها بيوتاً جميلة وكثيرة)[3]، ويذكر ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار أن القدس مبنية بالحجر والكلس[4]، ويذكر ابن بطوطة أن (القدس بلدة مبنية بالصخر المنحوت)[5].

وكانت هناك أنواع أخرى من الحجر تم استخدامها مثل الحجر الملكي والذي عرف في العصر العثماني بالحجر السلطاني لأن السلطان سليمان القانوني بنى سور القدس منه، ويسمى بالحجر المزي وأيضاً بالحجر الأزرق[6]، وقد تم استخدام الجير[7] إلى جانب الحجر[8]، وإذا عدنا إلى الوثيقة رقم ٧٧٣ "آ" والتي سجلت قائمة المواد التي استهلكها ترميم أو بناء حمام

---

[1] القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٦١.

[2] مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص ٥٥-٥٦.

[3] فابري: رحلته، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٤٢، ص١٠١٨.

[4] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص٥٤٤.

[5] ابن بطوطة (أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي، ت٧٧٠هـ/١٣٦٨م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج١، ص٢٤٤.

[6] المدني: القدس وجوارها، ص٧٣.

[7] الجير: الجص. انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص١٥٧، (مادة جير).

[8] غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس، ص١٢٧.

- نجم: كنوز القدس، ص٣٣.

المبارك عام ٧٩٥هـ/١٩٣٢م، كان في مقدمة هذه المواد الحجر والكلس، بالإضافة إلى الرمل والملح والزيت والإقميم[١].

كذلك جرى استخدام مادة القصارة، وهي عبارة عن خليط من (القصرمل) أي الرماد المتخلف عن الحمامات مع الشيد[٢] المطبوخ من الحجر الوردي، وقد أفادت بعض الحجج الشرعية أنها استخدمت في تغطية المساحات الفاصلة بين المداميك، ومن المواد التي تم استخدامها: الرخام، وقد كثر استخدامه في عمل النافورات والفسقيات وتكسية بعض مداخل الدور وأرضياتها وحيطانها[٣].

ولمواجهة مشاكل الرطوبة في المنازل وخصوصاً في فصل الشتاء تم استخدام كسر الفخار بعد طحنه وخلطه بالكتان المشبع بزيت الزيتون والشيد في طلاء الجدران الداخلية قبل كسوة هذه الجدران بمادة القصارة، وكذلك لإكساب المنزل البرودة الكافية أيام الصيف[٤].

أما عن نظام توزيع المنازل في القدس، فقد كانت غير منتظمة مكدسة فوق بعضها البعض نظراً لعدم انتظام الشوارع والأزقة، فكانت القدس عبارة عن مبنى واحد متشابك الأجزاء، وكانت المنازل تتألف من طابق واحد أو أكثر[٥]، في وسطها ساحة سماوية تشتمل على بئر ماء وبعض الأشجار وأحواض الزهور، وقد روعي في هذا النمط من البناء بحيث تجد المرأة في داخل الدار المتعة والراحة، أما نوافذ الدار المطلة على الشارع فوجد فيها

---

(1) Little (Donald P.): ((The Documents As Source For The Arts And Architecture of The Mamluk Period)) Muqarnas, Vol. II, 1984, P. 67.

(٢) الشيد: كل ما طلي به الحائط من جص أوملاط. انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص٤٤٤. (مادة شد).

(٣) غوشة: حارة السعدية، ص٧٣-١٧١.

(٤) غوشة: المرجع نفسه، ص٩٣، ١٨٠، ١٨٣.

(٥) صبري: لواء القدس، ج١، ص٢٤-٢٥.

مشربيات[١] خشبية جميلة الصنع تُساعد في تهوية البيت، وتستعمل أيضاً للجلوس والاستراحة ومُشاهدة الطريق دون التعرض لنظر المارة[٢]، وقد اختلفت الدور في مساحتها وتكوينها تبعاً للحالة الاقتصادية والاجتماعية، ويوجد في وثائق الحرم وصفاً لنماذج مختلفة من الدور، فالوثيقة رقم ٣٥ المؤرخة في ٤ ربيع الثاني ٧٧٨هـ/٢١ آب ١٣٧٦م، هي عبارة عن شهادة حول ملكية دار في حارة النصارى، و ذكرت الوثيقة أن الدار كانت تشتمل على ثلاث بيوت (غرف) ومطبخ ومطهرة (حمام) وساحة (حوش أو فناء) بها صهريج وسط الساحة وصهريج ثانٍ داخل العقد الشمالي، وبالساحة أيضاً قبو تحت الأرض، وبالساحة أشجار مختلفة الأجناس[٣]، وفي الوثيقة رقم ٣٥٣ المؤرخة في ١٥ صفر ٧٧٧هـ/١٦ حزيران ١٣٧٥م، ورد صك شراء لدار واقعة في جوار طاحون الباسطي في القدس وكانت تتألف من بيت واحد (غرفة واحدة)، وسطح ومرحاض وساحة ذات باب[٤]، ومن مميزات المنازل؛ قصر مداخلها وارتفاعها وصغر نوافذها حتى أن بعض البيوت حرمت من هذه النوافذ الصغيرة[٥].

ولقد زودت المنازل بوسائل الصرف الصحي (المجاري)، فقد كان هناك مجرى لتصريف الأقذار يتبع في معظم اتجاهاته مجرى العهد الروماني القديم، وقد تم ترميم هذا المجرى عدة مرات في عصر المماليك حتى يتسنى للسكان

---

[١] المشربيات: هي شرفات بارزة عن سمت البناء، ترتكز على دعائم وكوابيل، مصنوعة من الخشب بطريقة هندسية جميلة، بحيث يمكن للجالس فيها أن يشاهد ما في الخارج دون أن يراه أحد ولا تزال بعض دور القدس ودمشق والقاهرة ومكة تحتوي على مثل تلك المشربيات الخشبية. انظر،
– ديماند: الفنون الإسلامية، تر: أحمد محمد عيسى، القاهرة، ط٢، ص١٢٣.

[٢] نجم: كنوز القدس، ص٣٣.
– غوانمة: نيابة بيت المقدس، ص١٢٩.

[٣] العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص٢٧٦.

[4] Little: A Catalogue, P. 286.
- Little: Arts And Architecture, P. 67.

[٥] صبري: لواء القدس، ج١، ص٢٤-٢٥.

التخلص من الأقذار وتصريفها، وقد كان هذا المجرى الأساسي في المدينة القديمة وله مجار فرعية تصل بينه وبين أحياء المدينة داخل السور[١].

أما فيما يتعلق بأسعار المنازل في بيت المقدس، فأسعار الشراء والبيع والآجار كانت تتفاوت متناسبة بذلك مع مساحة البيت وموقعه وحالته... الخ، وعلى كل حال فإن الوثائق قدمت لنا عينة لا بأس بها عن أسعار المنازل في القدس، فقد تراوحت بين ١٣٠ درهماً ثمن منزل في حي النصارى بالقرب من دير باسل، اشتراه المسيحي رزق الله بن بولس التاجر من الشيخ أبي العباس يوسف، في عام ٧٤٣هـ/١٣٤٣م[٢]، في حين دفعت خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز ٢٥٠ درهماً، ثمن دار بباب حطة اشترتها من أخيها محمد وذلك في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م[٣]، وكانت أسعار المنازل مرتفعة في زقاق قناطر الخضير الذي يقع في خط وادي الطواحين، وعلى ما يبدو من أسعار المنازل فيه أنه كان حياً راقياً، فقد جاء في الوثيقة رقم ٣٩ المؤرخة في ٢١ ذي القعدة ٧٨٠هـ/١٠ آذار ١٣٧٩م، أن الشيخ برهان الدين الناصري المقرئ في المسجد الأقصى اشترى داراً بالقرب من قناطر الخضير بمبلغ ٨٢٥ درهماً من محمد بن محمد بن أحمد الزيدي[٤]، وجاء في الوثيقة رقم ٦١٩ المؤرخة في ١٥ ذي القعدة ٧٨٠هـ/٣ آذار ١٣٧٩م، ذِكِر عملية بيع لمنزل في قناطر الخضير، بين محمد بن أحمد ومريم بنت أبي بكر الرومية التركمانية بمبلغ ٨٢٠ درهماً[٥].

إلا أن أسعار المنازل عادت لتعتدل في بعض الأماكن، فبموجب الوثيقة رقم ٣٥٢ المؤرخة في ٢٠ رمضان ٧٦٥هـ/٢١ أيار ١٣٦٤م، اشترى أحمد

---

(1) Murray: Syria And Palestine 2 Vol5, London, 1858, Vol I, P. 136.

(٢) الوثيقة رقم ١٥. انظر، Little: A Catalogue, P. 277.

(٣) الوثيقة رقم ٤٣. انظر، Ibid, P. 281.

(4) Ibid: P. 278.

(5) Ibid: P. 293.

ابن إدريس بن السكندري المقيم في القدس داراً في خط باب السلسلة في سوق داوود من حسن بن علي بملبغ ٤٠٠ درهم[١]، وبموجب الوثيقة رقم ٣٥٤ المؤرخة في ١ شوال ٧٧١هـ/٢٨ نيسان ١٣٧٠م، باعت الحاجة طيبة بنت الحاج محمد المصرية للحاج المعروف بالصيعيري داراً مجاورة لطاحون الباسطي بمبلغ ٤٥٠ درهم[٢].

لقد كانت أسعار معظم المنازل تدور في هذا المجال، أما أسعار الآجار فقد تراوحت بين ثمانية دراهم فضة دفعها الحاج أحمد ثمن آجار دار عن شهر ربيع الثاني لعام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م[٣]، وبين ٩٧.٥ درهم فضة يدفعها الحاج أحمد بن يوسف كل شهر عن آجار دار في حارة المشارقة كان يملكها أحد أمراء المماليك وهو مقدم الطواشي الحاج ناصر بن عبد الله[٤]، وعلى ما يبدو من سعر الآجار ومكانة المالك أن المنزل كان راقياً.

ويدخل في نطاق الحديث عن المنازل الحديث عن السكن وتنوعه، فعلى ما يبدو من خلال الوثائق أنه بالإضافة إلى السكن النظامي (المنازل)؛ كان هناك سكن خاص بأصحاب المهن والحرفيين، فالوثيقة رقم ٥٢٦ المؤرخة في ٢٧ رشوال ٧٩٥هـ/٥ أيلول ١٣٩٣م، تشير إلى أن ناصر الدين محمد بن شرف الدمشقي كان يسكن في غرفة في سكن الخبازين[٥]، وجاء في الوثائق أن هناك حياً اسمه حي الحرفيين[٦]، ووجد حي اكتسب اسمه من حرفة أو مهنة ربما كانت هي الأكثر انتشاراً فيه وهو حي الحصرية[٧]، وكان قد سبق الحديث عن أن بعض سكان بيت المقدس كان يقطن في منشآت اجتماعية ودينية أوقفت

---

(1) Little: A Catalogue, P. 285.

(2) Ibid: p. 286.

(٣) الوثيقة رقم ١١٤، انظر، Ibid: p. 326.

(٤) الوثيقة رقم ٩٦، انظر، Ibid: p. 326.

(5) Ibid, P. 137

(٦) الوثيقة رقم ٥١٤، انظر، Ibid: p. p. 133-134.

(٧) مجير الدين: الأنس الجليل، ج٢، ص٥٣.

لهذه الغاية، مثل رباط الطواشي، ورباط علاء الدين البصير، وزاوية الشيخ ابراهيم، دار وقف العميان، دار وقف الدوادارية، ودار وقف المرحوم محمد ابن جوزية، ودار فاطمة المغربية... الخ[١].

[١] تقدم ذكر هذه المنازل الموقوفة وساكنيها والوثائق التي أشارت إلى ذلك. انظر الصفحة (٢٤٣-٢٤٤).

رابعاً: الأثاث والمفروشات:

يلفت النظر اهتمام المقادسة بفرش بيوتهم، فقد تنوعت فيها المفروشـــات، ومعظمها كان مستورداً، وهذا يعكس جانباً من جوانب رقي الحياة لديهم، فقـــد استخدم المقادسة في فرش بيوتهم مفروشات مســـتوردة مـــن أشـــهر مراكـــز الصناعة في ذلك العصر، ومن أهم ما كانت تفرش به البيوت البسط[1] (جمـــع بساط)، وقد كانت هذه على أنواع فمنها الرومية (بساط رومي)[2]، المســـتوردة من بلاد الروم أي تركيا حالياً، والبسط الخراســـانية (بســـاط خراســـاني)[3]، المستوردة من خراسان، والبسط الشوبكية (بسط شوبكيات)[4]، المستورد مـــن الشوبك في الأردن حالياً، بالإضافة إلى أنواع أخرى مثل بساط صراي[5].

وإلى جانب البسط استخدم المقادسة في فرش منازلهم (السجاجيد[6]، جمع سجادة[7])، وكانت هذه السجاجيد على أنواع أو ألوان فمنها ذات اللون الأبيض والأخضر والعسلي، والمزينة برسومات بيضاء أو المبطنة ببطانـــات مطـــرزة

---

(1) البسط: مفردها بساط وتدل على كل ما يبسط في الأرض. انظر، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج١، ص٨٩٠ (مادة بسط).

(2) انظر، الوثيقة ٥٩٥ المؤرخة عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م. العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص١٣٧.

(3) انظر، الوثيقة ٥٩٥ المؤرخة عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م. العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٣٧.

(4) انظر، الوثيقة ٥٩٥ المؤرخة عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٧.

(5) انظر، الوثيقة ٥٩٥ المؤرخة عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٧. ويرجح أن هذا مستورد من مدينة صراي التي تقع شمال غرب بحر قزوين على شط نهر الأتل من الجانب الشمالي الشرقي، فهي مدينة تجارية عظيمة. انظر، أبي الفداء: تقويم البلدان، ص٢١٦-٢١٧.

(6) انظر، الوثيقة ٦٣٥ المؤرخة عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م. انظر، العسلي، المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٣.

(7) السجادة: هي بساط صغير للصلاة أخذ هذا الاسم من السجود. انظر، مصطفى (ابراهيم) وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، استنبول، ١٩٨٩م، ج١،ص٤١٦، (مادة سجد) وحالياً أصبحت كلمة سجادة تطلق على البسط الصغيرة والكبيرة.

بأبيض، وجعلت لها رميات (شراشيب) زرقاء، ولا بد من الإشـــارة إلـــى أن السجاد الذي ورد ذكره في الوثائق كان معظمه مستورداً من اليمن وحوران[1].

واستخدم المقادسة أيضاً في فرش بيوتهم المقاعد والنطوع الجلدية[2]، أما المقاعد فقط كانت من الجوخ والقطن، وهي على ألوان، ففي الوثيقة رقم ١٠٠ المؤرخة عام ٧٤٩ هـــ / ١٣٩٢ م، كان المقعد المذكور فيها قطنـــي صـــغير رومي وآخر من الجوخ الأزرق، وفي الوثيقة رقم ١٢٦ المدونة في ٧٩٣ هـــ/ ١٣٩١ م، كان المقعد أبيض اللون ومن القطن وبه بطانة زرقـــاء[3]، وفـــي الوثيقة ٣٠١ لعام ٧٩٧ هـــ / ١٣٩٥ م كان المقعد أبيضاً[4]، وفي الوثيقة ٣٣١ لعام ٧٩٦ هـــ / ١٣٩٤ م، كان المقعد من الجوخ الأحمر بداير أزرق[5].

أما النطوع الجلدية التي استخدمها المقادسة فقد كانت تستورد من طرابلس ومكة واليمن[6]، واستخدم المقادسة أيضاً الحصر[7]، والطراريح[8] (الأرائـــك) واستخدموا اللبد[9]، وتم استخدام المخدات[10] والوسائد للنوم والراحة، وهنـــاك

---

[1] صالحية: من وثائق الحرم، ص٣٤، نقلاً عن الوثائق: ١٠٠، ١٢١، ١٢٤، ١٢٦. انظر، Little: A Catalogue, P. 69, 71, 72, 73.

[2] النطوع: مفردها نِّطع، بساط من الأديم (الجلد المدبوغ). انظر، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج٢، ص١٠٢٦، (مادة نطع).

[3] صالحية: المرجع المتقدم، ص٣٤.

- Ibid, P. 69-70, 73, 133.

[4] العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٧.

[5] العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص٦٠.

[6] النطع المكي: ورد في الوثيقة ٣٠١. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٨.

والنطع الطرابلسي ورد في الوثيقة ١٣٦. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٧.

والنطع اليمني: ورد في الوثيقة ٥٠٣، صالحية: المرجع المتقدم، ص١٠٥.

[7] انظر الوثيقة ٦٣٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٥.

– الوثيقة ٣٩٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٣.

[8] الطراحة: فراش مستطيل أو مربع يستخدم للجلوس عليه. انظر، الوثيقة ٦٣٥، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٣، والحاشية رقم ٧.

[9] الوثيقة رقم ٢٠٠. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٧٨، والحاشية رقم٢.

[10] الوثيقة رقم ٣٠١. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٧-٣٨.

أنواع من الوسائد تسمى الركنيات (جمع ركنية ويطلق عليها أيضاً قرنة)[1]، أي تلك التي توضع في أركان المجلس العربي لراحة الضيوف ولتزين مكان الجلوس، وهي أطول نوعاً من الوسائد المستخدمة للنوم، ولأنها توضع في غرف الاستقبال، فكان المقادسة يعتنون بتزيينها، فهناك ركنيات بيضاء اللون مطرزة بحرير أزرق وأخرى بيضاء مطرزة بحرير أحمر ولها حاشية زركش (أي داير مطرز)[2].

واستخدم المقادسة الأسرّة[3] والكراسي[4]، وكان يصنع للكراسي ثياب عرفت باسم ثياب الكراسي[5]، وزيادة في جمالية المنزل استخدموا الستائر الحريرية، وكان بعضها يستورد من الأهواز[6]، الواقعة في جنوب شرق العراق، وهذه المنطقة هي من أهم المراكز الصناعية ويستورد منها الحرير والخز والستور والبسط والقرش[7].

ولحفظ الملابس استخدم المقادسة الدواليب[8]، وهي بلغة العصر (خزانة)، وكان المقادسة قد استخدموا عدة أنواع من الدواليب، بعضها كان يصمم في أصل الجدار في حجرات المنازل فيعرف بدولاب الحجر[9]، وبعضها كان

---

(1) الوثيقة رقم ٣٠١. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٧. والحاشية رقم ١١.

(2) صالحية: من وثائق الحرم، ص٣٥، نقلاً عن الوثائق ٨٧، ١٢١، ١٨٩، ٢٥٧، ٥١٢. انظر،
Little: A Catalogue, P. 67, 71, 201, 93, 133.

(3) صالحية: المرجع المتقدم، ص٣٣، نقلاً عن الوثيقة ٨٧. انظر،
Ibid, P. 67.

(4) الوثيقة رقم ٦٣٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٤.

(5) الوثيقة رقم ٥٩٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٧.

(6) الوثيقة رقم ٥٩٥ والوثيقة رقم ٣٠١. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٧، ١٣٨.

(7) القزويني: آثار البلاد، ص١٧٠-١٧١.

(8) الدواليب: جمع دولاب، ودولاب الملابس هو المكان الذي توضع فيه الملابس، ور في اللسان باسم التخت، وعاء يُصان فيه الملابس، وهو لفظ فارسي، وهناك أيضاً دولاب الكتب، المكتبة. انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص١٨ (مادة تخت). الدسوقي: تهذيب ألفاظ العامية، ج١، ص٢٩٨.

(9) صالحية: المرجع المتقدم، ص٣٣. نقلاً عن الوثيقة رقم ١٠٠. انظر،
Ibid, P. 69.

يصنع من خشب فيسمى بدولاب خشب[١]، وآخر يسمى بدولاب حديـــد[٢]، أي أنه مصنوع من الحديد، بالإضافة إلى الصناديق الخشبية[٣]، التي تستخدم لحفظ حاجيات المنازل المتناثرة.

أما أغطية النوم فكانت الألحفة تستخدم بالدرجة الأولى، ومن أنواعهـــا و أشكالها التي وردت في الوثائق (لحاف حرير مشهر أحمر) (لحاف كتان أميال ببطانة بيضا)[٤]، (لحاف بوجه طرح قطن ببطانة زرقـــا بملحفـــة بيضـــا)[٥]، (لحاف بوجه جوخ أزرق عتيق ببطانية جوري)[٦].

وفي أيام الصيف وأثناء انتشار الحشرات استخدم المقادســـة عنـــد النـــوم الناموسية[٧]، لتفادي هذه الحشرات، وما زال أهل القرى يســـتخدمونها حتـــى اليوم.

أما عن وسائل الإنارة والإضاءة فقـــد اســـتخدم المقادســـة الشـــمعدان[٨] النحاسي[٩]، ومنارات خشب[١٠]، ومنارات نحاسية وقناديل كبيـــرة وصـــغيرة، مصفحة بالنحاس والقناديل الزجاجية في بيت خشبي[١١].

---

[١] صالحية: من وثائق الحرم، ص٣٣. نقلاً عن الوثائق رقم ٨٧، ٩٩، ١٢٦. انظر،
Little: A Catalogue, P. 67, 69, 73.

[٢] الوثيقة رقم ٦٣٥. العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٤.

[٣] الوثيقة رقم ٣٠١. العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص٣٨.

[٤] الوثيقة رقم ٣٠١. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٨.

[٥] الوثيقة رقم ٤٦١. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٤٤.

[٦] الوثيقة رقم ٣٩٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٣.

[٧] الوثيقة رقم ٥٩٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٧.
والناموسية هي الكلة أو الحجلة، وهي ستار قماشي رقيق يُخاط كالبيت، يتوقى فيه من البعوض. انظر، الدسوقي: تهذيب ألفاظ العامية، ج١، ص٣٢٠.

[٨] الشمعدان: منارة تزين ويركز عليها الشمع حين الاستضاءة. انظر، مصطفى: المعجم الوسيط، ج١، ص٤٩٤، (مادة شمع).

[٩] الوثيقة رقم ٥٩٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص١٣٧.

[١٠] الوثيقة رقم ٦٣٥. العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٣.

[١١] صالحية: المرجع المتقدم، ص٣٧. نقلاً عن الوثائق: ٨٩، ١٣٥، ٢١٨، ٥٠١، ١٢٤. انظر،
Ibid, P. 67, 76, 228, 314, 72.

وذكرت الوثائق العديد من الحاجات الصغيرة التي استخدمها المقادسة في منازلهم، مثل المكنسة والقفة والمطحنة، والمنخل والغربال والميزان والمطرقة والقرطلة[١]، وفاس حديد، والمبارد، وكلبات الحديد[٢]، وأذرعه الحديد ومقص، وكانون فخار، وعلب خشبية تخزن فيها الحاجات البيتية مثل الأمشاط والقداحات والنقود، والكحل والكبريت، والقطن، والبرغل، وأكياس بيضاء اللون يوضع فيها الدقيق والأرز، وصناديق من خشب لخزن الملابس، وكمشكول نحاسي أو من القاشاني أو الخشب، وكشتبان[٣] للخياطة ومسابح خشبية وخرزية[٤]، وعدة نول خشب[٥].

أما بالنسبة لأدوات المطبخ، فقد استخدم المقادسة في مطابخهم الأدوات النحاسية والفخارية، ولكن استخدام الأدوات النحاسية كما تبين من خلال الوثائق كان أكثر، فقد استخدم المقادسة الدست[٦] وهو نوع من القدور الكبيرة، وله مقاسات متعددة[٧]، وتم استخدام هاون[٨] النحاس، الذي ما زال يستخدم حتى اليوم، وطشت[٩] نحاس وقد وجد على مقاسات كبيرة وصغيرة ومتوسطة

---

(١) القرطلة: هي سلة من قضبان القصب.
- وعن هذه الأدوات انظر الوثيقة رقم ٦٣٥. العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٣-٣٥.

(٢) كلبات: جمع كلبتان، أداة يأخذ بها الحداد الحديد المحمى، وتستخدم أيضاً لخلع الأسنان ويقل لها حديدة ذات كلبتين. انظر، مصطفى: المعجم الوسيط، ج٢، ص٧٩٤ (مادة كلب). ويقال لها الكماشة.

(٣) كشتبان: قمع يغطي طرف إصبع الخياط ليقيه وخز الإبر. انظر، مصطفى: المرجع المتقدم، ج٢، ص٧٨٨ (مادة كشتبان).

(٤) صالحية: من وثائق الحرم، ص٣٧. نقلاً عن الوثائق: ١٠٠، ١٢٦، ١٣٣، ٥١٢، ٦٨١. انظر، Little: A Catalogue, P. 69, 73, 75, 133, 152.

(٥) الوثيقة رقم ٢٢٠. صالحية: المرجع المتقدم، ص٩٩.

(٦) الدست: إناء إسطواني الشكل. انظر، مصطفى: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٨٣، (مادة دست).

(٧) الوثيقتان ٦٣٥ و ٢٠٠. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٣، ٧٨.

(٨) الهاون: آلة من آلات الهرس. انظر، مصطفى: المرجع المتقدم، ج٢، ص٩٨١ (مادة هرس).

(٩) الطشت: إناء كبير مستدير من نحاس أو نحوه، يغسل فيه (معرب تشت). انظر، مصطفى: المرجع المتقدم، ج٢، ص٥٥٧ (مادة تشت).

وسطل نحاسي و زبدية نحاس، وصواني نحاس بمختلف القياسات، بالإضـــافة إلى الطاسة النحاسية والمقلى النحاسي، والمشبكة النحاسية[١].

أما الأواني الفخارية فقد استخدم المقادسة منها الـــ(سفل) وهو طشت مـــن الفخار ضيق من الأسفل واسع من الأعلى، ورد في الوثائق بمقاسات مختلفـــة، وتم استخدام أباريق وقدور الفخار[٢]، وأيضاً تم اســـتخدام الــــــ(ســـلطانية)[٣]، وكذلك تم استخدام الـــ(جرة) لوضع القمح[٤].

واستخدم المطبخ المقدسي: (البرنية[٥]، والملاعق والمغرفة وعكة الزيـــت (وهي إناء رقيق أصغر من القربة)، والزبادي، والمحلبة (وهي إناء للحليـــب)، والقادوس[٦]، والكراز[٧])[٨].

---

[١] الوثيقتان ٣٠١ و١٦٣. انظر، العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص٣٨. ج١، ص٢٦٧.

[٢] الوثيقة ٦٣٥. انظر، العسلي: المرجع نفسه، ج٢، ص٣٣-٣٤.

[٣] الوثيقة ١٦٣. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٧.

السلطانية: وعاء من الخزف ونحوه، يؤكل به. انظر، مصطفى: المعجم الوسيط، ج١، ص٤٤٣ (مادة سلط).

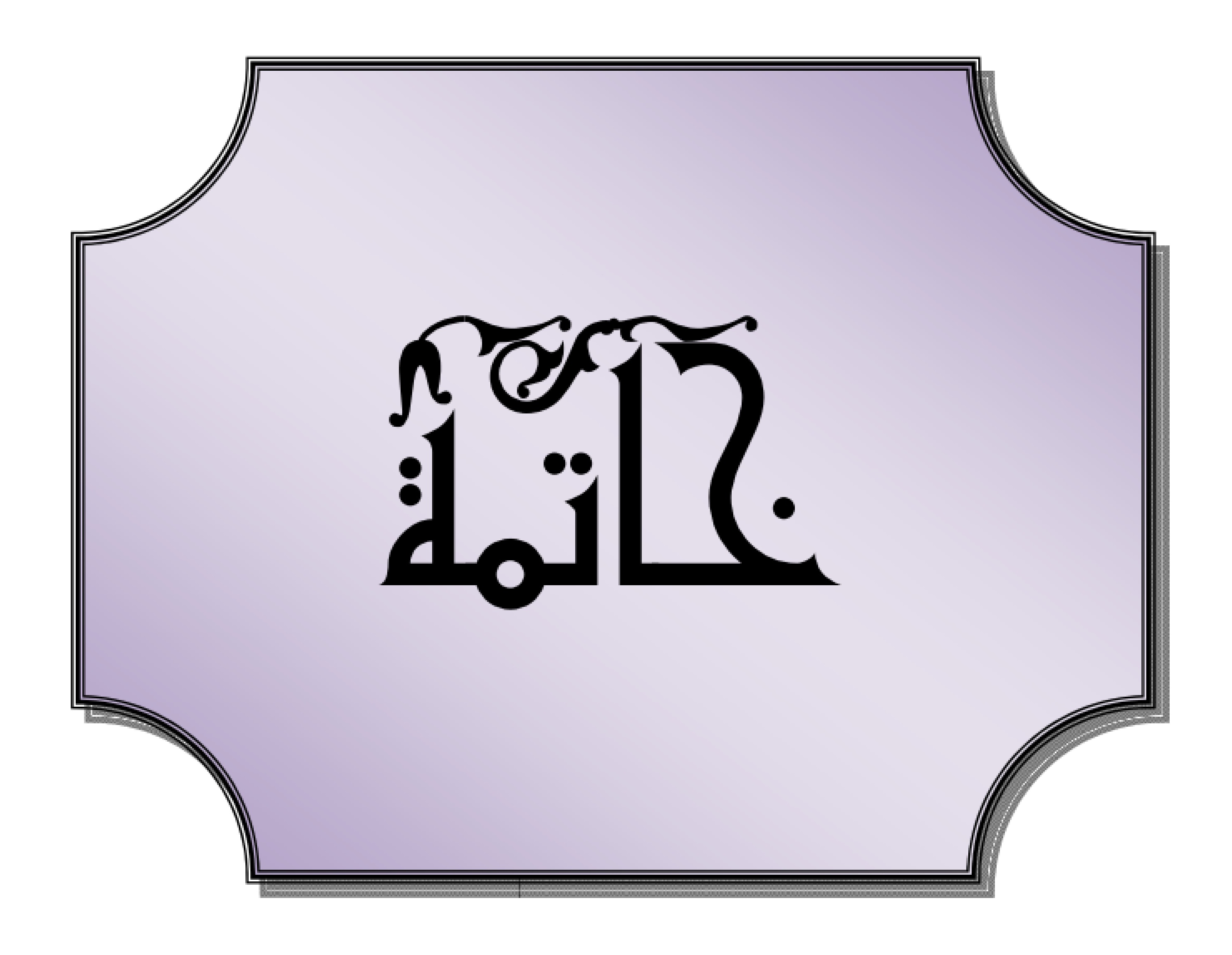
[٤] الوثيقة ٣٩٥. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج١، ص٢٦٣.

[٥] البرنية: واحدة البرني، إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين، انظر، مصطفى: المرجع المتقدم، ج١، ص٥٢ (مادة برني).

[٦] القادوس: وعاء خزفي كالجرة يوضع فيه الحب بعد الطحن، ويُستخدم في الطاحون كوعاء قمعي الشكل يُلقى فيه الحب فينزل منه حبات إلى الطاحون، ويُستخدم أيضاً في النواعير كإناء لغرف الماء. انظر، مصطفى: المرجع المتقدم، ج٤، ص٧١٩ (مادة قدس).

[٧] الكراز: أي القارورة. انظر، ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٤٠٠ (مادة كرز).

[٨] الوثيقة ٦٣٥. انظر، العسلي: المرجع المتقدم، ج٢، ص٣٤، وانظر. الحواشي.


خاتمة

الخاتمة

إن موضوع تاريخ القدس في عصر المماليك موضوع مهم جداً، فالحياة لم تستقر في هذه المدينة إلا في عصر المماليك، حيث تحولت إلى نيابة في ظل حكم المماليك، فقد حكم هؤلاء البلاد مدة قرنين ونصف تقريباً (٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، وصلت الدولة المملوكية خلالها إلى ذروة مجدها السياسي والاقتصادي، وانعكس هذا إيجاباً على المجتمع، الذي أخذت صورته تتكامل وتستقر، وإن لهذا التطور الإيجابي أسباب موضوعية كثيرة، منها:

أ. دحر الصليبيين وإخراجهم من بلاد الشام نهائياً.

ب. دحر جموع المغول الغازية.

ج. التطور والانتعاش الاقتصادي في الدولة المملوكية.

د. سعي حكام المماليك، الذين كانوا غرباء عن الشعب، إلى إظهار تمسكهم بالإسلام وتعزيز الرابطة الدينية بينهم وبين المحكومين ليحظى حكمهم بالقبول، وليجندوا الحمية الدينية في الدفاع عن البلاد.

وقد تقدم في هذه الرسالة دراسة عن المجتمع المقدسي في عصر المماليك، كما عاشها أهل القدس، ولم يكن للباحث في إبرازها إلا فضل العرض والتحليل والتركيب والتعليق، فإذا بدت هذه الحياة مظلمة أو مشرقة فإن الفضل يقع لها أو عليها، وقد طُرق في هذه الرسالة مواضيع لم تُطرق من قبل في أي مصدر أو مرجع أو دراسة، وتم التوصل من خلالها إلى نتائج قيمة عن المجتمع، ساهمت في زيادة إشراق تاريخ هذه المدينة في ظل الحكم الإسلامي لها، وتم من خلالها إيضاح بعض النقاط التي كان يعتريها الغموض.

فموضوع أصول السكان هو موضوع جديد من نوعه، لم تأت أي من المصادر والمراجع على ذكره، وكل ما كان يُعرف عن ذلك هو أن القدس تم إسكانها من جديد في عهد صلاح الدين وخلفاءه، ولكن ممن تألفت هذه العناصر

الجديدة ؟ فهذا ما أغفلته المصادر، ولحسن الحظ حفلت وثائق الحرم بذكر الأصول السكانية وإيضاح هذا الغموض، إذ وقف الباحث على أهم العناصر السكانية التي تألف منها المجتمع، وتبين أنه سيطر على الأصول السكانية صفة التعددية في الأصول العرقية والجغرافية، وتم إيضاح السبب في ذلك، وكذلك وضحت الوثائق بأن المجتمع تألف من فئات دينية متعددة (مسلمون ومسيحيون ويهود)، وعلى الرغم من تعدد الأصول السكانية والفئات الاجتماعية، إلا أن القدس سادها جو من الاستقرار والهدوء، فلم يحصل تقوقع في العلاقات بين هذه العناصر والفئات، على العكس فقد عمل المجتمع سوياً وبشكل متجانس، وحصل كل ذي حق على حقه، فمعظم الوثائق كانت تحمل قصصاً مرفوعة إلى الجهات المسؤولة، كان يردّ عليها ليحصل كل ذي حق على حقه، وقد تقدم في البحث أمثلة عديدة عن هذه الحالات.

ومن النتائج التي تم التوصل إليها: انتشار تجارة الرقيق في القدس آنذاك، فمعظم الدراسات عن عصر المماليك تهتم بالرقيق العسكري الذي شكل الطبقة الحاكمة، وقد أفاضت الأبحاث في هذا المجال، إلا أنها أهملت الرقيق المنزلي، ودوره في المجتمع، ولحسن الحظ قدمت الوثائق معلومات جيدة عن الرقيق المنزلي، وتم التوصل من خلالها إلى نتائج عديدة، فقد انتشر في مجتمع القدس آنذاك تجارة الرقيق، وهذا مخالف للشريعة الإسلامية التي حصرت الرق فيمن يتم أسره في معارك وحروب مشروعة (والمشروعة هنا تعني الحرب مع من تم تبليغه الرسالة ودعوته للإسلام قبل المعركة فرفض)، لنجد أن تجارة الرقيق الإفريقي "العبيد السود" كانت رائجة آنذاك، وكان يستخدم في الخدمة المنزلية، إلا أنه كان لهم وضع قانوني محفوظ، وكان بإمكانهم رفع شكاواهم إلى المحاكم والتي تفصل بينهم، بالإضافة إلى أن الكثير منهم يتم عتقهم، وتمت ملاحظة ذلك بشكل واضح في الوثائق.

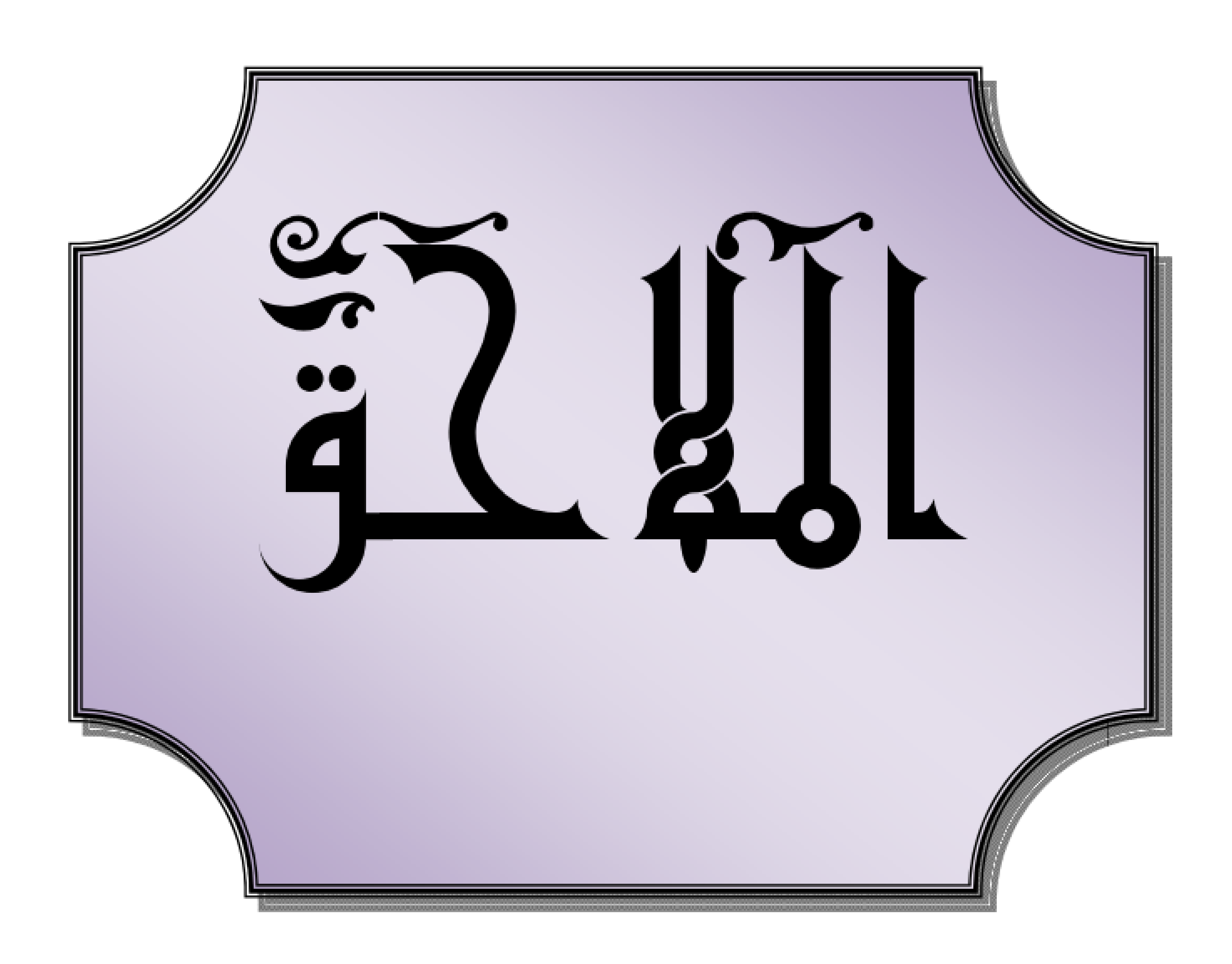
ومن النتائج التي تم التوصل إليها أيضاً، أنَّ المرأة المقدسية مارست حياتها بشكل طبيعي، وكما شرع لها الإسلام ، فلم تُنْتَهَكْ حقوقُها، وكان وضعها الاجتماعي والقانوني، والاقتصادي محفوظ، ومارسته بكل حرية، وهذا يشكل صفحة ناصعة في تاريخنا، ويشكل رداً قاصماً على كل من يتهم هذه الأمة بالجهل، وهضم حقوق المرأة، منادياً بتحرير المرأة، لغاية لا يعلمها إلا الله والعالمون.

وتم التوصل إلى أن المؤسسات الاجتماعية نشطت بشكل كبير، وذلك بسبب نشاط المجتمع، وأصبحت ركنا أساسياً في حياة الناس، إذ قدمت خدمات كان معظم العالم آنذاك – الواقع خارج العالم الإسلامي- يفتقر لها ويجهلها، فكثرت الحمامات، وكثر المترددون عليها، ولا يخفى على أحد أهمية هذه الحمامات في الحياة اليومية، فقد كانت ملتقى للحياة الاجتماعية الرجلية والنسوية، وكان الحمام بالإضافة إلى أهميته في مجال النظافة مقراً لتبادل الأخبار والأحاديث والقصص والفكاهات والنوادر، وبفضل انتشار الأسبلة توفرت المياه في بلد يعاني من قلة المياه وشحها، وكان للناحية الصحية والطبية بالغ الاعتناء، وقد تمثل هذا في البيمارستان الصلاحي.

وفوق هذا انتشرت الأوقاف في المجتمع آنذاك، ولا يخفى على أحد ما للأوقاف من أهمية في قضاء حاجات المجتمع، فكانت مظهراً براقاً في الحضارة الإسلامية، وتبين أنها قدمت خدمات وتسهيلات يصعب على معظم أفراد المجتمع التخلي أو الاستغناء عنها، فبالإضافة إلى الخدمات الاجتماعية التي تمثلت في مساعدة الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل والمرضى في توفير الطعام والدواء والكساء والمأوى... الخ، اهتمت بالناحية العلمية والثقافية، وكثرت الأوقاف المرصودة على المدارس والمسجد الأقصى – الذي كان آنذاك أشبه ما يكون بالجامعة- واهتمت بالناحية الدينية، إذ تم رصد الأوقاف على المساجد والزوايا والخوانق والربط.

ومن مظاهر الاستقرار والرفاهية ما تم ملاحظته في اهتمام المقادسة بعمرانهم وأسواقهم، وخاناتهم، ومنازلهم، حيث نظمت الأسواق والحارات والشوارع في القدس، واستخدم المقادسة في مطابخهم أواني وأثاثاً لا تزال تُستخدم حتى اليوم.

إن دراسة المجتمع في منطقة ما، يعكس من خلال استقراره أو تخبطه مدى اهتمام حكومته به، والحق يقال في أن المماليك اهتموا بهذه المدينة وبمجتمعها بشكل واضح جداً، ويمكن لأي قارئ التأكد من هذا، وذلك بالاطلاع على أوضاع المجتمع المقدسي أيام الحكم الصليبي لها، وأيام الحكم الأيوبي والمملوكي، ومن ثمّ المقارنة ليتضح له مدى الفرق بين الحكومات الثلاث، وإن ما يراه الإنسان في حوادث القدس اليومية حالياً ما يؤكد هذا أيضا، وينبغي على كل مسيحي ويهودي ينصفون أنفسهم، أن ينادوا بتحرير القدس وأن يطالبوا بحكم العرب والمسلمين لهذه المدينة، فقد أثبت التاريخ أن المسلمين لم ينكروا على اليهود ما أنكره عليهم المسيحيون أيام الحكم الصليبي للمدينة، ولم ينكر المسلمون على المسيحيين ما أنكره عليهم اليهود أيام السيد المسيح عليه السلام، وما ينكروه عليهم اليوم، بل سيأخذ كل ذي حق حقه، وإن ما تمخضت عنه هذه الدراسة من نتائج، يُثبت كذب كل من يتهم هذه الأمة بالتعصب والجهل والظلم، ويثبت زيف الادعاءات الصهيونية وشعاراتها عن العدل والمساواة والاستقرار، التي لا يُرى منها إلا الظلم والقتل والتهجير، ويُثبت أن المسلمين والعرب هم أصحاب الحق في سيادة هذا العالم، وما أثبته التاريخ هو أنه متى ما أراد الله لهذه الأرض أن تُحكم بالعدل والمساواة، فإنه سيقدر للعرب وللمسلمين حكم هذا العالم وسيادته.

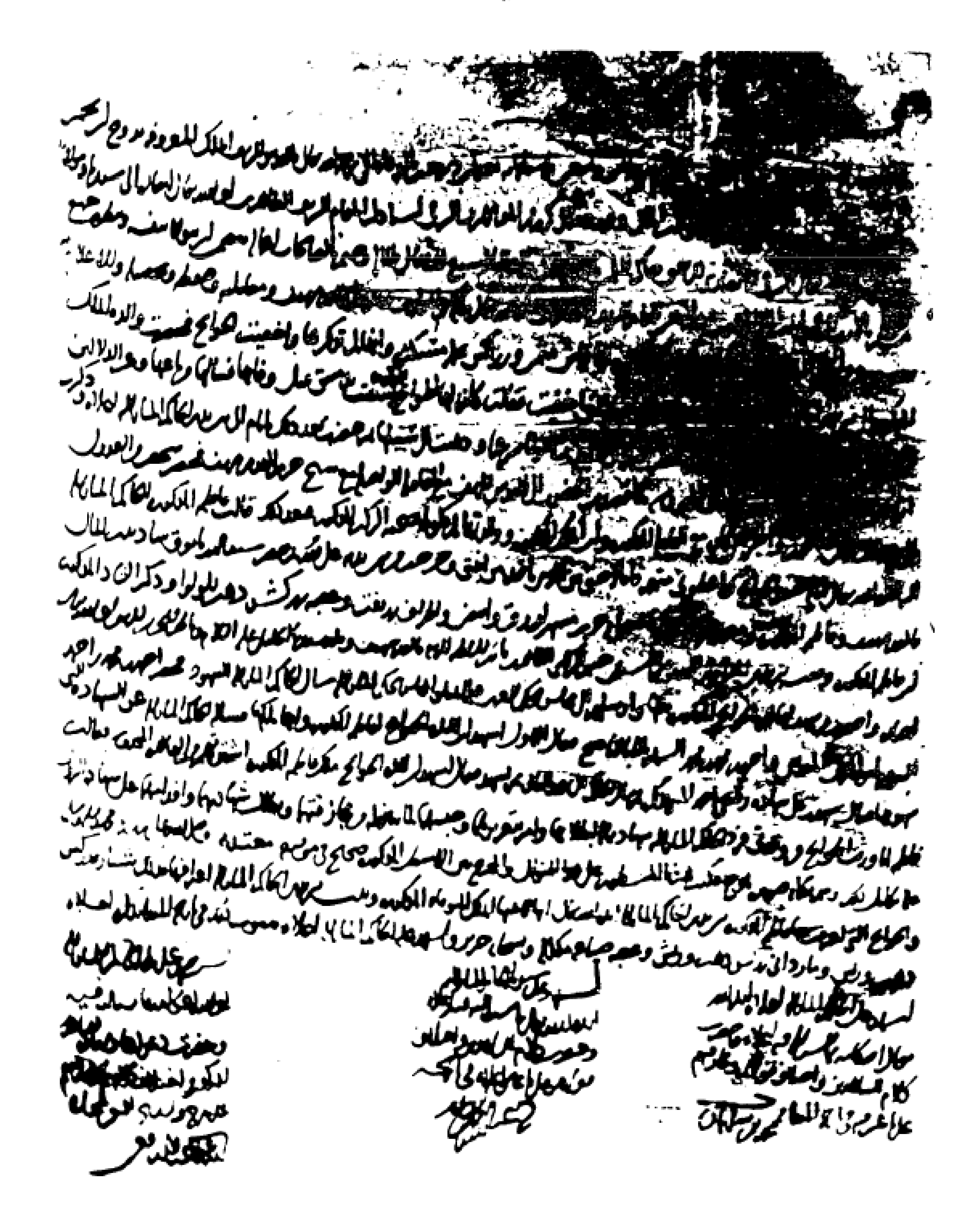

الملاحق

الملحق رقم (١)

الوثيقة رقم (٦٤٥)

موضوع الوثيقة: محضر

تاريخها: ١٦ ذي القعدة ٧٩٣هـ



الملحق رقم (٢)

الوثيقة رقم (١٨٦)

موضوع الوثيقة: إقرار بدين

تاريخها: ١٢ ربيع الآخر ٧٨٩هـ

الملحق رقم (٣)

الوثيقة رقم (٤٥٨)

موضوع الوثيقة: إقرار بقبض

تاريخها: ١٨ ربيع الأول ٨٧٣هـ

الملحق رقم (٤)

الوثيقة رقم (٣٦٧)

موضوع الوثيقة: عقد بيع

تاريخها: ١٦ رمضان ٧٤٣هـ

الملحق رقم (٥)

الوثيقة رقم (٤٦٠)

موضوع الوثيقة: حصر إرث

تاريخها: ١٢ شوال ٧٩٣هـ

الملحق رقم (٦)

الوثيقة رقم (٦٥٣)

موضوع الوثيقة: دعوى

تاريخها: ١٥ ذي الحجة ٧٩٥هـ



الملحق رقم (٧)

الوثيقة رقم (٢٢٠)

موضوع الوثيقة: حصر إرث وإقرار بدين

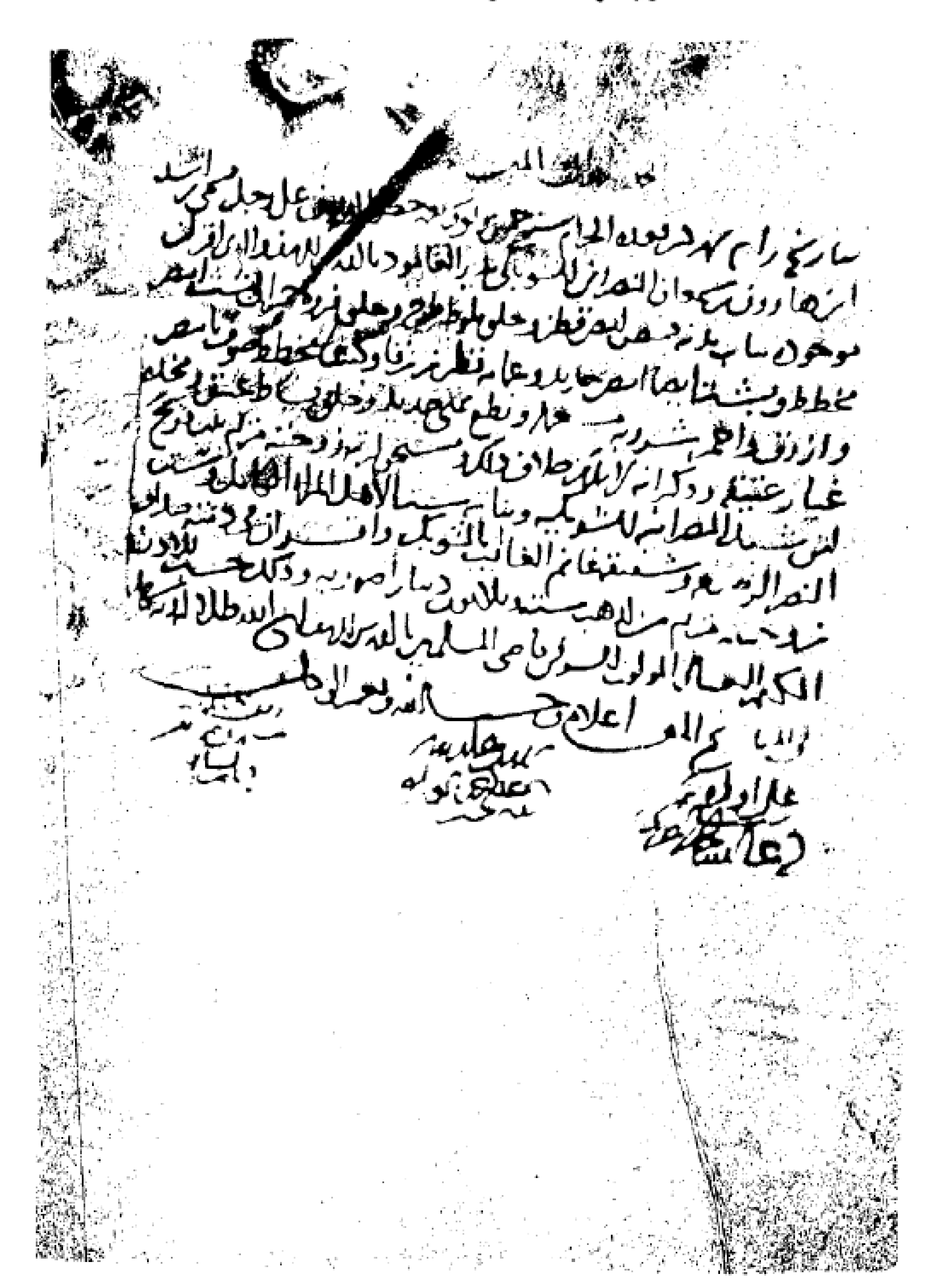
تاريخها: ١٨ شعبان ٧٤٥هـ

الملحق رقم (٨)

الوثيقة رقم (٥٠٣)

موضوع الوثيقة: حصر إرث

تاريخها: ٤ ذو القعدة ٧٩٥هـ



الملحق رقم (٩)

الوثيقة رقم (٦٩٥)

موضوع الوثيقة: حصر إرث

تاريخها: ١٧ شعبان ٧٠٥هـ

الملحق رقم (١٠)

الوثيقة رقم (٦٣٦)

موضوع الوثيقة: إشهاد

تاريخها: ٢٦ جمادى الأولى ٧٩٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

حضر الى شهوده [illegible] وبعد من [illegible] موسى بن [illegible]

ابن سليمان وداود بن اسماعيل [illegible] بمدينة القدس الشريف واشهدوا

على انفسهم في صحة منهم وسلامة وجواز امر من غير اكراه ولا اجبار انهم اقسموا

بالله تعالى [illegible] السلطان خلد الله ملكه [illegible]

انهم من يوم تاريخه وما بعده ان [illegible] الى انفسهم [illegible]

عن [illegible] وغير ذلك على حكم ما افتى به علما

الاسلام وايمة الاعلام اعاد الله تعالى على المسلمين من بركاتهم وذلك لما راوه

من المصلحة لانفسهم وللمسلمين [illegible] العباد بالله تعالى اعتقدوا ولخلاف

ذلك كانوا تحت الدرك والمقت [illegible] السلطان خلد الله تعالى

ملكه [illegible] كانوا تحت عفو الله تعالى وعفو ولاة الامور وكان

عندهم [illegible] الشرعي عشرة الالف درهم لعمارة قناة [illegible]

[illegible] الى الحرم الشريف [illegible] عليهم في سادس عشرين شهر

جمادى الاولى من شهور سنة [illegible]

[illegible]

الملحق رقم (١١)

الوثيقة رقم (٢٨٧)

موضوع الوثيقة: إقرار بقبض

تاريخها: ١٢ صفر ٧٨٧هـ

الملحق رقم (١٢)

الوثيقة رقم (١٠ "أ")

موضوع الوثيقة: قصة

تاريخها: لم يظهر التاريخ على الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الملحق رقم (١٣)

الوثيقة رقم (١٠ "ب")

موضوع الوثيقة: أمر من القاضي

تاريخها: ١٠ بقين من صفر ٧٧٠هـ

الملحق رقم (١٤)

الوثيقة رقم (٢٣٢)

موضوع الوثيقة: قصة

تاريخها: لم يظهر التاريخ على الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوك

يعقوب

يقبل الارض وينهي ان المملوك رجل فقير وذا

عايلة كثيرة وبقا عن بيت وحوانيت [illegible] بقا [illegible]

الى الجا الا الذي [illegible] والمملوك داعي شاكر [illegible]

مولانا القاضي [illegible] الدين [illegible] والمملوك [illegible] داعي

لسيدي انا الليل والنهار [illegible] المنعم اي [illegible] الله

الابنتي [illegible] من العيال الذي [illegible]

والمملوك [illegible] ان يكون الليل والنهار في حرمة سيدي

الا [illegible] المنعم [illegible]

[illegible] ولم يكن معي شي لرهنه ولا ابيعه [illegible]

[illegible] الله العظيم وقد صدق [illegible]

في هذه [illegible] شي مستعين [illegible]

[illegible] كانت ويكون في [illegible]

[illegible]

وداعي [illegible] والحمد لله وحده

الملحق رقم (١٥)

الوثيقة رقم (٦٤٩)

موضوع الوثيقة: دعوى

تاريخها: ١١ ذي القعدة ٧٩٣هـ

الملحق رقم (١٦)

الوثيقة رقم (٦٣٥)

موضوع الوثيقة: حصر إرث

تاريخها: ١٨ محرّم ٧٩٣هـ

الملحق رقم (١٧)

الوثيقة رقم (٣٠١)

موضوع الوثيقة: حصر إرث

تاريخها: ١٤ محرّم ٧٩٧هـ

الملحق رقم (١٨)

الوثيقة رقم (٣١١)

موضوع الوثيقة: شهادة

تاريخها: ٢٥ صفر ٧٤٥هـ

٣١١ 311

الحمد لله على كل حال

بسم الله الرحمن الرحيم

شهود هذا الواضعون خطوطهم آخره من أهل المعرفة بما يشهدون به يعرفون قرية مجدل فضيل
من عمل مدينة الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام الكائنة في الوقف المبرور الشريف بحكم [illegible] تعالى [illegible]
ولسكن الفردوس من جنته على فتاه السبيل بمدينة الخليل عليه السلام وكان مرضى للسائلين الفقراء والمسافرين
وعلى مصالح ريع الواقف رحمه الله تعالى معرفة شرعية نافية للجهالة ويشهدون مع ذلك بأن من حوالي النصارى
المقيمين بالقرية المذكورة القائمين بفلاحتها من [illegible] التصرف في ترتيب الضوء السرج والمسجد الأقصى شرفه الله تعالى
من مدة سنين متقدمة على التاريخ على ما يحقه [illegible] على عشر سنين من تاريخه ولم يزل حوالي النصارى الفلاحين
بالقرية المقيمين بها [illegible] لمستقبل كل سنة في ترتيب الضوء الشريف والمسجد الأقصى شرفه الله تعالى يعلم ذلك شهود
ذلك ويشهدون به مسئولين رغبة في نقل الحقوق [illegible] ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثوابه بتاريخ
الخامس والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل

الملحق رقم (١٩)

الوثيقة رقم (٢)

موضوع الوثيقة: مرسوم أميري

تاريخها: سلخ ربيع الأول ٧٨٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الظاهر

المرسوم الكريم العالي المولوي الاميري الكبيري الاميري علاء الدين
اقبغا [illegible] الحاجب بغزة المحروسة كان الله له اعز الله انصاره
ان يستقر الشيخ العالم العامل الفاضل الشيخ برهان الدين
ابراهيم الناصري [illegible] على قراءة الميعاد
بالجامع [illegible] يوم الجمعة من وقت التذكير الى وقت اذان
الظهر ويوم الاحد بعد صلاة الصبح وليلة الجمعة بعد
صلاة المغرب وله القراءة من التفاسير والاحاديث
وكلام المشايخ بالحكايات والمواعظ وله في ذلك معلوم في كل
شهر [illegible]
[illegible]
لما كان اهلا ما لوظيفة المذكورة وعليه المباشرة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] سنة [illegible]
النبوية والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
وحسبنا الله ونعم الوكيل

الملحق رقم (٢٠)

الوثيقة رقم (٣٢)

موضوع الوثيقة: محضر قضائي

تاريخها: العشر الأخير من صفر ٧٩٧هـ

[illegible]

٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بتاريخ تاسع عشر شهر المحرم الحرام من شهور سنة سبع وتسعين وسبعمائة حضر بمجلس الحكم العزيز الشرفي [illegible]

ايده الله تعالى وادام ايامه [illegible] لطواشي [illegible] عنبر ومبارك ومباركه وانشراح وادعوا [illegible] العبد [illegible]

الى الله تعالى محب الدين احمد المرحوم العبد الفقير الى الله تعالى قاضي القضاة [illegible] تغمدهما الله [illegible]

موته فاجابهم [illegible] لجواب الدعوى شرعا بان محب الدين المذكور توفي الى رحمة الله تعالى بعد بلوغه وقبل رشده [illegible]

فعند ذلك تامل سيدنا الحاكم المشار اليه ذلك وتدبره وروى فيه فكره وخاطره واتضح له وتبين بين يديه

بقا الحجر عليه وعدم جواز تصرفه الى حين وفاته وقامت البينة عنده ببلوغه خاصة فعند ذلك سال سائل شرعي

الاشهاد عليه بما ثبت عنده والحكم ببقا الحجر عليه وعدم جواز تصرفه فيما لا يصح منه الى حين وفاته [illegible] مذهب

الشريف فاستخار الله تعالى كثيرا واتخذه هاديا ونصيرا واشهد على نفسه الكريمة بثبوت ذلك عنده وبقا الحجر الشرعي

الشريف عليه وعدم جواز تصرفه فيما لا يصح منه ولا يسوغ بمذهب الامام الشافعي رضي الله عنه الى حين وفاته وحكم ايده الله تعالى

بذلك حكما صحيحا شرعيا مستوفيا شرائط الصحة في ذلك ثم سال سائل شرعي له السوال شرعا الحكم ببطلان [illegible]

الصادر منه في ذلك فحكم ايده الله تعالى ببطلان ذلك حكما صحيحا شرعيا مستوفيا شرائطه الشرعية وواجباته المرعية

فلما تكامل ذلك عنده نودي على [illegible] المذكورين في الاسواق [illegible] احد المذكورين [illegible]

المحروسة اذ ذاك فلما انتهت [illegible] بينهم وصاروا الى [illegible] ذلك بطريقه الشرعي [illegible]

الحاكم المشار اليه بما [illegible] في ذلك شرعا [illegible] سيدنا ومولانا قاضي القضاة بدر الدين [illegible] الشافعي

بالديار المصرية والممالك الشامية والحلبية امتع الله الوجود بوجوده فلما كان ذلك كذلك نظم هذا المسطور [illegible]

ورفع ووضع الشهود بذلك [illegible] في تواريخ متعددة اخرها العشر الثاني من شهر صفر [illegible] سنة سبع وتسعين وسبعمائة

حضر [illegible]

حضر [illegible]

حضر [illegible]

حضر [illegible]

الملحق رقم (٢١)

الوثيقة رقم (٨٣٣)

موضوع الوثيقة: حجة وقف

تاريخها: ٢٥ ربيع الأول ٧٤٧هـ

الملحق رقم (٢٢)

نص وثيقة وقف حي المغاربة بالقدس الصادرة من قبل الملك الأفضل

شرط وقف محلة المغاربة قيد بإذن مولانا... شجاع الدين أفندي قاضي القدس الشريف.. وهذا الكتاب متصل الثبوت والتنفيذ بحكم الشريعة إلى يومنا هذا. وقيد في اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وأربع.

بسم الله الرحمن الرحيم. يشهد من أثبت اسمه وشهادته آخر هذا المحضر. وهم يومئذ من الشهود الأمناء الأحرار العقلاء المسلمين الذكور الأخيار من أهل علم وخبرة بما يشهدون به شهادة عرفوا صحتها وتحققوا معرفتها... لا يشكُّون فيها ولا يرتابون.. ويلقون الله بأدائها أنهم يعرفون جميع الحارة المعروفة المسماة بحارة المغاربة الكائنة بمدينة القدس الشريف... الحد الأول وهو القبلي ينتهي على سور مدينة القدس الشريف والى الطريق المسلوكة إلى عين سلوان، والحد الثاني وهو الشرقي ينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الثالث وهو الشمالي ينتهي إلى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الرابع وهو الغربي ينتهي إلى دار الإمام... شمس الدين قاضي القدس الشريف، ثم إلى دار الأمير عماد الدين موسكي، ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز.

ويشهد شهوده أن هذه الحارة المعينة، أوقفها السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، رحمهما الله تعالى، على جميع طائفة المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم، كبيرهم وصغيرهم، فاضلهم ومفضولهم، ليسكنوا فيها من ترتيب ذلك وتفضيل من يفضله وتقديم من يقدمه، بحيث لا يتخذ شيء من المساكن ملكاً ولا احتجازاً ولا بيعاً، وقفاً مؤبداً شرعياً، ماضياً جارياً على هذه الطائفة المغاربة...

ويشهد شهوده أن النظر في ذلك، وفي كل جزء منه، وفي ترتيب أحواله ووظائفه وأموره راجع إلى من يكون شيخاً قدوة من المغاربة المقيمين في كل عصر وأوان بالقدس الشريف، يتولى ذلك بنفسه وله أن يولي من اختار وآثر، ويستنيب عنه من يقوم مقامه، وله عزله إذا أراد...

ويشهدون به وبذلك كتبوا شهادتهم في اليوم الرابع والعشرين من شهر الله رجب الفرد سنة ست وستين وستمائة...

الملحق رقم (٢٣)

نص وثيقة وقف أبي مدين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله

وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد فهذا كتاب وقف صحيح شرعي، وحبس صريح مرعي، اكتتبه الفقير إلى الله سبحانه، الراجي عفوه وغفرانه، الشيخ الإمام العالم الفاضل الورع الزاهد الخاشع السالف العارف القدوة أبو مدين شعيب بن سيدنا الشيخ الصالح العالم العامل المجاهد أبي عبد الله محمد بن الشيخ الإمام بركة المسلمين حجة الله بقية السلف الصالحين أبي مدين شعيب المغربي العثماني المالكي نفع الله ببركته وفسح بمدته، وأشهد على نفسه الزكية وهو في صحته أنه وقف وحبس وسبل وأبد وتصدق وحرم وحرر وأكد جميع المكانين الآتي ذكرهما ووصفهما وتحديدهما فيه الجاريين في يد الواقف المذكور وملكه وتصرفه وحيازته إلى حين هذا الوقف، يشهد بذلك من يُعينه في رسم شهادته بآخر هذا الكتاب المبارك، واحد المكانين المذكورين وهو قرية تعرف بقرية عين كارم من قرى مدينة القدس الشريف وتشتمل على أراضي معتمل ومعطل وعامر وداثر وأوعار وسهل وصخور ساد الأتراب عليها ولا ينتفع بها بزرع وتشتمل على آثار دور برسم سكنى فلاحيها وبنيان بأراضيها وبستان صغير وأشجار رمان وغير ذلك يستقي من عين مائها، وأشجار زيتون رومي وخروب وتين وبلوط وقيقب، ولها حدود أربعة تجمعها وتحصرها وتحيط بها: الحد القبلي منها ينتهي إلى المالحة الكبرى، والحد الشمالي ينتهي إلى بعض أراضي عين كاووت وقلونية وحاراش وصاطاف وزاوية البختياري، والحد الغربي ينتهي إلى عين الشقاق، والحد الشرقي ينتهي إلى بعض أراضي المالحة الكبرى وبيت موميل، بجميع حقوقها ومرافقها ومزرعها ومفلحها واندرها ودمنها والعين الموجودة بها والنزازات والأشجار الثابتة بها والآبار الخربة وقرامي العنب والعتيقة

الرومية وما ينسب للقرية المذكورة وبكل حق هو من حقوقها داخلة فيها وخارجاً عنها منسوب إليها خلا ما في ذلك من مسجد الله تعالى وطريق المسلمين ومقبرة لهم فإن ذلك خارج عن هذا الوقف وغير داخل فيه، وأما المكان الثاني الموقوف فيه فإنه بالقدس الشريف بخط يعرف بقنطرة أم البنات، باب السلسلة، المشتمل على إيوان وبيتين وساحة ومرتفق خاص، وسفلى ذلك مخزن وقبو، ولذلك حدود أربعة معلومة، وقفاً صحيحاً شرعياً قاطعاً ماضياً صريحاً مرعياً وحبساً دائماً سرمداً وصدقة جارية ومعروفاً مؤكداً وسبيلاً خالصاً لأهله مؤبداً والمستحقين على الدوام وقفاً عليهم ولهم مرصداً محرماً بحرمات الله العظيم ابتغاء لوجه الكريم وطلباً لثوابه العميم يوم يجزى الله المتصدقين، لا يباع ذلك ولا شيء منه ولا من حقوقه ولا من حدوده ولا يملك ولا يناقد ولا يحل عقد من عقوده، ولا يرجع هذا الوقف لغير أهله ولا يعوض على غيرهم ولا يتبدل محفوظاً على شروطه المبينة لا يبطله تقادم دهر ولا يوهنه اختلاف عصر، كلما مر عليه زمان أكده وكلما أتى عليه أوان بينه وسدده أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أنشاء الواقف المذكور أعظم الله له الأجور وقفه هذا على السادات المغاربة المقيمين بالقدس الشريف والقادمين إليها من السادات المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم ذكورهم وإناثهم كبيرهم وصغيرهم فاضلهم ومفضولهم ولا ينازعهم فيه منازع ولا يشاركهم فيه مشارك ينتفعون بذلك السكن والإيجار وسائر الانتفاعات والمقاسمة والمزارعة على الضيع المذكورة، ويقدم في ذلك الواردين على المقيمين والأحوج فالأحوج والأدين فالأدين، فإذا انقرضت المغاربة ولم يوجد منهم أحد مقيماً بالقدس الشريف سواء كان ذكراً أو أنثى فيرجع وقفاً على من يوجد من المغاربة في مكة المشرفة زادها الله شرفاً وعلى من يوجد منهم بالمدينة المنورة، فإذا لم يوجد أحد بالحرمين الشريفين فيرجع وقفاً على

الحرمين الشريفين وشرط الواقف النظر والتولية بالقدس الشريف ويشهد له بالرشد والتقوى، وقد أعد المكان الثاني المندرج في هذا الكتاب زاوية سكنا للواردين الذكور من المغاربة وليس للإناث المغاربة الواردات ولا لذكور المغاربة المقيمين ولا لآبائهم السكن في المكان المذكور، وعلى كل من يتولى هذا الوقف أن يبدأ بعمارته وإصلاحه وترميمه وما فيه بقاء عينه ومزيد فعله وريعه وعلى ألا تواجر القرية مع أماكن استغلالها والمقاسمة عليها أكثر من سنتين ولا يستأنف عقد حتى ينقضي العقد الأول، وقد شرط الواقف أن بعد الفايض من التعميرات أن يعمل المتولي في الثلاثة أشهر وهم رجب وشعبان ورمضان خبزاً ويفرقه في الزاوية على المغاربة لكل قادم من المغرب ومقيم من المغاربة بالقدس الشريف جوازى؟ رغيفان ذكوراً وإناثاً عند تفريق الخبز بعد صلاة العصر يقرأ الحاضرون سبع فواتح والإخلاص والمعوذتين ثلاثا ويهدي ثواب ذلك إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه وأتباعه ولروح الواقف ولجميع ما ينسب بالخير في هذا الوقف وشرط الواقف إطعامه في عيد الفطر وفي عيد الأضحية وفي المولد الشريف لفقراء المغاربة وشرط الواقف أن يدفع المتولي لكل قادم من الغرب محتاجاً ومقيماً بالزاوية ثمن الكسوة تقيه من البرد وإذا مات مغربي ولم يكن عنده شيء فيصرف تجهيزه وتكفينه من غلة الوقف، فقد تم هذا الوقف المبارك بتمام شروطه وأركانه وفق قواعده وصحة بنيانه ونفذ حكمه وانبرام لوقوعه من أهله في محله على الوجه المرضي لجوازه وحله ولخلوه عما يؤدي إلى نقضه وحده لكونه صار وقفاً مؤكداً وحبساً دائماً محرراً مسدداً لا يملك ولا يتصدق به ولا يوهب ولا يرهن ولا يناقد به ولا يتعوض عنه ولا يسلب ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الأخر ويعلم أنه إلى ربه العظيم صاير: من أمير أو مأمور ذي سلطان جاير، أن يبطل هذا الوقف لا شيء منه ولا بغيره، ولا ينسى منه ولا يقدح فيه، ولا في شيء منه ولا يسعى في إبطاله، ولا في إبطال شيء منه جاهر

ولا بإيما؟ ولا بفتوى، ولا بمشورة ولا بتدقيق حيلة يعلمه بها الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فمن فعل ذلك وأعان عليه فالله تعالى طليبه وحسيبه ومؤاخذه بعمله ومجازيه بفعله ويلق الله وهو غضبان عليه غير راضي عنه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1]، ومن خالف ذلك فقد عدل عن أمر ربه وتمرد عليه واستبان وعيده واستحق لعنته ولعنةُ الله ولعنةُ اللاعنين والملائكة والناس أجمعين فالويل ثم الويل لمن خالفه وتعداه لقوله تعالى ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، وقد وقع أجر هذا الوقف على الله رب العالمين الذي لا يضيع أجر المحسنين وأشهد عليه أحسن الله إليه وأجرى الخيرات على يده بجميع ما نسب إليه في هذا الكتاب بعد أن قرئ عليه من أوله إلى آخره وتلفظ بوقف ما عين وقفه فيه على الحكم المشروح فيه في الحال والحال ولشرط الشروط والنظر كما عاينه وبين بأعاليه وذلك في اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة عشرين وسبعمائة أحسن الله تنظيمها في خير وعافية والحمد لله رب العالمين وصلى الله عليه سيدنا محمد وآله وصحبه وعترته الطيبين الطاهرين.

قاضي القدس الشرعي

---

[1] الآية ٣٠ من سورة آل عمران.

[2] الآية ١٨١ من سورة البقرة.

الملحق رقم (٢٤)

نص وثيقة وقف المصمودي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنان والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد ولد عدنان وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً وبعد. فقد أشهد على نفسه الشيخ الصالح الناسك العابد الخاشع الزاهد المجاهد عمر المجرد المغربي المالكي بن شيخ الشيوخ القدوة الزاهد عبد الله المغربي بن الرجل الصالح عبد النبي المغربي المصمودي المجرد أنه وقف وحبس وسبل وتصدق وحرم جميع الثلاثة الدور الموجودين كذا بحارة المغاربة مع جميع ما يعرف بهم وينسب إليهم خارجاً عنهم أو داخلاً فيهم وشهرتهم كافية عن ذكر أربع حدودهم وجميع الزاوية التي أنشأها الواقف بأعلى حارة المغاربة من جهة الغرب وقدر عدة الحجرات التي بداخلها عشر حجرات بجميع حقوقها ومرافقها داخلاً فيها وخارجاً عنها وقفاً صحيحاً من جنس المغاربة وعلى الواردين من المغاربة لبيت المقدس الشريف فمن ذلك أعد الزاوية التي هي بأعلى الحارة للواردين من المغاربة وسكناً إليهم وأعد غلة الثلاثة دور المذكورين على مصالح الزاوية المذكورة وعلى إطعامية العيدين والمولد الشريف، وإن فاض شيء يشتري به خبزاً ويفرق في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان على المغاربة الموجودين بالقدس، وقد جعل التولية والنظر من بعده إلى الأتقى من جنس المغاربة المقيمين بالقدس الشريف وأنه يتقيد المتولي والناظر على الوقف لخدمة الزاوية ولإصلاحها على حسب ما هو مشروط وإن هذا الوقف لا يرهن ولا يوهب ولا يسلب ولا يحل لمؤمن باالله أن يبطل هذا الوقف فمن بدله بعدما سمعه فإنما أثمه على الذين يبدلونه إن االله سميع عليم، في اليوم الثالث المبارك من شهر ربيع سنة ثلاثين وسبعمائة والحمد لله رب العالمين.

قاضي القدس الشرعي

الملحق رقم (٢٥)

نص مرسوم السلطان قانصوه الغوري الملصق على باب كنيسة القيامة المتعلق بمعاملة النصارى في القدس[١]

بسم الله الرحمن الرحيم المرسوم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي السيفي أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه

أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات[٢] (هكذا) الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة رهبان

الكرج والحبوش ولا عند دخولهم إلى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا في مدينة غزة ولا في رملة لدّ الواردين من الرهبان والرهبانات (هكذا) من المذكورين

في البرّ والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك أوفى كمنيرهم (هكذا)

وهي تربتهم التي يدفنو"ا" بها ولا يتعرض أحد إلى موتاهم ولا لبوابهم ومسامحة الرهبان والرهبانات من طايفة الروم والقبط من الموجب بالأعمال المذكورة

في البسط والموسم على جاري عادتهم ومنع من يعارضهم في ذلك حملاً في ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة والمربع الشريف الأشرفي الذي بيدهم

---

[١] المرسوم منقوش على لوحة رخامية مثبتة على الجدار على يسار الداخل من باب كنيسة القيامة.

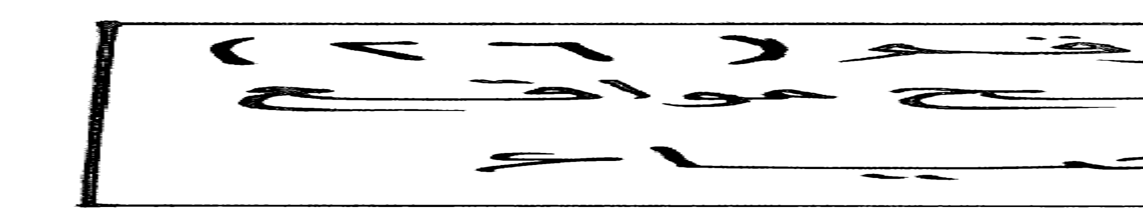
[٢] لعله يقصد الراهبات (جمع راهبة).

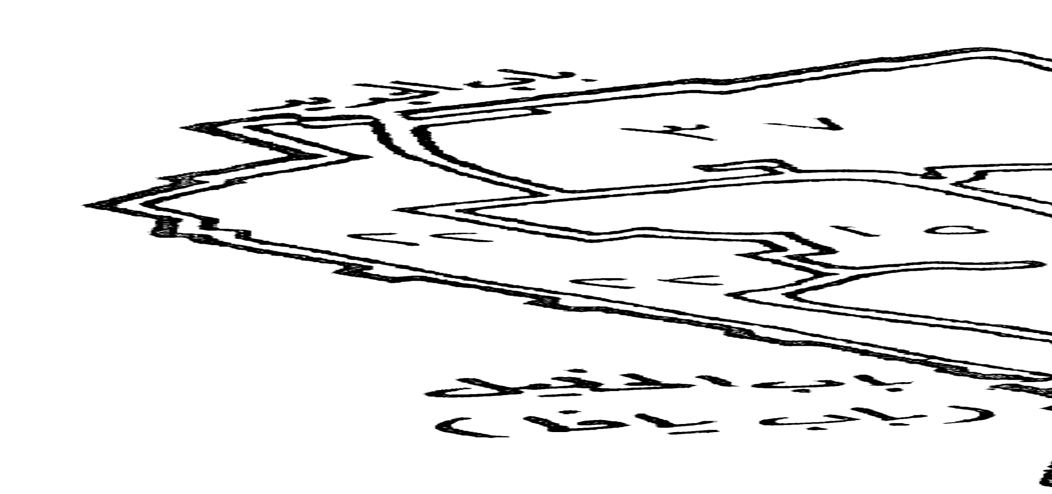
عند إنهائهم أنهم رهبان وأهل ذمة ومنقطعين وأن بيدهم عهدات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك وسالوا كتابة هذا المرسوم الشريف

بذلك جميعه وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القمامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عزّ نصره على ممر الدهور والأيام صدقة عليهم عند تمثل القس صفرونس

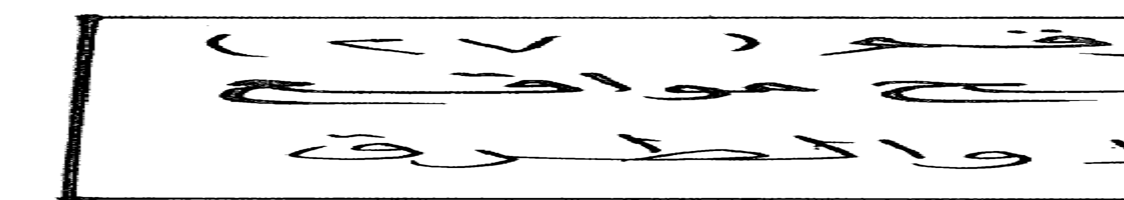
الراهب الملكي ورقعته لدى المواقف الشريفة فرسم لهم بذلك بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانات المشمولة بالخط الشريف حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه

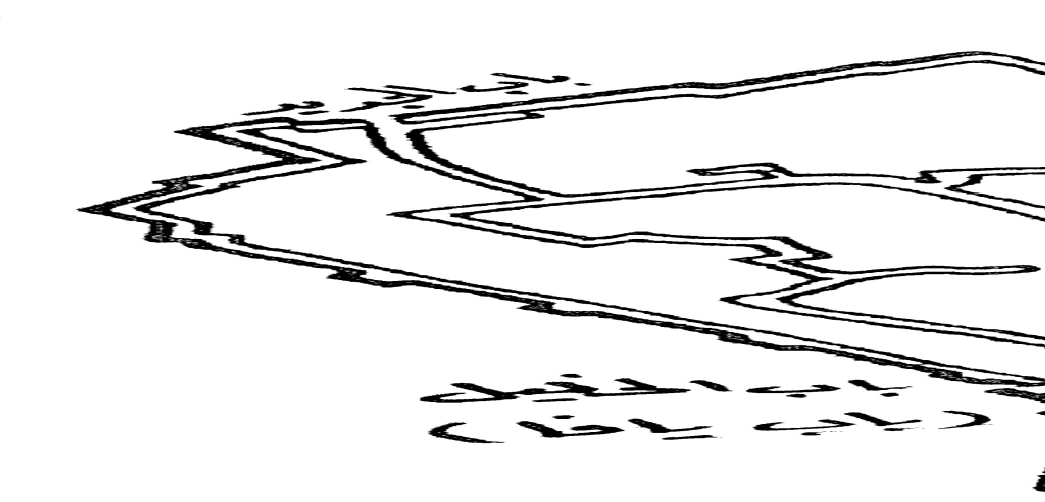
بتاريخ اليوم المبارك التاسع من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع عشرة وتسعمائة والحمد لله وحده مصلياً ومسلماً على من لا نبي بعده



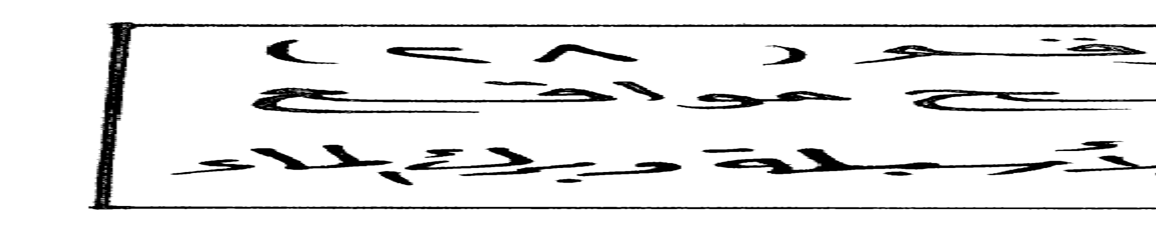


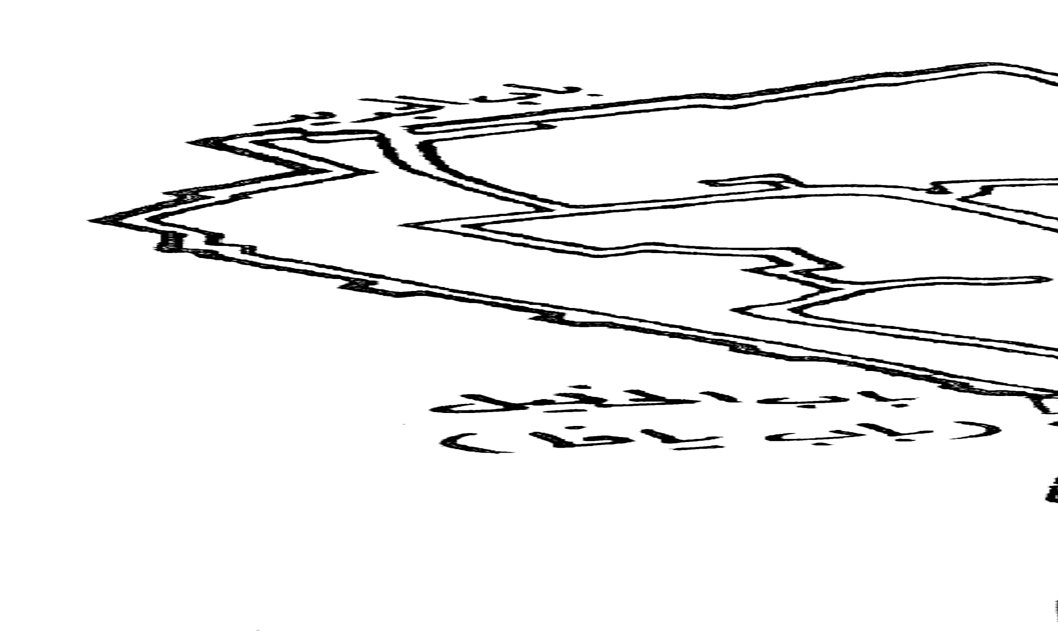
حارة صهيون الجوانية
حارة الحصرية ١٥ —
عنة ٢٢ — حارة الملاط
المشارقة ٢٩ — حارة
ر ٣٦ — حارة المسلخ
— حارة باب السلسلة.



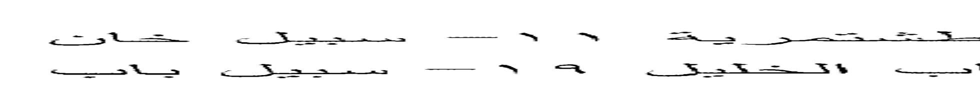


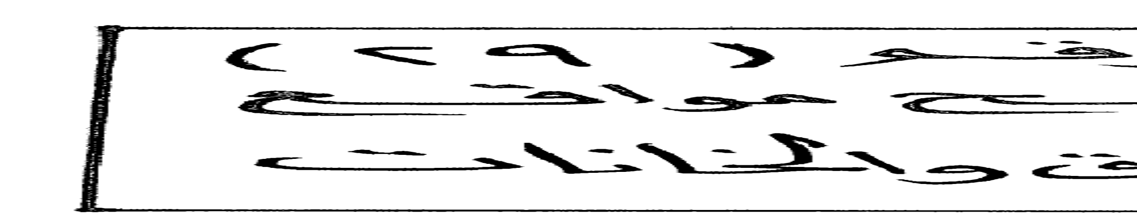
ـرية(سوق خان الزيت) ٧-
ـطريق الواد) ١١- طريق
باب الأسباط ١٨- زقاق
طريق حارة الأرمن ٢٥-
دور الحدادين ٢٨- عقبة
ـج العين ٣٥- عقبة برقوق

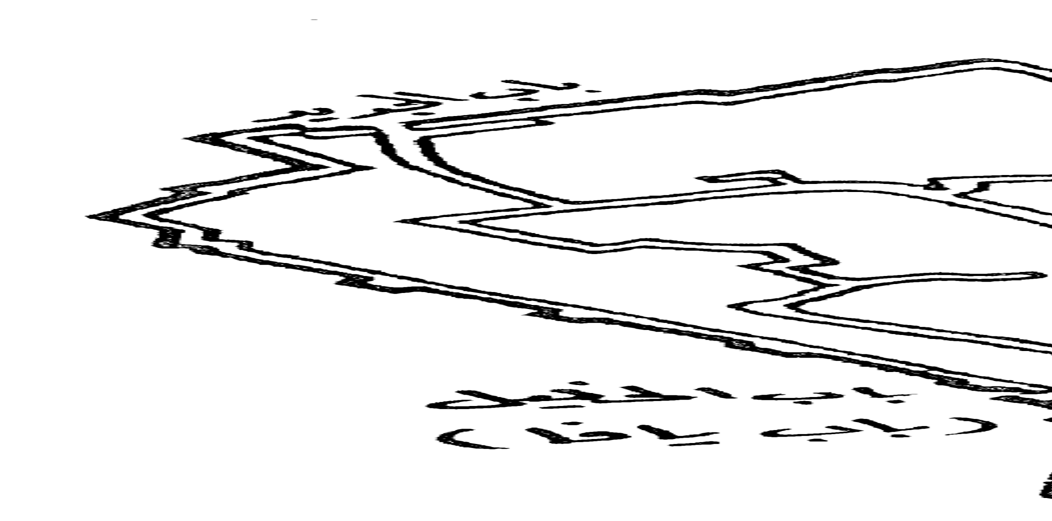

(٨٢)
مواقع
أسبلة وبرك الماء


باب الخليل
(باب يافا)

٢٩


طشتمرية ١١ – سبيل خان
اب الخليل ١٩ – سبيل باب





الصاغة ٨ – سوق الصرف

– خان الصرف ١٩ – خان

الملحق رقم (٣٠)

سبيل قايتباي




جريدة
بالمصادر والمراجع

أولاً: السجلات والدفاتر والوثائق المنشورة:

١. ابشرلي (محمد) والتميمي (محمد): أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين في ألوية غزة، القدس، صفد، نابلس، عجلون، حسب الدفتر ٥٢٢ من دفاتر تحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية، استنبول، ١٩٨٢.

٢. صالحية (محمد عيسى): سجل أراضي ألوية صفد ونابلس وغزة وقضاء الرملة، حسب الدفتر رقم ٣١٢، تاريخه ٩٦٤هـ/١٥٥٦م، سجلات أراضي فلسطين العثمانية، أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، عمان، ١٩٩٩م.

٣. صالحية (محمد عيسى): سجل أراضي لواء القدس حسب الدفتر ٣٤٢ تاريخه ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، عمان، ٢٠٠٢م.

٤. صالحية (محمد عيسى): من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، الرسالة السادسة والعشرون، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٥. العسلي (كامل جميل): وثائق مقدسية تاريخية، الجزء الأول، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٣م، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٨٥م، الجزء الثالث، نشر الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م.

6. Little, (Donald P.) “A Catalogue of the Islamic Documents from Al – haram As- Sarif in Jerusalem" Beirut Texte und Studien” Band 29. Beirut: Orient – Institut der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft in Kommission bei frank steiner verlag – wiesbaden, 1984.

ثانياً: المصادر العربية:

١. ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم بن يونس السعدي، ت٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة، ١٨٨٢م.

٢. ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م.

٣. ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي، ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

٤. ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، ت ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م): المدخل إلى الشرع الشريف، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

٥. ابن الصيرفي (الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، جمهورية مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م.

٦. ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد، ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

٧. ابن العماد (شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي، ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٨. ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م): تاريخ ابن الفرات، تحرير ونشر قسطنطين زريق، جامعة بيروت الأمريكية، المجلد التاسع، (د. ت).

٩. ابن القلانسي (أبي يعلي حمزة بن القلانسي، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت).

١٠. ابن إياس (محمد بن احمد بن إياس الحنفي، ت٩٢٠هـ/١٥٢٤م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

١١. ابن بسام المحتسب (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تح: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

١٢. ابن بطوطة (أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت٧٧٠هـ/١٣٦٨م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٣. ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م.

١٤. ابن جبير (محمد بن جبير الكناني الأندلسي، ت٦١٤هـ/١٢١٧م): رحلة ابن جبير، دار المشرق العربي، بيروت-حلب، (د.ت).

١٥. ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب، ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تذكر النبيه في أيام المنصور وبنيه، جمهورية مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م.

١٦. ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح محمد سعيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، مطبعة المدني، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦م.

– فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٧. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد: ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م): تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، ضبط المتن والحواشي. خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٨. ابن خلكان (أحمد ابن محمد، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

١٩. ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت٨٠٩هـ/١٤٦٠م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تح: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٠. ابن شاهين (خليل بن شاهين الظاهري، ت٨٧٣هـ / ١٤٦٨م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راديس ، طبع بمدينة باريس بمطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م، أعاد نشره دار العرب للبستاني، القاهرة،١٩٨٨– ١٩٨٩ ، وأعاد تصحيحه توفيق نسيم.

٢١. ابن شداد (القاضي بهاء الدين، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٩م): سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تصحيح محمد محمد الرخاوي، مطبعة محمد أفندي علي صبيح ، مصر القاهرة، ١٣٤٦هـ.

٢٢. ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي، ت: ٩٥٣هـ/١٥٤٦م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح: محمد مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، القسم الأول،١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

٢٣. ابن عابدين (محمد أمين بن عمر، ت ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦م) حاشية رد المختار، مطبعة الحلبي، سورية، ط٢، ١٩٦٦م.

٢٤. ابن عبد الظاهر (محيي الدين بن عبد الظاهر ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، ط١، ١٩٦١م.

– الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١ ١٣٦٦هـ/ ١٧٩٦م.

٢٥. ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، تح: أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٢٦. ابن قاضي شهبة (تقي الدين الأسدي، ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م): تاريخ ابن قاضي شهبة، تح: عدنان درويش، دمشق، ١٩٧٧م.

٢٧. ابن قدامة (موفق الدين عبد الله بن أحمد، ت ٦٢٠ هـ/١٢٢٧م) المغني تح: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة، مصر، ١٤٠٦ هـ.

٢٨. ابن كثير (عماد الدين إسماعيل، ت٧٤٧هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٢٩. ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم، ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣٠. ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسنين محمد ربيع، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، جمهورية مصر، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧م.

٣١. أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): تقويم البلدان، صححه رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، طبع بباريس بدار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م.

- المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت).

٣٢. أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

- الذيل على الروضتين، نشر دار الجيل، بيروت ، ط٢، ١٩٧٤م.

٣٣. الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي، ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣٤. البلاذري (أحمد بن يحيى، ت ٢٧٩هـ/٨٢٩م) فتوح البلدان، تح: طه عبد الرؤوف سعد وعمرو أحمد عطوة، الإسكندرية مصر (د.ت).

٣٥. الترمذي (محمد بن عيسى، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، تح: مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٣٦. التطيلي (بنيامين بن بونه التطيلي، ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م): الرحلة، ترجمة عزار حداد، بغداد، ١٩٤٩م.

٣٧. الجوهري (اسماعيل بن حماد، ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م): الصحاح ، تح: أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت).

٣٨. الحطاب (محمد بن عبد الرحمن المغربي، ت ٩٥٤هـ/١٥٤٧م) مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل، وبهامشه التاج والإكليل لمختصر الجليل، (لأبي عبد الله محمد العبدري)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

٣٩. الحموي (ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٤٠. خسرو (ناصر خسرو القبادياني، ت ٤٨١هـ/١٠٨٩م): سفر نامة، تر: أحمد خالد البدلي، نشر عمادة شؤون المكتبات-جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م،

٤١. الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م): سير أعلام النبلاء، تح: محمد نعيم العرقسوسي، ومأمون صاغرجي، إشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

٤٢. روثلين: ذيل روثلين (تكملة روثلين لتاريخ وليم الصوري ويعرف بذيل روثلين، وضع عام ١٢٦١م) من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، الجزء الثامن والخمسون (لم ينشر بعد).

٤٣. سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي، ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الأول، تح: مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- الجزء الثامن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٤٤. السبكي (عبد الوهاب بن علي ت ٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

٤٥. السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦م): التبر المسبوك في ذيل السلوك، تصحيح أحمد زكي بك، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٨٩٦م.

- الضوء اللامع -لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، (د. ت).

٤٦. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ/١٥٠٥):
- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧١هـ.
- حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- لب اللباب في تحرير الأنساب، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تح: محمد علي البار، دار القلم-دمشق، الدار الشامية-بيروت، ط١،١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٤٧. السيوطي (محمد بن أحمد المنهاجي، ت٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م): جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، ضبط ودراسة محي الدين العتيبي، دار اليوسف للنشر، بيروت - المزرعة، (د. ت).

٤٨. الشربيني (محمد الخطيب، ت ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م) المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، مطبعة الاستقامة، بيروت، ١٩٥٥م.

٤٩. الصابئ (أبي الحسن هلال ابن الصابئ، ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م): رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

٥٠. الصوري (وليم): (رئيس أساقفة صور ١١٣٠-١١٨٥م): تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٥١. الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ت٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت ــ لبنان، (د.ت).

٥٢. العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج الأصفهاني، ت٥٩٧هـ/١٢٠١م): الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، (د.ت).

٥٣. العماد الحنبلي (عبد الحي بن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٥٤. فابري (فيلكس): رحلته ، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، (الأجزاء ٤٠-٤٣)، ط١، ٢٠٠٠م.

٥٥. الفيروز أبادي (محمد بن يعقوب الشيرازي، ت٨١٧هـ/١٤١٤م) القاموس المحيط، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن مرعشلي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٥٦. القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، ت٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

٥٧. القفْطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، ت ٦٤٦هـ /١٢٤٨م): تاريخ الحكماء وهو مختصر الزَوْزَني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى ببغداد - مكتبة الخانجي بمصر، (د.ت).

٥٨. القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥٩. متى باريس: تاريخ متى باريس، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ج٤٧، ٢٠٠١م.

٦٠. المسعودي (علي بن الحسين: ت٩٥٦هـ/١٤٥٩م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: قاسم الرفاعي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٦١. المقدسي (محمد بن أحمد البناء البشاري المقدسي، ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٦٢. المقري (أحمد بن محمد التلمساني ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٦٣. المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢ ،١٩٥٧م.
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تح: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: الجزء الأول والجزء الثاني محمد مصطفى زيادة، الجزء الثالث والجزء الرابع سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٣م.
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بيروت، دار صادر.

٦٤. النعيمي (عبد القادر بن محمد النعيمي، ت٩٢٧هـ/١٥٢١م): الدارس في تاريخ المدارس، تح: جعفر الحسيني، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

٦٥. النووي (يحيى بن شرف النووي، ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م): صحيح مسلم بشرح الإمام النووي المسمى المنهاج شرح الجامع الصحيح، مصطفى البنا، دار العلوم الإنسانية، دمشق، حلبوني، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م – رياض الصالحين، تح: شعيب الأناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦٦. النويري (أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٧٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، تح: السيد الباز العريني، مراجعة عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

٦٧. اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، تصحيح وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ثالثاً: المراجع العربية:

١. إبراهيم (عبد الغفار): أحكام الميراث والوصية والوقف الإسلامي، القاهرة، (د. ت).

٢. أبو حمود (قسطندي نقولا): معجم المواقع الجغرافية في فلسطين، جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٨٤.

٣. أحمد (عبد الرزاق أحمد): المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

٤. أرمسترونج (كارولين): القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، (د.م)، ١٩٩٨م.

٥. الإمام (رشاد): مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦.

٦. أمين (محمد محمد): الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠.

٧. البرغوثي (عمر) وطوطح (خليل): تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد-الظاهر، ٢٠٠١م.

٨. التازي (عبد الهادي): أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة-المحمدية (المغرب)، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٩. الحجي (حياة ناصر): السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٩٨٣م.

١٠. الحريري (سيد علي): الحروب الصليبية، تح: عصام شبارو، دار التضامن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٨م.

١١. الحسن (أحمد يوسف): التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، بحث ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في العصور الوسطى، تحرير هادية وبرهان ديجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٢. حسن (علي): تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط٢، ١٩٤٨م.

١٣. حسنين (عبد المنعم محمد): قاموس الفارسية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

١٤. حمادة (محمد ماهر):الوثائق السياسية الإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.

١٥. الخوري (شحادة) والخوري (نقولا): تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥م.

١٦. الدباغ (مصطفى مراد): بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١م.
 – الموجز في تاريخ الدول وعهودها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١م.

١٧. الدجاني (أحمد صدقي): ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين حتى الفتح العربي الإسلامي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية ــ عمان، جامعة اليرموك ــ إربد، الجزء الثالث، ١٩٨٣م.

١٨. دراج (أحمد): المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م.
 – وثائق دير صهيون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨.

١٩. الدسوقي (إبراهيم): المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢م.

٢٠. الدسوقي (محمد علي): تهذيب ألفاظ العامية، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٣م.

٢١. دهمان (محمد أحمد): معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت-دمشق، ١٩٩٠م.

٢٢. ديماند: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ط٢.

٢٣. الديوه جي (سعيد): الموجز في الطب الإسلامي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٢٤. رافق (عبد الكريم): فلسطين في عهد العثمانيين، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ط١، ١٩٩٠م.

٢٥. رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٢٦. الزحيلي (وهبة): الوصايا والوقف، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٨م.

٢٧. الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العم للملايين، ط١٤، ١٩٩٩م.

٢٨. زكار (سهيل): فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٩. زيود (محمد): التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم العربي والإسلامي، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠١م.

٣٠. السعيد (عبد الله عبد الرازق): المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، دار الضياء، عمان ١٩٨٧م.

٣١. سليم (محمود رزق):عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

٣٢. سليمان (أحمد سعيد): تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة.

٣٣. السيد علي (علي): المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، القاهرة ـ باريس، ط١، ١٩٨٦م.

٣٤. شراب (محمد محمد): معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.

٣٥. صبري (بهجت حسين): لواء القدس ١٨٤٠-١٨٧٣م، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، المجلد الأول.

٣٦. العارف (عارف): المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م.

٣٧. عاشور (سعيد عبد الفتاح): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م.

- بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث بتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية- عمان ، جامعة اليرموك - إربد، الجزء الأول.

- دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- قبرص والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠٢م.

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).

٣٨. العبادي (أحمد مختار): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

٣٩. عبد الغني (مصطفى): الأوقاف على القدس، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٧م.

٤٠. عبد المهدي (عبد الجليل حسن): المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، جزءان، عمان ١٩٨١م.

٤١. عبده قاسم (عبده): دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

٤٢. عرنيطة (يسرى جوهرية): الفنون الشعبية في فلسطين، عمان، ١٩٨٨م.

٤٣. العسلي (كامل): أجدادنا في ثرى بيت المقدس، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، ١٩٨١م.

- المدارس ومعاهد العلم والعلماء في فلسطين، بحث في كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على القدس في العصور الوسطى، تحرير هادية وبرهان دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ط١، ١٩٩٤م.

- معاهد العلم في بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٨١م.

- مقدمة في تاريخ الطب منذ أقدم الأزمنة حتى عام ١٩١٨م، نشر الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤م.

- مكانة القدس عربياً وإسلامياً عبر التاريخ، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، (الدراسات الخاصة)، المجلد السادس، بيروت، ط١،

١٩٩٠م.

- من آثارنا في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨٢م.

٤٤. علي (أحمد): الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي، دار شمأل، دمشق، ١٩٩٥م.

٤٥. عنان (محمد عبد الله):نهاية الأندلس، مطبعة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧م.

٤٦. عوض (محمد مؤنس أحمد): الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، القاهرة، ١٩٩٢م.

٤٧. عيسى بيك (أحمد): تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت– لبنان، ط٢، ١٩٨١م.

٤٨. غنيمة (محمد عبد الرحيم) : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان، دار الطباعة المغربية، ١٩٥٣م.

٤٩. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد): موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٥٠. غوانمة (يوسف درويش): تاريخ شرقي الأردن في عصر المماليك (القسم الحضاري)، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩م.

- نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الأردن – عمان، ١٩٨٢م.

٥١. غوشة (محمد هاشم): بوابات القدس، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٩٢م.

- حارة السعدية في القدس، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٥٢. فيلبوس (الأنبا): حقوق الكنيسة الحبشية الأرثوذوكسية في الأماكن المقدس، القسم الثاني، القدس ١٩٦٢م.

٥٣. كيال (منير):الحمامات الدمشقية، مطابع ابن خلدون، دمشق،١٩٨٦م.

٥٤. ليتل (دونالد): مقال القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك، منشور في كتاب القدس في التاريخ، تر: كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان – الأردن، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٥٥. ماجد (عبد المنعم) نظم دولة سلاطين المماليك، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

٥٦. محمد (عبد الرحمن فهمي): النقود العربية، ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥٧. المدني (زياد): مدينة القدس وجوارها، بنك الأعمال، الأردن، عمان، ١٩٩٧م.

٥٨. مصطفى (إبراهيم) وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة، استنبول، ١٩٨٩م.

٥٩. المنجد (صلاح الدين): اللاجئين المقادسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأرنية –عمان، جامعة اليرموك– إربد، المجلد الثالث، ١٩٨٣م.

٦٠. الموسوعة العربية الميسرة: صدرت بإشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٦١. الموسوعة العربية، الجمهورية العربية السورية،هيئة الموسوعة العربية، دمشق.

٦٢. الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق.

٦٣. مونروند (مكسيموس): تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب، تر: مكسيموس مظلوم، طبع أورشليم في دير الرهبان الفرنسيسكانيين، ١٨٦٥م.

٦٤. ناصر (جلال أسعد): عمائر السلطان قايتباي في بيت المقدس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م.

٦٥. النباهين (علي سالم): نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨١م.

٦٦. النبراوي (رأفت محمد): النقود الإسلامية في مصر عصر دولة مماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

٦٧. نجم (رائف) وآخرون: كنوز القدس، مؤسسة آل البيت ومنظمة المدن العربية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦٨. هنتس (فالتر): المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط١، ١٩٧٠م، ط٢، (د.ت).

٦٩. الهيلة (محمد حبيب): القدس وإشعاعها الثقافي في المغرب والأندلس من خلال الرحلات العلمية، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، الجزء الأول ١٩٨٣م.

٧٠. يعقوب(محمد أحمد سليم): ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري، منشورات البنك الأهلي، ط١، ١٩٩٩م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1. Adler, E., N.: Jewish travelers, lst, Published London, 1930.
2. Amiry (M.A): Jerusalem, Arab origin And heritage. London, 1984.
3. Ashtor: Asocial And Economic Histore Of The Near East In the Middle Ages, iondon, 1976.
4. Ayalon (David): Discharges From Service, Banishments And Imprisonments In Mamluk, Israel Oriental Studies 1972.
5. Benvenist. (M.): The crusader in the holy land, New-York. 1972.
6. British School of Archaeology: the Architectare of Islamic Jresalam, An Exhibition Prepared on the Occasion of the World of Islam Festival, London, 1976. Jerusalem, 1976.
7. Burgoyne (Michael hamiton): with Additional Historical Research By D. S. Richards Mamluk Jerusalem, An Architecitural Study. (London). World of Islam Festival Trust for the British School of Archaeology In Jerusalem, 1987.
8. Casola'(Canon Pietro) pilgrims to Jerusalem in the year 1494 by,M. Margaret newett, Manchester, the university press 1907.
9. Cohen (Amnon) and Lewis (Bernard) : Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century,Princeton University press – New jersy 1978.
10. Conder: The latin kingdom of Jerusalem , London, 1897.
11. Drory (joseph): jersalem during the Mamluk Period (1250-1517),Symposium :Muslim Literature in Praise of Jerusalem (Jerusalem :Yed Ishak Ben-Zvi,1981).
12. Encyclopedia of Islam New ED (1971) Article "Hammam".

13. Franscecesco Souriano: Treatise on the Holy land trans. From the Italian by. Fr. Theophilus bellorini, Jerusalem, 1948.
14. Frescobaldi Gucci And Sigoli: Visit To The Holy Places Of Egypt, Sinai, Palrstine, And Syria In 1384, Translated By Fr.T. Bellorini Jerusalem: The Franciscan Press, 1948.
15. Graetz (Heinrich): History of the jews (London, 1892).
16. Little, (Donald .p) : six fourteenth century purchase Deeds dor slaves from Al- Haram Ash- Sharif in Zeitschrift der Deutschen Morgenlan Dischen Gesellchaft, (Z.D.M.G) Band 131, Heft 1 , 1981.
17. Little, (Donald P.): Relations between Jerusalem and Egypt during the Mamluk Period According to Literary and Documentary Sources, in Egypt And Palestine: A Millenium of Association (868-1948) Jersalem: Ben-Zvi Institute, 1984.
18. Little, (Donald P.): The Documents As Source For The Arts And Architecture of The Mamluk Period, Muqarnas, Vol. II, 1984.
19. Little, (Donald P.): The Judicial Documents From al – Haram Al – SHarif as Sources for the History of Palestine under the Mamluks, The Third International Conference on Bilad al – sham: Palestine 19 – 24 april 1980. vol. I. Jordan. University of Jordan Yarmouk University, 1983.
20. Little, (Donald P.): The Significance of the Heram Documents For the Study of medieval Islamic History, DerIslam Bd. 57 Heft2, 1980.
21. Little, (Donald P.):Haram Documents Related to the Jews Of Late Fourteenth Century Jerusalem, Journal Of Semitic Studies XXX , 2 (Autumn1985).
22. Lutfi, (Huda A.) : A Study of Al-Quds during the Fourteenth Century Based Primarily on the Haram Esate Inventories And Related Documents, Berlin: Klaus Schwarz Verlag, 1985.

23. Marmorosch: Old and new places in Palestine, Syria and Lebanon Anew cuide-jerusalem, 1946.
24. Momluke Eendowment Deeda As A source For the history of education in Late medieval Egypt al – abhath vol. XXVIII 1980.
25. Murray: Syria And Palestine 2 Vols, London, 1858, Vol I.
26. Northrup, lindas. and amal A.AL-Haji: A collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic MuseVm at the Haram Al-Sarif, Arabic XXV, No 3 (1978).
27. Painter (Sidney): A History of the Middle Ages 284-1500 papermac 45, ondon-Meibourne Magmillan. 1965.
28. Prawer (Jusha): The Sattlement Of the Latins In Jerusalem, Speculum (1952.Vol 27).
29. Rey , les Colonies Franques de Syria aux Xll et Xlll siecles (Paris: 1883) .
30. Wolf – dieter hutteroth, Kkamal Abdulfattah : Historical Geography of Palestine, Transjordan and southern Syria in the late 16th century Erlangen, 1977.

خامساً: المجلات والدوريات:

١. الترمانيني: الرق، ماضيه وحاضره، مجلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد٢٣، ذو الحجة ١٣٩٩م-المحرم ١٤٠٠هـ/ تشرين الثاني ١٩٧٩م.

٢. حداد (سامي): المارستانات العربية، مجلة المقتطف، المجلد التاسع، الجزء الأول، ١٩٣٧م، ص١٠. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات.

٣. الشيخ (سليمان): القدس الإنسان والمكان، مقال منشور في مجلة العربي، العدد٣٣٩، جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ/شباط ١٩٨٧م.

٤. الطيباوي (عبد اللطيف): القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام، مقال منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع والخمسون، الجزء الأول، صفر ١٣٩٩هـ/ كانون الثاني ١٩٧٩م.

٥. الطيباوي (عبد اللطيف): حائط البراق والأوقاف الإسلامية في غربة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الخامس والخمسون، الجزء الثاني، جمادى الثانية ١٤٠٠هـ/نيسان ١٩٨٠م.

٦. عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ١٩٨٠م.

٧. عثمان (محمد عبد الستار): المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٢٨، ١٩٨٨م.

civilized and scientific glory which is currently denied in the International Community.

In the end, the research was followed by annexes containing some documents and other scripts on religious endowments with maps for the city clarifying the positioning of the suburbs and the blocks, roads, ways, khans, suks, water taps and pools, in addition to a bibliography of the sources upon which this thesis was built.

The 3rd chapter was specified for depicting women's life which is a new subject in the historical studies, fortunately the scripts gave us what traditional sources failed in introducing to us. In these documents there were rich materials on depicting the life of women in medieval times where the researcher explained on the position of women in the community of Jerusalem at that time. Women used to have right to purchase, sellout, do business and giving delegation even the bills of attorney and the wills were mandated to her in addition to being able to make a law suit against those maltreated her. Life at marriage and family was depicted in practical and in scientific terms too whe the brothers,Fathers ar ahusband.

Chapter 4 was specified to talk about some of the social aspects in the daily life of the population of jerusale. Social life was not limited to the daily activities alone, but on the other hand, there was depicted a very vital aspect of the institutions and the establishments such as the baths and the hospitals added to other religious aspects or socio-economic ones such as mosques, schools, khans, etc. that is why there was a talk about the purely social imbue where these institutions were available with abundance in the Mamluk era. They actually provided services to the public. This aspect also showed the building methods and types, wages, zuqaqs, streets of the city Furniture was depicted as well.

After demonstrating on the most important results of the research in the conclusion, there has been proved that the survived at a very high degree of prosperity where religious tolerance was spread. This is a clear way the history of the city. This is as well an irrefutable response against the chauvinist acusations against our nation to be ignorant. This is referent to two aspects women used to have freedom, and endowments and its contribution to socio-economic life and the scientific, religious, urban, and other aspects of life. Therefore it was a must for us as researchers on history to revise our civilized legacy to reassess it though many parts of it was lost under political struggles. We have to try to show our people their

There actually were many reasons for this diversity in the origins of the population among which is the nature of life emergencies in Jerusalem such as genocide, forcing the population out and bringing along new residents to the city. Add the role of Saladdine in re-habitatng population with a number of the arab, Kurdish and Turkish tribes in addition to the role of the mamluks in bringing along cultural, economic and social security and stability in a way encouraging many people fom the Islamic world to immigrate to Jerusalem whether because of what happened to them in their place of residence in the east because of the brutality of the Mongols or those from the western parts due to the chauvinism of the Crusades in Andalusia and in the Arab Western parts all seeking stability and safety. In other cases, many people were seeking sciences or enjoying the sacred places in the city after this very long absence from it.

The second chapter revolved around the structure of the community at that age where I demonstrated on the Jerusalem community at that time in addition to its counts depending on estimations of the travelers who visited the city and on the statistics at the beginning of the Ottomans era because there were not regular counts and statistics about Jerusalem and other counties in the Ottoman Empire.

I dealt with the structure of the community in Jerusalem in a detailed way on the basis of (Moslem, Christian, and Jews). These relations were punctuated with tolerance and latitude in trade and in the public life of the residents since there houses were just neighboring each other. You could find Moslems living next to the Jews and the Christians and Mosques side by side with churches in addition to marriage bonds that were reflected by the scripts and the documents of the Qudsi Haram. All the sources prove that any religious sect were in the position to get all their rights. After that the documents stated the situation of the slaves in the households where the frequency of mention this issue was high. The documents mentioned their lives and their origins in addition the chances for emancipating them and who possessed them too.

Therefore, I made the choice to study the community at the age of the Mamluks depending on the documents of the scripts of the Honorable Qudsi Haram dating back to that age. These were discovered in the at the Islamic Museum located in the southwestern part of the Al-Qudsi Haram in the years 1974-1976. These scripts gave us portrials of the life as depicted in the age of the Mamluks. These documents portray the life different aspects of life such as sales, purchasing, marriage, divorce, inheritance, court minutes, religious endowments, certificates, and statements etc among all the member of the community at that time.

This research was systemized in an introduction, a study of the sources for research, 4 chapters a conclusion and a number of annexes with a bibliography of the references.

In the introduction, I introduced the significance of the research, reasons for choosing it, difficulties faced during preparation for the thesis, the track followed until I reached this final version. Then stages followed was elaborated on. After that I cross examined the documents of the Haram in Jerusalem since they are the source for this thesis with a study over the traditional sources of history to have the view of the research complete and clear.

In chapter 1, I talk about the demographic components of the Jerusalem community at that time where the scripts prove that they were a mixture of races and demography. In the records of the attorney, we find how the parties are stated for their belonging to tribes or the forefather of the family. The documents of the honorable Haram has covered this rule. On the basis of this document, I found out that the population of Jerusalem go back in their origins to other cities like, Saltt, Baalbeck, Karak, Shawbak, Egypt, Nazareth, Nablus, Tripoli, Hijjaz, Tunisia, Morocco, Basra, Bukhara, Khawarezm, Mardan, Mosul, Sudan, Habasha, Turk, Turkmem, Rome, Qarram, Kurd, Cyelon, and Franks too. After this overview of the demographical origins, there was an interpretation that analyzed the reasons for demographical diversity.

decisions to kill every one alive in Jerusalem. This massacre lasted for almost a week, and the rest who escaped their lives immigrated. This evacuation of the residents of Jerusalem was followed by housing of residents who came with the First Crusade.

Once again, the demographic structure was transformed fundamentally when Saladdine liberated the city in the year 583 AH\ 1187 AD Saladdine forced the Europeans and re-housed new population in the city. Of corse, they came with him. Therefore it was important for us to study this movement and to observe the changes accompany it in order to get to know the structure of the new community and its life too.

However the city was not that stable at the time of the Ayoubis and the situation in it was not different from what it used to be at the time of the crusades. In the year 616 A.H/ 1219 AD, the walls of Jerusalem undergone intended destruction via orders from Issa the Glorified, the governor of Damascus for fear that the Crusades in Demyat, Egypt were going to re-occupy the city to make it a fortified fortress again, where they will be expelled very hard. Sohe destroy edits walls This had led to huge destruction in the houses and their owners left them to al-Karak, Damascus or to Egypt.

This situation was repeated when Mohammad the Perfect, surrendered the city to the Crusades again without fighting by virtue of a peace accord with King Fredrich 2nd in the year 626 AH\1229 AD. the city surrendered to the Crusades again for 16 years.

However, the situation was different in the Mamluks era. After containing the danger of the crusaders and the Mongols, the city started stable life again. She began to recover astonishingly after being stricken many times in the past. The mere fact stating that Jerusalem was no longer been endangered and this fact brought in factors of prosperity and stability to the city. This was moulded and chrystalised in an Islamic character of Jerusalem, and the community in the city was under the rule of the Islamic state after more than 150 years of troubles outside the framework of Islam.

In the Name of Allah Most Gracious Most Merciful. Praise to Allah and best of glory to Mohammad (PBUH),

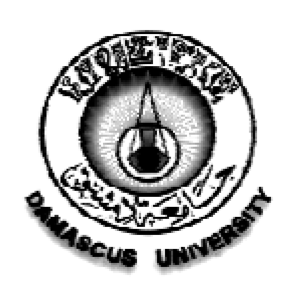
where Jerusalem occupied a distinguishable place in the Islamic history due to her unique importance and religious significance in the minds of Moslems and others. This importance increased because of the trial of some foreign and local forces and parties to impose their control over it. Jerusalem had undergone more than 22 conquests all over its history, and most of them were terminated but one most recent is still and one day this is going to be demolished willy-nilly.

Therefore the struggle over Jerusalem is continued all over the ages of history. Today, this city is considered as the symbol of the struggle between the Arabs and the Moslems on one side and the Zionists who are supported and backed by the US and Europe on the other. Receutly, in the face of the recent escalating judization of the city, and the demolition of the Islamic features, in addition to the increasing interest in Jerusalem on different aspects not to mention the interest in her history with view to refuting the falsification of the jewish allegations that they have the so called Temple in Jerusalem. While the city all over the Islamic eras of its history, it was a bright beacon for civilization where all scholars used to visiti nowa days the city of peoce turned into a focal point of brutalities and destructive actions under the rule of the Zionists same as in the era of the Crusades.

Jerusalem had undergone lots of calamities and catastrophes in the pre-Mamluk era (i.e. in the era of the Crusades and in the Ayoubi era). These incidences led into shaking the stability of the city and the demographic structure of the city underwent drastic and fundamental changes at that time.

After falling captive in the hands of the Crusaders in the year 491 AH/ 1099 AD, Jerusalem was governed by a military council. This council made

Damascus University
Faculty of Art and Humanity Scientific
History Department



Social Life In Jerusalem IN Mamlukes Age As Viewed From Documents Al Haram Al Qudsi Al Shrief

A dissertation To Get Master's Degree In History Of The Arabs And Islam

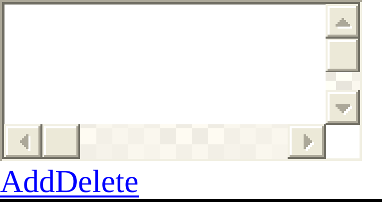
Prepared by:

ANAS Abdullah AL- MOHAMMAD

Supervision by:

Dr. AMAR MOHAMMAD AL NAHAR

Academic year 2009-2010



AddDelete

Demo Version